

جمال الغيطاني

مُنْتَجَمُ الْمَلِكِ
الْمَلِكِ الْمُتَمَرِّقِ الْعَرَبِيِّ
دراسات في التراث

دار الشروق



www.j4know.com

مُنْتَهَى الطَّلَبِ
إِلَى تَرَاتُجِ الْعَرَبِ
دراسات في التراتج

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

بيئع بحقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

أسسها محمد المعتز عام ١٩٦٨

القاهرة ٤ : شارع سيويه المصري - رابعة المنوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البازيلاء - تلفون : ٤٠٢٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣٦٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

جمال الغيطاني

مُنْتَهَى الْمَطْلَبِ
الْمَعْنَى فِي الْعَرَبِيَّةِ
دراسات في التراث

دار الشروق

التراث العربي بين السابق.. واللاحق ..

لحسن حظى أننى بدأت أكتشف التراث داخلى منذ مرحلة مبكرة . التراث كامن داخلنا ، فى سلوكنا ، فى حياتنا اليومية . وأعنى بذلك التراث بمفهوم شامل لا يقصره على حقبة معينة ، أو اتجاه معين . أعنى التراث العربى المكتوب ، والشفاهى ، العبارة ، الرسم ، سائر الفنون . عوامل عديدة عمّقت إحساسى بالتراث ؛ منها طبيعة نشأتى فى حى عتيق ، عريق ، مازال التاريخ القديم سيالاً حياً فيه ، لا يتمثل فقط فى الآثار المعمارية ، مساجد كانت أو أسبلة أو بيوتاً أو مزارات ، إنما يشمل العلاقات الإنسانية بالناس . إلى جانب ذلك رغبتى وطموحى منذ أن بدأت الكتابة فى الخمسينيات ، وبالتحديد عام ١٩٥٩ ، إلى ابتكار أشكال جديدة من التعبير . وليس التوصل إلى أشكال فنية جديدة فقط هو الهدف فى حد ذاته ، لكنها الرغبة فى إيجاد أفضل شكل يتيح قدرًا كبيرًا من الحرية ، الحرية فى الإبداع ، فى التفكير ، فى تجاوز أشكال الكتابة القديمة . شكل يحقق لى قدرًا أكبر من حرية التعبير . وقد وجدت ، من خلال توجهى التلقائى إلى التراث العربى أن هذا التراث يحتوى على عناصر القصّ ، وفلسفة الرؤية التى تمكننى من تحقيق هذا القدر من الحرية . وأذكر ، عندما كتبت قصة « هداية أهل الورى لبعض ما جرى فى المقشرة » أن أحد الأصدقاء قرأها مخطوطة ، وقال لى : إنها مرحلة جديدة فى القصة ، ويومها عدت إلى البيت وأنا أردد بينى وبين نفسى « إنه يجاملنى . . . أحقًا تمثل شكلاً جديدًا ١٢ » ، ولكن بعد صدور مجموعتى القصصية الأولى « أوراق شاب عاش منذ ألف عام » ، كتب النقاد عددًا من الدراسات حولها . هذه الدراسات ساعدتنى فى بلورة وتعميق اتجاهى إلى التراث العربى ، والشعور الأعمق بالثقة فيه ، والاتجاه إلى وصل السابق باللاحق . إذ إننى نشأت على التراث العالمى فى الإبداع وفى نفس الوقت كنت أعى شيئًا فشيئًا أن ثمة أشكالاً من القص والحكى والرؤى ، قد انقطع عهدنا بها ، أو إذا جاز التعبير قد حدث انفصال بيننا وبينها . وقد جاء هذا الانفصال ، أو بدأت هذه الفجوة فى

تقديرى اعتباراً من نهاية القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر ، وبالتحديد منذ قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر بقيادة الجنرال بوناپرت ، حدثت هذه الفجوة في الإبداع في إطار توجه عام إلى الحضارة الأوربية ، شمل جميع المجالات ، بدءاً من المعمار وحتى أساليب الكتابة ، وصاحب ذلك شعور عام أن الحضارة الأوربية هي المصدر وهي المرجع الذى ينسب إليه القياس ، ووصل ذلك في بعض المراحل إلى شعور بالدونية الثقافية .

في الفلسفة مثلاً نجد أن معظم الجهود التي تمت ، تمت في حدود نقل فلسفات ولدت في الغرب ، وشرحها . وفي الجانب المقابل نجد بعض الجهود التي اتجهت إلى شرح الفلسفة الإسلامية ، وإعادة نشر بعضها ، وليس كلها أو معظمها . ولم تسم حتى الآن محاولة متكاملة تستهدف التوصل إلى فلسفة ذات أصول عربية متكاملة ، وإن تنوعت الاجتهادات والجهود ، وأخص منها بالذكر جهود الدكتور إبراهيم مذكور في تحقيق مصادر الفلسفة العربية والإسلامية وشرحها وتدريسها ، والجهد العلمى الممتاز الذى بذله الدكتور حسين مروة ، والدكتور الطيب التزنى ، والاجتهادات الأخيرة والدراسات التى يقوم بها الدكتور محمد عابد الجابرى والدكتور جلال أمين والدكتور محمد عمارة وعادل حسين والشاعر الكبير أدونيس ، كل منهم في مجال اختصاصه ، وفي حدود اجتهاداته . وبالطبع فإن عرض أفكار كل منهم مما يخرج عن هدف هذا المقال . إن الجهود عديدة ، والقضية مثارة في أكثر من مجال ، ولكن ما يعينى هو المجال الإبداعى ، هو إعادة التثام الفجوة التى حدثت بين القديم والحديث ، بين السابق واللاحق ، بين ما تعلمته وترسب في وجدانى من تراث عالمى ، وتراث عربى أصبح مهجوراً .

* * *

من خلال تجربتى الخاصة ، ومن خلال كتابات النقاد عنها ، والجهود الفكرية الحديثة التى تتخذ التراث العربى محوراً لها - ليس من منطلق سلفى بحت ، وليس بهدف التقوقع ، أو الاحتفاء بالقديم - ومن خلال فهمى للتراث على أنه هذه العناصر الحية المستمرة في واقعنا اليومى المعيش ، وفي عناصر الثقافة الشفاهية أو المكتوبة ، ومن خلال إحساسى بخطورة التوجه الكامل إلى الحضارة الأوربية ، والذى ترجع جذوره إلى الحملة الفرنسية ، أمكننى بداية تحديد المنابع أو المصادر التى يمكن أن نشرى بها فن القص العربى . ويمكننى أن أوجزها فيما يلى :

* هناك بالطبع المصادر التى يتحدد فيها القص العربى المباشر وأبرزها شكل المقامة ، والملاحم العربية الكبرى التى أصبح بعضها شعبياً وشائعاً ، مثل سيرة عنترة وسيرة سيف

ابن دى يزن ، والوزير سالم ، والأميرة ذات الهمة ، وأبى زيد الهلالي . هناك أيضًا أيام العرب ، وموسوعات الأمثال العربية ، وأخص بالذكر موسوعتين ، الأولى للميداني ، والثانية للزخشري . إن أهمية هاتين الموسوعتين لا تقتصر فقط على إيرادهما لآلاف الأمثال العربية التي ما زال كثير منها حيًا حتى الآن ، ولكن في إيرادهما لمئات الحكايات التي تشرح الأحداث التي أدت إلى ضرب هذه الأمثال . سوف نجد فيهما فنًا فريدًا للقص ، خاصة للقصة القصيرة ، أسلوبًا خاصًا جدًا لا يمكن إلا أن نجده في هذين المصدرين .

* أما الشق الثانى من المصادر فلأسمه أساليب القص غير المباشرة . ومن ذلك حوليات التاريخ العربى الكبرى ، تلك التي تسجل الأحداث التاريخية الكبرى ، والتي تصل في دراميتها إلى مستوى العمل الإبداعي ، أو توحى بأعمال إبداعية كبرى . أو تلك الحوليات التي تسجل ملامح الحياة العادية للناس في أزمنة مختلفة . يمكننا أن نجد هنا أساليب مختلفة للقص هذا من ناحية الشكل ؛ أما من ناحية المضمون فلاحدود للحوادث الموحية ، والتي تضيف عمقًا على الحاضر اليومي الآن . وهنا أذكر حوليات الطبرى ، وابن كثير ، والدينورى . أما فيما يتعلق بتاريخ مصر ، فإنه يكاد يكون مدونًا يومًا بيوم منذ الفتح العربى وحتى يومنا هذا ، بدءًا من ابن عبد الحكم ومرورًا بالقضاعى والمسبحى والمقرئى وابن واصل وابن تغرى بردى وابن إياس وابن عبد الظاهر والجبرتى . بل إن هذا الشكل من الكتابة « الحوليات » ينفرد به التراث العربى . وهناك العديد من الدراسات الاستشرافية لعلم كتابة التاريخ عند العرب ، أبرزها دراسة روزنتال .

* ينفرد التراث العربى أيضًا بوجود شكل آخر من التأليف ، اعتبره مصدرًا مهمًا من مصادر القص ، أقصد « الحِطَط » ، حيث يدون تاريخ المكان ، ليس مجردًا ، إنما في تطور ما جرى عليه من أحداث ، وما تعاقب عليه من بشر ، وما جرى عليه من معمار وهدم . وأشير هنا إلى حِطَط المقرئى ، وحِطَط على باشا مبارك ، وحِطَط الشام لمحمد كرد على .

* مؤلفات السُّحر والتنجيم في التراث العربى ، مثل شمس المعارف الكبرى وتذكرة العارفين ، وغيرهما . وهنا أشير إلى التراث الشعبى في هذا المجال فلم تكن نعيشه كتراث ، ولكن كواقع حى . فالطفل الذى يمرض وتعد له أمه حجابًا ، تفعل ذلك باعتباره تصرفًا حيًا وجزءًا من ممارساتها اليومية . قد يقول البعض إننى أدعو إلى الخرافة - فإنا أكثر ما عانيت من سوء الفهم - ولكننى أبادر إلى القول إننى أستلقت النظر إلى أساليب القص في هذه المؤلفات ، وهو أسلوب جدير بالدراسة .

* وللتراث العربي فرع مهم يمكننى أن أسميه « كتب البحوث » والتي هي في معظمها تفسير للعديد من الظواهر الطبيعية التي كان الذهن البشرى يعجز عن تفسيرها بحكم محدودية العلم الطبيعي في هذه الحقبة . وأخص بالذكر كتاب عمر بن الوردى « خريرة العجائب » ، وكتاب إبراهيم بن وصيف شاه « مختصر العجائب » ، والجزء الأول من تاريخ الرسل والملوك للطبرى ، لماذا ينظر البعض إلى هذا الجزء من التراث على أنه أقل من تراث الأساطير اليونانية ١٩ ألم تحفل قصائد الشعر العربى بالرموز اليونانية بينما لم يجر التعامل مع التراث العربى بنفس القدر - باستثناء المرحوم الشاعر أمل دنقل - وأعود إلى القول أيضًا إننى لست ضد الميثولوجى اليونانى أو الإغريقسى ، ولكننى أدعو إلى الاهتمام بنفس القدر ، بنفس المستوى بالتراث الأسطورى العربى ، أدعو إلى عدم اعتباره أقل شأنًا من التراث الذى تعلمناه من الغرب ، إن التوجه إليه ليس فقط لتفرد ، وإنما لأنه متصل بأعماقنا ، كثير من عناصره مستمرة في حياتنا الحاضرة ، ومؤثرة أكثر مما نتصور ، لقد وجهت اهتمامى خلال السنوات الأخيرة إلى محاولة استيعاب التراثين الفارسى والهندي ، كثيرون منا يعرفون الإلياذة والأوديسة ، لكن كم اهتم بقراءة « المهابراتا » الهندية ، أو الشاهنامه الفارسية ، وهنا يجب الإشارة إلى صعوبة الحصول على مصادر هذين التراثين ، فالشاهنامه الفارسية التى ترجمها الدكتور عبد الرحمن عزام لم تطبع إلا مرة واحدة في الأربعينيات وكذلك ترجمات الدكتور يحيى الخشاب للقصص الفارسية ، أما المهابراتا فلم تطبع إلا مرة واحدة في بيروت ، والأدب الفارسى يظل محصورًا في إطار الدراسات الجامعية على الرغم من الدراسات العميقة التى قدمها الدكتور حسين مجيب المصرى والدكتور أمين عبد المجيد بدوى وغيرهما من الباحثين ، للأسف فإن معرفتنا بتراث الشعوب الأخرى والثقافات الأخرى تظل محكومة بما وصل إلينا عن طريق الغرب .

* من مصادر القصص العربى أيضًا المؤلفات التى تدور حول الآخرة ، حول تصور ما سوف يجرى في العالم الآخر . ومضمون هذه المؤلفات قائم على عملية إبداع متكاملة وأشهرها : « التذكرة في أحوال الموتى والآخرة » للقرطبي ، ومؤلف آخر عن الآخرة للشيخ حسن العدوى ، إضافة إلى أن العديد من حوليات التاريخ تتناول هذا الموضوع .

* من أهم المصادر للقصص العربى ، التراث الصوفى ، فى رأى أن دراسة الأدب العربى لن تكتمل إلا بتوجه جديد إلى هذا التراث الروحى ، الصوفى ، وأن البحث عن أصول القصة العربية أو الرواية العربية ، أو فن القصص العربى ، يجب ألا يقتصر على دراسة المقامة ، والمقامة (الوهرانى) ، والسير والملاحم إنما يجب أن يشمل التراث الصوفى ،

وبخاصة قصص الكرامات . فالكرامة باختصار هي خرق العادة ، والخروج إلى اللامألوف ، إلى تجاوز الواقع ، المكان والزمان . إنها قصص قصيرة ، مركزة ، موجية ، ضامرة المحتوى . إنني لست بصدد الخوض في تفسير الكرامة أو تفسيرها ، ولكنني أحاول استلفات الأنظار إليها كجنس أدبي . وقد سبقني إلى ذلك الدكتور علي زيعور في كتابه «الكرامة الصوفية» وهو جزء من موسوعته الكبرى «التحليل النفسى للذات العربية» وهي الدراسة العلمية الوحيدة لموضوع الكرامة . إن الخيال الإبداعي في أدب الكرامة جدير بالتوقف طويلاً والتأمل . كثيرون انبهروا عندما قرءوا «مائة سنة من العزلة» وتوقفوا أمام مشهد طيران إحدى بطلاتها في الهواء . والتراث العربي الصوفي حاشد بالذنين مشوا فوق الماء ، وعدوا المسافات البعيدة في الزمن القليل ، ولم يتوقف أمامهم أحد .

** تلك هي معظم العناصر التي توجهت إليها في التراث العربي في محاولة لتأصيل شكل عربي من القصص . في فرنسا ، سألتني أكثر من صحفى أو مثقف : هل عرف العرب فن الرواية ؟ وكنت أجيب قائلاً ، إن الفن القصصى العربي عرف أعظم - في رأى - نص قصصى في العالم ، وهو ألف ليلة وليلة . ولكن عندما يوجه البعض مثل هذا السؤال ، فإنها يقصد الشكل الروائى كما عرفته الثقافة الأوربية ، هذا ما يبحثون عنه أو يتساءلون عنه في التراث العربي . بالطبع لن نجد هذه الأشكال الإبداعية ، ولكن المؤكد أن التراث العربى فيه أشكاله الخاصة من القصص .

* * *

إن همى الأساسى ينحصر في البحث عن العناصر التي عرضتها سابقاً ، وتوجيه هذا كله إلى النشاط الإبداعى . غير أن الأمر لا يتم بمعزل عن أطراف عديدة ، منها مثلاً التوجه إلى الغرب ، واعتباره المصدر المهيمن الذى نستقى منه التقاليد الثقافية والأشكال الإبداعية والفلسفية ، وأساليب الحياة . إن هذا التوجه بدأ مع مجيء الحملة الفرنسية التي أحدثت صدمة حضارية لا شك فيها ، ولكن عندما جاءت الحملة لم يكن في منظور قائدها أو منظميها أو أفرادها نقل الحضارة الفرنسية إلى مصر ، وبالتالي إلى الشرق ، بل كان الهدف استعمارياً بحتاً . صحيح أن نابليون أتى معه بالمطبعة ، ولكنه لم يأت بها ليطلع الكتب العربية ، إنما ليطلع المنشورات التي يوجهها إلى الشعب المصرى . وصحيح أنه أتى بالعلماء الفرنسيين ، ولكن لا لينقل العلم الحديث إلى أبناء الشعب ، بل ليدرّس هذه البلاد تمهيداً لجعلها هامشاً للحضارة الأوربية ، وتابعة . إن قراءة مصادر الحملة الفرنسية تؤكد نظرة المستعمر لديهم ، سواء في اليوميات التي كتبها بعض قادة الحملة ، أو في

الصحيفتين اللتين أصدرهما نابليون في مصر : « كوريسه دي ليجييت » و « لاويكاد اجسيان » حيث ترد تعبيرات كثيرة ، مثل « الشعب الممجى » ، « الجهلاء » ، « المتخلفون » . إلخ . لقد كانت الحملة الفرنسية بمثابة الحد القاطع الذي وضع حداً لتطور طبيعى كان يمكن أن يمضى . إننى من المؤمنين بأن كلمة « لا » لا محل لها في التاريخ ، فإما حدث حدث وما جرى جرى . ولكن ما يدعونى اليوم إلى الاجتهاد ، هو محاولة لتدارك آثار التوجه التام إلى الغرب ، بعد أن وصلت إلى حد خطير في السبعينيات دخل إلى صميم حياة الناس اليومية ، وإلى البعد القيمي للمجتمع . لقد كانت الحملة الفرنسية بمثابة بتر لتطور تاريخى ، يمكن أن يستمر في مصر بشكل طبيعى . البعض منا لا يريد أن يرى أى إمكانية للنهوض أو التقدم خارج الأنماط الأوربية ، ولكن ما أريد أن أقوله هو أن مصر شهدت محاولات للتقدم والنهوض قبل مجيء الحملة الفرنسية بمعزل عن المؤثرات الأجنبية وأشير على المستوى السياسى إلى محاولة على بك الكبير التى أجهضت . وفى رأى ، أن بدور التحول الداخلى ، المنطلقة من الظروف الخاصة لواقعنا لم تدرس تمامًا . لقد بدأت بدايات نهضة مبكرة في مصر وتركيا قرب نهاية القرن الثامن عشر ، العثمانيون بدءوا محاولة إدخال تحسينات على الجهاز العلمى والإدارى والعسكرى بدأ ذلك في عهد سليم الثالث . ولم تكن مجرد محاولات ، بل أصبح نهجًا ثابتًا تم إقراره على الرغم من المعارضة القسوية في عهد السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ - ١٨٣٩) ، الذى قضى على عسكر الإنكشارية الذين كانوا يمثلون قوة محافظة تعمل على إبقاء أسس النظام القديم . أما في مصر ، فلم يكن الأمر جامدًا عند مجيء الحملة الفرنسية ، بل كانت هناك إرهابات أولى لهذا التطور ، الذى كان يمكن أن يمضى طبيعيًا لولا مجيء الحملة الفرنسية . ثم اتسعت الفجوة مع مجيء محمد على . وبالقضاء على المماليك في مذبحة القلعة ، انقطع العهد تمامًا بالقديم وكل ما كان ممكنًا أن يحمه من إمكانات ، وبدأ التوجه إلى الغرب . لقد أوفد محمد على باشا البعثات إلى أوروبا في جميع المجالات ، وإلى مصر جاء الأوربيون ليحدثوا الجيش ، وليؤسسوا مدارس الطب والهندسة والحربية . وأصبحت مصر في عهده دولة قوية ، ووصلت جيوشه إلى مشارف الأستانة . غير أن نظام محمد على انهار في عام ١٨٤٠ . هذا الانهيار استوفىنى طويلاً ، لماذا حدث ، وكان النظام القوى الذى شيده محمد على أقيم فوق بحر من الرمال ١٩ صحيح أن القوى الاستعمارية تضافرت عليه ، وقد كانت ومازالت إستراتيجية الاستعمار تمحور على عدم قيام دولة قوية في مصر ، لأن مصر قلب العالم كما قال نابليون ، في نفس الوقت كانت هذه القوى حريصة على تهوين الدور المصرى خصوصاً الثقافى ، ومن خلال المثقفين الذين درسوا في أوروبا وعادوا إلى

مصر بدأ الاتجاه إلى الغرب يتخذ مسارا أكثر عمقا ، يمس البيئة الثقافية الأساسية للمجتمع ، ولأفكار ، والتقاليد والعادات . لقد كان هؤلاء مخلصين لوطنهم عندما درسوا في الغرب ونقلوا العلوم الحديثة إلى مصر ، ولكن لم تبذل محاولة في اتجاه محاولة استيعاب هذا الرافد ، من خلال القديم ، كما أن المؤسسات الثقافية التقليدية اتخذت موقفا متحجرا وانغلاقيا تجاه العلوم الجديدة والأفكار الجديدة . وساهم النظام الحاكم في تعميق الاتجاه إلى الغرب ، حتى أن الخديوي إسماعيل أعلن أنه يريد أن يجعل مصر قطعة من أوروبا . لقد أصبحت أوروبا إذن هي المثل ، وهي المرجع ، والمقصد . وبدأ ذلك ينعكس على أوجه الحياة المختلفة . ومع ذلك ، بدأ أيضا الإحساس بالدونية تجاه الحضارة الأوربية وأنهاطها الثقافية . يقول جمال الدين الأفغاني :

« لقد شيد العثمانيون عدداً من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف من شبابهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والآداب ، وكل ما يسمونه « تمدنا » ، وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني . فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ . . نعم ، ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بالفاظ الحرية والوطنية والجنسية (القومية) وما شاكلها ، وسموا أنفسهم زعماء الحرية ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المباني والمسكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والأبنية ، وسائر الماعون ، وتناسفوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية وعدوها من مفاخرهم . . فنفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم ! وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم ، وهذا جذع لأنف الأمة يشوه وجهها ويحط بشأنها ! لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرحه الأعداء إليها ، وطلائع لجيوش الغالبين ، وأرباب العمارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم . . » (١) .

* * *

ربما كانت العمارة أقرب الفنون إلى الرواية ، من هنا جاء اهتمامي بها ، وبخاصة العمارة الإسلامية العربية التي نشأت في ظلال جدرانها ، وانطبعت تفاصيلها على الصفحات الأولى من ذاكرتي . كما أن العمارة من ألصق الفنون بحياة الإنسان ، إذ إنها الإطار الذي

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني : ص ١٩٥ - ص ١٩٧ .

يقضى فيه حياته ، سواء في بيته أو عمله ، أو عند تأدية شعائره الدينية . يقول الدكتور ثروت عكاشة :

« . . ما من شك في أن الإنسان منذ أن وجد على الأرض وهو دائب الجهد في تكيف الطبيعة حوله للملاءمة حاجاته الجسدية والروحانية ، وأنه كذلك بفطرته وحسه المرهف للجمال وعشقه للإبداع قد حاول أن يصوغ كل ما تشكله يده في قالب فني ، يحكيه مرة صورة ومرة تمثالاً ومرة كلمة ومرة نغمة »^(١) .

إذن . . العماراة امتداد للبيئة ، جزء من الواقع نفسه ، ولكل واقع عمارته ، ومفهومه الخاص لهذا الفن النابع من الواقع ، من المناخ ، من التقاليد الاجتماعية ، من المواد المحلية المتاحة . وقد كانت العماراة العربية نابعة من الواقع نفسه ، تتكيف معه وتخضع لخصائصه . وإذا ما دخلنا أحد بيوت القاهرة القديمة ، على سبيل المثال بيت السحيمي ، سوف نجد عمارته تعكس التقاليد الاجتماعية ، والتقاليد الفنية . فالبيت مفتوح على الداخل ، حياة الإنسان الخاصة مضمونة . النوافذ تطل على الفناء الداخلى حيث الحديقة تماماً كلوحات الخط العربي حيث تتجه حركة الخط إلى الداخل في حركة مستمرة لانهاية وتدور حول مركز موقعه القلب . مركز العماراة العربية ومحورها كان الإنسان نفسه . فالجدران مصممة بطريقة خاصة لتدرا الرياح والحر وقسوة المناخ ، وابتكر المعمارى وسائله الخاصة للتهوية (الملقف) ، ولتسخين المياه أو تبريدها ، وفي ذروة الحرارة ، تكون درجة الحرارة داخل بيت السحيمي أقل من الخارج عشر درجات . هكذا يقول المهندس المعمارى العظيم حسن فتحى . وفي العماراة الإسلامية العربية نفسها ، نجد فروقاً واضحة . فالتذنة العراقية لها شخصيتها المتميزة ، ولو أن معمارياً مصرياً وضع مثذنة عراقية على بناء مسجد مصرى لما اتسق الأمر . فما البال عندما تم استيراد الطرز المعمارية الغربية بلاد الثلوج والضباب لتزرعها في قلب مدننا الحارة ، ما البال وقد شيد المعمارىون الذين درسوا المعمار الأوربى ونقلوا تصميمات أبراج الألونيوم المصممة إلى قلب عواصمنا العربية الحارة . هنا يبدو الاتجاه الأعمى إلى الغرب ، والانقياد التام ، ولكن كنت أبتسم ساخراً عندما أرى بعض الأثرياء الجدد وقد بنوا بيوتهم الخاصة ذات أسقف محدبة ، أسقف محدبة في بلاد لا يسقط فيها الثلج أما مطرها فشحيح ، يقول المهندس حسن فتحى في كتابه « عماراة الفقراء » هل يمكن تخيل شجرة ليمون تطرح ثمرة تفاح ؟ بالطبع لا ، والوضع في العماراة

(١) القيم الجمالية في العماراة الإسلامية : ص ١٢ .

التي استوحيت تصميماتها من الغرب ، يترجم هذه المحاولات الشائعة لزرع طرز مستوردة غريبة في بيئة مختلفة ، إنه نفس المنطق الكامن وراء انتشار الأسماء الأجنبية في السبعينيات للمتاجر والمراكز التجارية ، حتى إن متجرًا مخصص في بيع الأزياء الإسلامية أطلق صاحبه عليه « شوبنج سنتر » ! لقد بدأ اتجاه العمارة إلى الغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر ، حيث أصبحت العمارة الغربية هي النموذج الذي يحتذى مع توجه الصفوة إلى الغرب ، واعتباره المصدر، إلى أن وصل الأمر إلى ما وصل إليه في السبعينيات . لقد تم التخلي عن تقاليد العمارة العربية ، وتحول البيت من الداخل إلى الخارج ، واستبدلت بمواد البناء مواد غير ملائمة لطبيعة المناخ (الأسمنت - الألومنيوم) . واليوم تقوم في القاهرة وفي العديد من العواصم العربية أبراج هائلة تقتدى بناطحات السحاب في نيويورك وتحمل أسماء أجنبية أصبح تداولها سهلاً وشائعاً (سكاي سنتر - كايرو سنتر . . . إلخ) . وانتقل التشويه إلى القرية المصرية نفسها ، فتخل المعمارى الريفى عن المواد الملائمة للطبيعة والمناخ والتي كان الأجداد يبنون بها منذ آلاف السنين ، ليستخدموها الطوب الأحمر والأسمنت ولم تلق نظريات المهندس فتحى طريقها إلى التنفيذ ، وهى نظريات قائمة على تطويع العمارة للإنسان بحيث تكون نابعة من البيئة . لقد انمحت الخصوصية التى تعبر عن ضرورة حياتية وليس عن قيم فنية مجردة إزاء تزايد الاتجاه إلى الغرب والنقل المباشر عنه بدون مراعاة الواقع المحل . وما يقال عن العمارة ، ينطبق أيضًا على تخطيط المدن . كان تخطيط المدينة العربية القديمة يخضع لاعتبارات عديدة نابعة من الواقع ذاته . يقول الدكتور ثروت عكاشة :

« وكان العرف المتبع في بعض قواعد التخطيط ، مثل مراعاة العوامل الجوية ، ومتطلبات الأمن والناحية التعبيرية الجمالية مطبقًا في كلا المستويين الواسع والتلقائى . فكانت الشوارع والحارات تخطط متعرجة ضيقة لأن المساكن والقصور والمباني العامة تضم أفنية وحدائق تستقبل الشمس والهواء من ساحاتها الداخلية التى لا تجعلها في حاجة إلى الشارع المتسع ، فاقصر اتساعه على ما يفي بمطالب المرور وغدو الباعة الجائلين ، وروحاتهم ، كما كان بتعرجه وضيقه يوفر مساحات ظليلة ويتيح اختزان الهواء الرطب ليلاً حتى يشيعه أثناء ساعات القيظ ملطفاً من حرارة الجو ، على العكس من الشارع المستقيم الواسع كالبولفار الأوربى المعاصر الذى تستبيحه الريح صباحًا ومساءً »^(١) .

(١) القيم الجمالية في العمارة الإسلامية ، د . ثروت عكاشة : ص ٥٨ .

لقد بدأ التغيير الكبير في مدينة القاهرة على يدئى على باشا مبارك الذى وضع أساس التخطيط الأوربى الحديث للمدينة ، وشق مجموعة من الشوارع المستقيمة على نمط الشوارع الباريسية . شارع محمد على شق وكأنه نسخة أخرى من شارع ، نمولى بباريس . وبسبب شق هذا الشارع أزيل أكثر من ثلاثين أنشاً إسلامياً وهكذا بدأ تغريب المدينة . وعند مراجعة ما حدث للقاهرة ، فلا يعنى هذا التهجيم على دور على باشا مبارك أو الانتقاص منه ، ولكن قام بذلك فى إطار مفهوم معين يرى أن تطوير المدينة وتحديثها يجب أن يتم على النسق الأوربى ، وكان ذلك حلقة فى الاتجاه إلى الغرب . ما أريد أن أؤكد عليه أو أوضحه أن مراجعة دور على باشا مبارك أو غيره من كبار المثقفين المصريين أو العرب الذين رأوا أن النقل عن الحضارة الأوربية سوف ينتقل ببلادهم قدماً لا يعنى النيل من شخصهم ودورهم . لقد اجتهدوا وحق لنا أيضاً أن نراجع ما قاموا به وأن نجتهد أيضاً ، وإذا كان الاجتهاد مباحاً فى أمور الدين ، أفلا يكون مباحاً فى القضايا الثقافية ، وتاريخ الفكر ، والتطور الفنى ، والمعمارى ، إننى أرى باختصار شديد أن الاتجاه إلى الغرب أو التغريب قد وصل إلى نقطة خطيرة ، موضحة فى سبعينيات هذا القرن بحيث أصبحت خصائص الشخصية القومية مهددة معظمها بالاندثار والتغيير ورافق هذا ظروف عالمية عديدة ، والاستعمار القديم فى الماضى كان يستفز المشاعر القومية ، والرغبة فى الحفاظ على السابق . وفى المغرب العربى الكبير ، سواء فى المغرب أو الجزائر أو تونس ، تمت المحافظة على الطابع المعمارى للمدن القديمة . صحيح أن العمارة الأوربية موجودة ولكنها قائمة بعيداً عن الأقسام القديمة . فى تونس مثلاً نجد السوزارات الهامة ورئاسة الوزراء فى المدينة القديمة ، كما أن فاس القديمة ما تزال محتفظة بطابعها . لقد كان الاستعمار القديم غشوماً ، يستفز المشاعر القومية لأنه يحمل السلاح ، ويسعى إلى الطمس التام للقديم . أما ما نتعرض له فى العقود الأخيرة فغزو من نوع آخر ، غزو هادئ ، يتم بالفيلم ، بالفكر ، بتعميق الدونية الثقافية . يتم بإشاعة أنماط معينة من الحياة بمتاجر الويمبى وكنتاكى . وهو لا يأتى إلينا على ظهور البوارج ، بل إن قومًا منا يذهبون ويدفعون الأموال الطائلة لياتوا به (انظر إلى انتشار العلم الأمريكى على الشاحنات والقمصان . . الخ) .

وهنا يجب أن أوضح أننى لست أبداً ضد الفكر الغربى أو الإبداع الغربى ، فمنجزات الحضارة الأوربية ملك للإنسانية كلها الآن ، ولكن ما أنبه إليه أن الخصوصية مهددة بالزوال ، وهذا يعنى فقدان الأمة لهويتها . لا أريد استخدام تعبيرات تبدو مبالغه ، لكن هذا ما أستشعره خلال السنوات الأخيرة . والقضية الأساسية التى أتصور أن الفكر العربى والفن العربى مطالبان بالتوجه إليها ودراستها والتوصل إلى نتائج محددة فيها ، هى

كيف يمكن تزاوج السابق باللاحق دون أن يطفى السابق على اللاحق ، ودون أن يطمس اللاحق ما سبق . . تلك هي القضية .

* * *

إننى من المؤمنين بعنصر الاستمرارية فى الثقافة المصرية . المجتمع المصرى قديم ، وبالتالي فإن الثقافة المصرية قديمة . عمرها المكتوب سبعة آلاف سنة ؛ أما غير المكتوب فلم يقف إنسان على مقداره بعد ، وخلال هذا التاريخ الطويل عرفت مصر حضارات متعاقبة وثقافات مختلفة ، وقد أخضعت مصر الوافدين إليها ، وكما ذاب فيها الفرس والرومان والإغريق والكرد والأنراك والعرب ، ذابت فيها أيضًا ثقافتهم ، انصهرت وتشكلت من جديد ، إن الثقافة المصرية حية ، متجددة ، ولكنها لا تفقد جوهرها ومضمونها . وقد فصلت هذه النقطة فى بحث قصير ضمته هذا الكتاب . ولكن ما أريد توضيحه ، هو أننى عند ما أقول التراث ، فإننى أعنى التراث الذى ينتمى إلى هذه المنطقة من العالم التى نعيش فيها ، ويمكن تشبيه حلقاته بدوائر متداخلة ، بالنسبة لى المركز منها هو التراثان العربى ، والإسلامى ، ثم التراث القبطى الذى أدعو - كمسلم - إلى معرفته انطلاقًا من التكوين الثقافى ، كثيرًا ما أسأل نفسى ، لماذا يعرف المصرى قبطى الديانة ، أعياد المسلمين وعاداتهم وقد يلم بثقافتهم ، بينما نجهل نحن المسلمين كثيرًا من التفاصيل عن الحياة الفكرية والروحية للأقباط ، مع أننا نشكل أمة واحدة ، كذلك التراث الفرعونى الكامن فى حياتنا الحالية ، هناك عناصر عديدة مستمرة ، بدءًا من التقويم القبطى - الفرعونى الذى مازال الفلاح المصرى يتبعه لتنظيم شئون زراعته ، وحتى بعض الألفاظ التى ما تزال مستخدمة فى لغتنا اليومية ، ثم التراث الإفريقى ، ثقافة القارة التى ننتمى إليها . ثم تراث الأمم القريبة منا : فارسية ، وهندية ، وصينية ، إضافة إلى كل الثقافات التى قامت فى هذه المنطقة : بابلية ، وآشورية ، وعبرية ، وبربرية ، وتراث أوربى .

إن هذه الدوائر كلها حولى . . التراث الإنسانى كله يصب فى تكوينى . إنه ملكى وأنا ملكه ، وهذا التفاعل يثرى ، بشرط ألا أغيب أو تغيب عنى الدائرة المركز ، أقصد التراث العربى بمفهومه الشامل .

* * *

فى السنوات الأخيرة ، لاحظت ندرة فى مصادر التراث العربى ، أصبح من الصعب جدًا الحصول على كتب الشعابى ، أو التوحيدى ، أو الجاحظ ، وغيرهم من أعمدة لغة

الضباب . في نفس الوقت الذي تنتشر فيه طبعات شتى لكتب محدودة من التراث ، تغذى اتجاهات معينة وتقتصر التعامل مع التراث وتقديمه على جوانب سطحية ، شكلية تمامًا . وكثيراً ما كنت أقف مبهوئاً أمام فهارس المخطوطات العربية المقدسة في سائر مكاتب العالم . ما من فرع في العلم والثقافة إلا ونجد فيه مؤلفات عربية في شتى المراحل التاريخية ، مؤلفات استفادت منها أوربا وأدت إلى عصر النهضة ، وأهملناها نحن . بل إننا أعدنا اكتشاف معظمها من خلال الغرب نفسه عندما بدأ اهتمامه بها .

وإزاء ندرة المصادر ، وعدم تعامل دور النشر الكبرى مع التراث العربي ، وتعثر إصدارات مهمة ظلت مستمرة منذ أن عرفت مصر المطبعة ، فكرت في التعريف بمصادر تراثية ربما يصعب الحصول عليها الآن ، إما لندرتها وإما لارتفاع سعرها بما يعجز عنه الشباب محدود الإمكانية . كيف يمكن إذن لأديب في بداية الطريق أن يتكون ؟ أذكر أنني في بداية الستينيات اقتنيت أربعة عشر جزءاً من كتاب الأغاني ودفعت ثمنًا لها جنيهين وثمانين قرشاً ، ومازلت أذكر ليلة عودتي إلى البيت بالأغاني ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، ونهاية الأرب للنويري ، وكل ما دفعته كان أقل من عشرة جنيهات ، الآن تباع الأجزاء المتوفرة من الأغاني في طبعة رديئة بأكثر من مائتي جنيه . والأغاني من أعمدة الأدب العربي لا أتصور مكتبة أديب أو مؤرخ أو مفكر بدونها .

إزاء هذه الظاهرة ، فكرت في إعداد عروض وافية لعدد من هذه المصادر المهمة ، بحيث تعطى فكرة شاملة عنها ، فإذا اهتم قارئى بكتاب معين ، فليتجه إليه ولا يعانى ما عانىه في البحث عنه ، وقد حرصت على ذكر الناشر والسنة التي طبع فيها الكتاب ، آثرت أن أبدأ بعرض عدد من كتب التراث المختلفة في الأدب ، والتاريخ ، والفن الحربى ، على أن أتبع هذا المجلد ، بأخر أخصمه للتعريف بكتب التراجم في التراث العربى ، وثالث أقدم فيه مصادر القص العربى ، ورابع أقدم فيه أهم ما كتب حول العمارة الإسلامية من القدماء والمحدثين . راجياً بذلك أن أكون قد أسهمت بجهد ضئيل في التعريف بتراثنا العربى ومصادره التى يصعب الوصول إليها والعشور عليها ، يوماً بعد يوم ، متمنياً من الله العلى القدير أن يهبنا العمر والقدرة على تحقيق ما نطمح إليه من التعريف بتراثنا العريق الذى يحيا فينا ولا نراه .

جمال الفيظانى

القاهرة ٢٠ رمضان ١٤١٧ هـ

٢٩ يناير ١٩٩٧ م

عناصر الاستمرارية فى الثقافة المصرية

يختلف مفهوم الثقافة بمعناه الاجتماعى العلمى عن معناه العام . فطبقًا للمفهوم الأول تتضمن الثقافة كل ما يمكن أن يُعلم بواسطة العلاقات الإنسانية المتداخلة ، ويشمل ذلك اللغة ، والفن ، والصناعة ، والعلم ، والقانون ونظم الحكم ، والأخلاق ، والدين ، وكل المصنوعات التى تتجسد فيها عناصر ثقافية معينة ، مثل طرز العمارة والآلات ، وأساليب المواصلات .

إن معنى الثقافة معنى عام ، يشمل أسلوب الناس فى مجتمع من المجتمعات . من هنا فإن هذا المفهوم الشامل للثقافة يختلف اختلافًا كبيرًا عن المفهوم الذى يقصر الثقافة على نوع معين من النشاط الإنسانى ، مثل الآداب والفنون .

والثقافة أو المعرفة الإنسانية ، تتكون عن طريق وسيلتين هامتين ، هما الاكتشافات والاختراعات أولاً ، ثم التعليم الذى ينقل ما سبق معرفته لى الآخرين ، أو من زمن لى زمن .

والمجتمع المصرى مجتمع قديم ، وبالتالي فإن الثقافة المصرية قديمة عمرها المكتوب سبعة آلاف عام ، أما غير المكتوب فلم يقف إنسان بعد على مقداره الحقيقى ، وخلال هذا التاريخ السحيق عرف المجتمع المصرى حضارات عديدة ، وتعاقبت عليه ظروف مختلفة ، وديانات بعضها اخترعه ، وبعضها وفد عليه من هذه الحضارات ، أقدم حضارة عرفها الإنسان ، وعلى الرغم من الظروف الصعبة والمظالم المتعاقبة ، والبؤس ، وتولى الغزاة ، المجتمع المصرى فإن ظل متماسكًا ، حيويًا مستمرًا ، منذ آلاف الأعوام ، والعمل مستمرًا لم يتوقف أبدًا على ضفتى النيل . الجهد الإنسانى يبذل فى مختلف المجالات بلا انقطاع والملاحظة العامة التى نستنتجها من قراءة التاريخ المصرى ، استمرارية الثقافة ، وحيويتها المتمثلة فى تجديدها واستيعابها للظروف المتغيرة . وعلى الرغم من عنصر

الاستمرارية في الثقافة المصرية ، فإنه من الصعب القول إنها ثقافة جامدة ، محافظة على القديم . فالمصريون عبر تاريخهم الطويل غيروا من لغتهم عدة مرات ، من الهيروغليفية إلى الديموطيقية ، إلى القبطية ، إلى اليونانية ، إلى العربية واستبدلوا بدينتهم دينا آخر مرة أو مرتين . جمعوا بين القديم والحديث في العديد من مظاهر حياتهم ، واستطاعوا استيعاب كل الغزاة الذين وفدوا على أرضهم ، لم تصبح مصر فارسية أو رومانية ، أو عربية ، بل طوعت الفرس ، والرومان ، والعرب ، فأصبح جميع هؤلاء مصريين ، ذابوا في المجتمع المصري ، وانصهرت ثقافتهم في الثقافة المصرية ، أصبحت ثقافتهم تشكل عناصر من الثقافة المصرية ، ولم تصبح الثقافة المصرية مصبوغة بهذه الثقافات الوافدة . بل إن الثقافة المصرية طوعت كثيراً من هذه العناصر الوافدة لظروفها وعناصرها هي . وفي العصر الحديث ، نجد أن الأتراك الذين استعمروا مصر أكثر من ثلاثة قرون اضطروا إلى تعلم اللغة العربية ، نفس الأمر واجهه الإنجليز الذين استعمروا مصر لمدة سبعين عاماً خلال القرن الأخير ، لم تتحدث مصر اللغة الإنجليزية ، ولكن الإنجليز هم الذين تعلموا اللغة العربية ، ثم خرجوا في النهاية . ويرجع هذا إلى الركائز الثقافية العريقة في مصر ، وإلى استمراريتها ، وحيويتها ، كان المصريون مجددين في الجانب المادى والعمل من حياتهم ، فالزرايع المصرى جدد أدواته الزراعية ، وأضاف إليها على مر الزمن ، واستنبط أصنافاً جديدة من المحاصيل ، كان أبرزها في العصر الحديث القطن الذى بدأ زراعته في بداية القرن التاسع عشر ، كما جدد أنواع الحيوان المستأنس ، وأضاف إليها ما لم يكن معروفاً من قبل .

إن ذلك يثبت بما لا يدع مجالاً للشك تجدد الثقافة المصرية وحيويتها . ويمكننا ملاحظة هذا في الجانب غير المادى ، لقد شغلت فكرة الخلود المصريين منذ فجر التاريخ ، وأول تصور للعالم الآخر نجده في الفكر الدينى المصرى القديم ، انشغل المصريون بهذه الحياة الأخرى ، واهتموا ببناء مقابرهم ، وحفظ أجسادهم وكان هذا الاهتمام من أعلى المستويات ، الفرعون ، حتى أفقر الناس ، وكان الجميع يهتمون ببناء المقابر ، وتزيينها ، وتزويدها بما يحتاج إليه الميت في العالم الآخر ، والاهتمام بالعالم الآخر عند المصريين منطلق من حب عميق للحياة ، ورفض للعدم ، نلاحظ أن هذا المضمون استمر مع تغير الديانات ، وتعاقب العصور ، في العصر الفرعونى على سبيل المثال كان أول عمل يشرع فيه الفرعون (الملك) هو بناء هرم ليكون بمثابة مقبرة تحفظ جسمه من الفناء ، ويجواره معبد تمارس فيه الشعائر الدينية ، وبعد آلاف السنين ، وبالتحديد في العصر الوسيط ، عصر المهاليك بعد فتح العرب لمصر بخمسة قرون ، نجد أن السلطان

المملوكى المسلم - وهو ذو أصول أجنبية - يشرع بمجرد توليه الحكم فى بناء مسجد ضخم يضم فيه قبة تحوى مقبرته . ويستمر ذلك حتى عصرنا الحديث ، فعندما توفى الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠ ، تبين أنه كان قد اختار مكان دفنه فى مسجد شارك فى تأسيسه والإنفاق على بنائه ، ودفن فيه بالفعل ، وصرحه الآن قائم يزار ، أى مصرى الآن سواء كان مسيحياً أو مسلماً يحتل مقبره الأخير حيزاً هاماً من تفكيره ، وكثيراً ما نقرأ على شواهد القبور الحديثة عبارات كتبت بوصية من الموتى ، نصوصها تطلب من الأحياء التذكر والاعتاظ بما انتهوا إليه ، وقد وصل إلينا نصوص مشابهة فى المضمون من العصر الفرعونى السحيق .

إن الدين المسيحى ، والدين الإسلامى ، لم يغيرا من جوهر نظرة الإنسان المصرى إلى الموت ، وإلى العالم الآخر ، والتفاصيل العديدة تؤكد ذلك ، أذكر فى طفولتى جلوسى مع أمى فوق سطح بيتنا نتلمس أشعة الشمس ، وفجأة سكتت أمى ، وأمرتني بالصمت ، وراحت ترقب فى رهبة ذبابة زرقاء اللون ، بعد اختفائها ، قالت لى إنها روح جدتى جاءت لتطمئن علينا ، وهذا موروث ثقافى قديم يمت إلى العصر الفرعونى ، حيث كانت الروح تتجسد أحياناً فى شكل طائر أو ذبابة زرقاء أو قط أسود ، والمصريون على صلة دائمة بموتاهم ، وإذا ما جاء الميت فى الحلم وطلب شيئاً ما فلا بد من تنفيذه ، وفى أيام الجمع ، والأعياد والمواسم ، نشاهد طوابير الرجال والنساء والأطفال متجهين إلى المقابر حاملين الزهور والصدقات من طعام وهدايا توزع على الفقراء . نجد هذا فى مصر، بينما يعد ذلك فى البلاد الإسلامية الأخرى - خاصة السعودية - من الأمور المخالفة للشرع ، ويكفى القول إنه لا توجد قبور معروفة للموتى فى الحجاز ، وأذكر أنسى كنت أشهد حفلاً للمصارعة أقيم فى خلاء مدينة أم درمان وكان الناس يعبرون فوق عدة مقابر بسيطة يطئون المقبرة ، وكنت فى داخل أستكر ذلك .

كذلك فإن نظرة المصريين تجاه القديسين ، والأولياء لم تتغير ، عرفت مصر الفرعونية الثالوث القديم ، الآلهة إيزيس ، والإله أوزيريس ، والابن حورس ، وعند ما جاء الدين المسيحى إلى مصر لم يجد أرضاً خالية ، فقد عرف الفراعنة الثالوث المقدس ، كما عرفوا التوحيد ، وسرعان ما استوعبت الثقافة المصرية الدين الجديد وحل الثالوث الجديد ، الأب والابن والروح القدس ، محل الثالوث القديم ، وبعد استقرار الدين المسيحى فى مصر ، شهدت الكنيسة صراعاً حاداً كان طرفاه الكنيسة المصرية ، والكنيسة البيزنطية ، وكان محور الخلاف طبيعة المسيح ، آمن المسيحيون بالطبيعة الألهية لابن مريم فجاء

أريوس أحد رجال الدين بالإسكندرية ، وأنكر على المسيح أن يكون من طبيعة الأب الذى لا شريك له ، وبذلك أكد نوعًا من الوجدانية ولو أنه لم ينكر ألوهية المسيح كلية ، تمسك المصريون برأيهم ، ولا شك أن تمسك الفريق الأضعف ، المغلوب على أمره ، بعقيدة تخالف الفريق الغالب يحمل معنى مناوأة الضعيف للغالب ، والحرص على التميز ، وعدم الذوبان والتلاشى ، لم يكن المصريون يريدون لكنيستهم أن تصبح فى المرتبة الأضعف بالنسبة لبيزنطة ، وهى الأحداث مسيحية ، فإذا كانت القسطنطينية هى عاصمة الإمبراطورية بلا منازع ، فإن الإسكندرية المصرية يجب أن تظل عاصمة المسيحية فى العالم ، وتفصيل الخلاف عديدة ، ولكن موقف الكنيسة المصرية ظل استقلالياً ، فى جوهره يمثل المحافظة على عناصر استمراريتها الثقافية المصرية ، لقد احتفظت مصر الفرعونية بثقافتها الدينية وطقوسها ، ثم جاءت المسيحية وحاولت تغيير هذا ، وجد الشعب المصرى نفسه مختلطاً بشعوب الإمبراطورية الرومانية ، ومع ذلك فإن الثقافة المصرية لم تضعف ، ولم تذب ، لم تجرد الثقافتان البيزنطية واليونانية سبيلاً إليها ، بل العكس هو الذى حدث ، إذ تدهورت أهمية العنصر اليونانى دون توقف ، وتبوتت اللغة القبطية - أى اللغة المصرية مكتوبة بحروف يونانية - مكانتها بدلاً من اليونانية ، وكما كانت مصر فى أيام ضعفها تلقى بمقاليدها إلى كبير كهنة أمون - رع فى طيبة فإن جميع القوى الوطنية المصرية التفت حول البطريك ، بابا الإسكندرية أصبح رمزاً للموروث الثقافى المصرى ، وقاومت الكنيسة المصرية كل محاولات التدويب واحتفظت بمذهبها الخاص إلى الآن .

ومع دخول العرب إلى مصر ، وانتشار الإسلام فى مصر ، شهدت استمرارية الثقافة المصرية فصلاً جديداً ، فكما لم تجرد المسيحية عند دخولها إلى مصر فى شعب مصر أرضاً بكرًا وصحراء جرداء ، كذلك فإن الإسلام أيضًا لم يجد فى شعب مصر عند دخوله أرضاً قاحلة ، لقد استوعبت الثقافة المصرية رموز الدين الجديد وطقوسه الشبيهة أشد الشبه بما كانت تعنى من رموز وأسرار ، لم تتغير النظرة إلى الموت كثيرًا إلا فى بعض التفاصيل الصغيرة ، خاصة فيما يتعلق بالحرص على تحنيط الجثث أو الدفن داخل توابيت خشبية أو حجرية ، لقد أبطل الإسلام ذلك ، وبالطبع اختلفت الشعائر ، ولكن جوهر النظرة إلى العالم الآخر ظلت كما هى ، والعلاقة بالموتى ، والحرص على زيارتهم ، وتكريم ذكراهم ، والامتنال إلى مطالبهم التى يبدو أنها عندما يزورون الأحياء فى الرؤى والأحلام ، واستمر تقديس المصريين للقديسين وأولياء الله المسلمين ، وذلك بواسطة إقامة أضرحه لهم ، وتمجيدهم ، والاعتراف بالواجبات نحوهم والحرص على أدائها ، على الرغم من أن هذه

الطقوس مناهضة لروح الدين الإسلامى ، التى تنفر من التمسح بالأضرحة وتقييلها ، والطواف حولها ، وهكذا نلاحظ أن المكانة التى كانت الآلهة يحتلها فى الزمن الفرعونى ، نالها بمرور الزمن القديسون المسيحيون ، وأولياء الله المسلمون ، وهؤلاء الأولياء يبارسون تأثيرهم من العالم الآخر على الأحياء فى عصرنا هذا ، وقد اكتشف باحث اجتماعى مصرى نابه هو الدكتور سيد عويس أن ظاهرة إرسال الرسائل إلى الموتى مستمرة حتى عصرنا هذا ، خاصة للإمام الشافعى ، المعروف بين الناس باسم قاضى الشريعة أو رئيس المحكمة الباطنية التى تعقد جلساتها فى العالم الآخر ، تمامًا كما كانت محكمة التاسوع الألفى تعقد جلساتها فى العالم الآخر خلال العصر الفرعونى ، كان المصريون فى العصر الفرعونى يرسلون شكواهم إلى الموتى مكتوبة على قطع من الخبز ، ومازال المصريون يكتبون الرسائل إلى الإمام الشافعى ، (ولد عام ١٥٠ هجرية - ٧٦٧ ميلادية ويعد أحد أربعة أئمة فى الإسلام) . غير أن أشهر الأولياء فى مصر قاطبة هو الإمام الحسين ، ويحتفل المصريون فى كل عام بمولد الإمام الحسين حيث يجتمع آلاف الرجال والنساء والأطفال كل مساء قبل ليلة المولد بأسبوعين ، يجتمعون يوميًا ، يتلون الأذكار ، ويرقصون ، ويغنون ، والإمام الحسين له مكانة كبيرة عند سائر المصريين ، إذ إنه سيد الشهداء ، وابن السيدة فاطمة ابنة رسول الله محمد ، ويكاد الحسين يكون قد احتل موقع أوزيريس فى عملية استمرارية الثقافة المصرية ، وأوجه الشبه عديدة بينهما ، منها الصفات المشتركة والنهاية المأساوية ، أما شقيقته السيدة زينب فتحتل فى قلوب المصريين مكانة عظيمة ، إنها نفس مكانة إيزيس الآلهة الفرعونية القديمة ، المخلصة ، النقية والسيدة زينب لها عند المصريين منزلة خاصة ، ويطلقون عليها أسماء عديدة منها « غفيرة مصر » ، و « صاحبة الشورى » و « رئيسة الديوان » ، والديوان هو مجلس يعقد فى العالم الآخر يعقد مساء كل سبت وترأسه السيدة زينب ، وينظر فى أمور العالم خلال أسبوع مقبل . وكما دافعت الإلهة إيزيس عن ابن أوزيريس شقيقها وزوجها فى الوقت نفسه ، وحمى حورس الابن ، فإن السيدة زينب شقيقة الشهيد الحسين قد حمى ابنه الوحيد الذى بقى على قيد الحياة ، على زين العابدين ، وهو الوحيد الذى تبقى من مأساة كربلاء ، من أبناء الحسين .

ونلاحظ أن تقديس المصريين لآل بيت النبى لا يعنى أنهم يعتقدون المذهب الشيعى ، والحقيقة أن المجتمع المصرى لا يعرف التفرقة بين مذهب السنة والشيعية وهما المذهبان الرسميان فى الإسلام ، وبما ساعد على عدم وجود هذه الحساسيات هو عمق الموروث الثقافى المصرى ، وقدرته على استيعاب كل الحساسيات ، لقد استمرت مكانة الآلهة أوزيريس فى الضمير المصرى ، والثقافة المصرية ، وإن تغيرت صفاته وأسمائه ، فى أسطورة

أوزيريس الفرعونية القديمة تقول الرواية إن أعداءه عندما ظفروا به قطعوه إلى أربعين جزءاً، ودفنوا هذه الأجزاء على جانبي وادي النيل ، وإن إيزيس راحت تتبع هذه الأشلاء وتعيد دفن كل منها . حدث ذلك في العصر الفرعوني السحيق . وفي عصرنا الحديث ، يمكن ملاحظة عدد كبير من الأضرحة تنتشر في الريف المصرى والمدن المصرية ، كل ضريح منها يسمى « سيدى الأربعين » ، وربما يمكن القول إنه لا تخلو مدينة مصرية من « سيدى الأربعين » ومعظم هذه الأضرحة مجرد نصب رمزية خالية ، نصب رمزية لشيء أعمق وأكبر يستقر في وجدان الشعب المصرى ، متصل بمكانة أوزيريس الفرعون ، أو الحسين في عصرنا الإسلامى .

إن عناصر الاستمرار الثقافى عديدة ومتنوعة ، خاصة في تفاصيل الحياة اليومية وتركيب القرية المصرية ، والمدن ، وطبيعة البيوت الداخلى ، ومواعيد الزراعة التى مازال الفلاح المصرى يعرفها طبقاً للتقويم الفرعوني القديم ، وبنفس الأسماء الفرعونية القديمة ، كذلك أنواع الطعام ، وطرق إعداد الخبز وصناعة الأثاث ، ومضمون التعاويذ التى تتلى في المناسبات المختلفة والطقوس الاحتفالية ، سواء عند الميلاد أو الموت .

هذه التفاصيل كافة تؤكد على قدم واستمرارية الثقافة المصرية في مفهومها العام ، وقدرتها على التجدد والاستمرار .

تراجيم ..

لنقرأ هذا الخبر من كتاب « طبقات الشعراء » لابن سلام الجمحي :

« .. أخبرنا أبو خليفة . أخبرنا ابن سلام . حدثني ابن جعدبة وأبو اليقظان عن جويرية بن أسماء ، قال : مات كثير وعكرمة مولى ابن عباس في يوم واحد ، فاحتلفت قريش في جنازة كثير . ولم يوجد لعكرمة من يجمله . . . » .

* * *

ولنقرأ هذا الخبر أيضًا من كتاب « الطالع السعيد ، الجامع أسماء نجباء الصعبد » للإدغوي المتوفى سنة ٧٤٨ هجرية :

« عليُّ بن إبراهيم بن عبد الملك نور السدين ، أمين الحكم بقوص كان من عُدولها ومن الأخبار . سمع الحديث وتوجَّه إلى الحج ، فمرض بمكة ووصى للأيتام بما تناوله من الجامكية . وتوفى بمكة سنة تسع وخمسين وستائة . روى عنه عبد العزيز عبد الرحمن بن السكري : وكان من العقلاء ، ومع هذا طلق زوجته ، فتزوجت بالخطيب محيي الدين بقوص ، فغاب عقله وخرج « عُريانا إلى الشارع ، وأخبروا الخطيب بذلك ، فأخذوها مع نسوة ، فحضرت عنده وكلمته حتى سمع كلامها فسكن ، وقامت فتركته ، فرجع عقله ، وكان من عقلاء الناس ، عدلاً . . . ثقة . . . » .

* * *

خبران يتميان إلى مصدرين مختلفين ، متباعدين في الزمان والموضوع . يترجم الأول لطبقات الشعراء . أما الثاني فيقدم عددًا من الناس الذين عاشوا في مكان محدد ، ونبغوا في العلم والأدب أو طابت سيرهم . لكن يجمع الكتابين ذلك الفن الخاص ، المزدهر في تراثنا العربي ، فن كتابة التراجم ، والذي يُنظر إليه حتى الآن باعتباره من المصادر التاريخية . ولم ينظر إليه أحد على أنه مصدر غير مباشر للفن القصصي . فمن خلال

كتب التراجم تلك تنتفض أمامنا ألوف ، وألوف من الحيات المندثرة ، والتي كان ممكنا أن تغيب إلى الأبد ، لولا سطور تطول نادراً ، وتقل في معظم الأحيان ، لكنها تجسد الملامح الداخلية والخارجية . وتقصر الخطوط العريضة وأحياناً تفصل لتلك الأعمار التي اكتملت دواثرها . لتلك الشخصيات التي سعت ، من أدباء ، وسلاطين ، وأمراء ، ورجال إدارة ، وأطباء ، وحكام ، وعلماء ، ومتصوفة ، ونساء ، ومحاررين ، وأناس بسطاء ، تطالعنا هذه الملامح التي يوشك الكثير منها أن يتجسد من خلال السطور والكلمات . تنتظم هذه الطواير الطويلة عبر صفحات كتب التراجم التي يصل بعضها إلى حد الموسوعات . هذا شكل عربي أصيل . قديم لم يتناوله أحد بالبحث المفصل ، باستثناء دراسة قصيرة ، ذات طابع تعليمي ، صدرت منذ سنوات في القاهرة للباحث في التراث العربي المرحوم محمد عبد الغنى حسن .

* * *

- التراجم باختصار نوع أدبي يتناول بالتعريف حياة إنسان ما ، تعريف يطول أو يقصر ويلزم الإحساس الروائي لتقديم الشخص من خلال الوقائع والصفات حتى تكتمل صورته حية فكأنه مازال بعد يسمى . والتراث العربي غني بفن التراجم يفوق في ذلك سائر الآداب الأخرى ، حتى مجال الترجمة الذاتية ، أي أن الكاتب والمكتوب عنه شخص واحد . نجد أقدم النماذج المعروفة على مستوى الأدب العالمي في تراثنا العربي . كثير من نصوص الشعر الجاهلي تتضمن ترجمة ذاتية ، أما أول ترجمة ذاتية مباشرة فنجدها في كتاب الاعتبار للأمير أسامة بن منقذ (٤٨٨ هـ - ٥٨٤ هـ) أي في القرن الحادى عشر الميلادى ، وفي نفس الفترة تقريباً كتب الداعي الفاطمى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى (توفى ٤٧٠ هـ) كتب سيرته الذاتية . أما الشاعر اليمنى عمارة اليمنى فترجم لنفسه فى كتاب « النكت العصرية » كما ترجم لغيره من الوزراء ورجال الحكم فى أخباريات العصر الفاطمى ، وقد لا يعرف الكثيرون أن المؤرخ العظيم عبد الرحمن بن خلدون ترجم لنفسه فى نهاية تاريخه الكبير ، لست أخوض فى باب المقارنة . لكن يكفى أن نعرف تاريخ صدور أول ترجمة ذاتية فى الأدب الإنجليزى . كان ذلك فى القرن السابع عشر الميلادى عندما كتب صمويل بيبيس ١٦٣٣ - ١٧٠٣ م يومياته ومذكراته وفى نفس القرن كتب ريتز مذكراته فى فرنسا عام ١٦٧٢ ، فى ذلك الوقت عندما بدأ فن كتابة التراجم يظهر فى أوروبا ، كانت التراجم العربية قد بلغت حدامن الكثرة والتنوع لا تقاس به بداية غير منتظمة الخطا فى الآداب الأوروبية ، إنها أسوق المقارنة وأضرب المثل ليتبين لنا إلى أى حد

نظلم أنفسنا ونجهل تراثنا عندما نجهل هذا المصدر المهم الذى يمكن أن يصبح وافداً هاماً يثرى فنون القص وأشكاله فى أدبنا العربى .

* * *

السيرة النبوية أوسع وأشمل ما فى التراجم الإسلامية ، إذ كانت المحور الذى تدور حوله حياة الإسلام ونشأته واتساعه وتطوره ، ثم أصبحت حياة الصحابة والتابعين محوراً هاماً للتراجم فكتب ابن سعد موسوعته عن الصحابة « الطبقات » فى القرن الثالث الهجرى ، وفى نفس القرن وضع ابن سلام الجمحي كتابه « طبقات الشعراء » ، ويلاحظ اهتمام المؤلفين فى هذه الفترة بذكر الأسانيد والرواة . وربما تأثروا فى ذلك بطريقة رواية الأحاديث النبوية ، وفيما تلا ذلك تنوعت كتب التراجم والطبقات ، والملفت للنظر أن معظم هذه الكتب التى تنبئ بحس رواثى واضح عند مؤلفيها . وضعت بمبادرة ذاتية منهم ، لا تقرباً إلى حاكم ولا ترفلاً إلى سلطان ، ولا استجابة لطالب ، إنما كانت بدافع ذاتي منهم . ويؤكد ذلك الحس الأدبى فى أعماقهم ، يقول ابن خلكان فى مقدمة موسوعته « وفيات الأعيان » بعد أن يشرح منهجه فى التأليف :

« وذكرت من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة أو نادرة أو شعر أو رسالة ليتفكه به متأمله ولا يراه مقصوراً على أسلوب واحد فيملمه ، والدواعى إنما تنبعث لتصفح الكتاب إذا كان مُفْتَنًا . وبعد أن صار كذلك لم يكن بُدَّ من استفتاحه بخطبة وجيزة للتبرك بها ، فنشأ من مجموع ذلك هذا الكتاب ، وجعلته تذكرة لنفسي . . » .

ولتوقف مطولاً أمام هذه العبارة الجميلة ، الدالة ، الموحية « وجعلته تذكرة لنفسي . . » .

إننى أعتبر وفيات الأعيان درة فن كتابة التراجم العربية ، ولى وقفة أطول معه ، خاصة فيما يتعلق بطريقة ابن خلكان فى تقديم الشخصية . فى القرن التاسع الهجرى ، نجد المؤرخ المصرى ابن تغرى بردى يشير فى مقدمة كتابه « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » إلى أنه ألف كتابه هذا :

« غير مستدعى إلى ذلك من أحد من أعيان الزمان . ولا مطالب به من الأصدقاء والخلان ، ولا مكلف لتأليفه وترصيفه من أمير أو سلطان . . » .

كان الدافع عنده ذاتياً محضاً ، ليكمل كتاب « الوافى بالوفيات » لمؤلفه الصفدى المتوفى

سنة ٧٦٤ هجرية ، والذي أعقب كتاب ابن شاکر الکتبی ، « فوات السوفیات » والذي قدم فيه لمن لم يترجم ابن خلكان لهم .

أما ياقوت الحموی صاحب « معجم الأدياء » توفي سنة ٦٢٦ هجرية ، فيؤكد في مقدمة موسوعته النادرة أنه جمع مادة كتابه هذا « لفرط الشغف والغرام ، والوجد بها حوى والهيام . لا لسultan أجتديه ولا لصدر أرئجييه . . . » .

أما ابن بسام الشنتريني - توفي ٥٤٣ - « صاحب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، والذي ترجم فيه لرجال الأندلس ، فيقول عبر مقدمة جزلة مؤثرة .

« أخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات وهوى ، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري ، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة ، وتصبح بحاره ثيادا مضمحلة ، مع كثرة أديائه . ووفور علمائه . . . » .

أما السخاوي صاحب « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » ، والذي يتميز بترجمته لعدد كبير من بسطاء الناس ، أصحاب الحرف وصغار المشايخ ، ومن خلالهم يقدم صورة حية للمجتمع المصري فيقول في مقدمته .

« والله أسأل أن يجنبنا الاعتساف المجانب للإنصاف وأن يرزقنا كلمة الحق في السخط والرضا ويصرفنا عما لا يرتضى ويقينا شر القضا . . . » .

كان أولئك الذين قدموا أجمل موسوعات التراجم العربية فنية ، وقدرة على الوصف ، وتحميلاً لحيوات الناس ، مدفوعين برغبة داخلية قوية في إعادة خلق ما اندثر من سير الآخرين . وهذا ما جعل آثارهم تدنو من حدود الإبداع الأدبي المستند إلى الواقع المرئي ، وتحاور كافة أشكاله في مختلف العصور .



تنوعت كتب التراجم تنوعاً كبيراً ، بدءاً بالتراجم العامة التي تجمع عدداً من سير أناس يختلفون صناعة وطبقة وعصرًا ومكاناً . لكنهم يتحدون في صفة الجدارة بأن يُذكروا . من هذه الكتب ، « نزهة الألباء في طبقات الأدياء » لكيال الدين الأنباري ، المتوفى سنة ٥٧٧ هجرية ، والثاني « معجم الأدياء » لياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ هجرية . وكتاب « فيات الأعيان » لابن خلكان .

وهناك كتب التراجم التي صنفت حسب العصور ، ومنها « يتيمة الدهر » للثعالبي ، والذي ترجم فيه لأعلام الشعراء في القرن الرابع الهجري ، وكتاب « البدر المسافر وتحفة

المسافر « للدنفوى المصرى وترجم فيه لأعلام القرن السابع الهجرى ، وكتاب « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » للمؤرخ ابن حجر العسقلانى ، ثم كتاب السخاوى « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » ، وكتاب « الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة » لنجم الدين الغزى . و « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » لمحمد أمين المحبى وكتاب « مسلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » للشيخ محمد خليل المرادى وفى العصر الحديث صدر كتاب « حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر » للشيخ عبد الرازق البيطار .

وهناك كتب التاريخ العام التى تعتبر من مصادر التراجم شديدة الأهمية مثل كتاب « المنتظم » لابن الجوزى . و « الكامل » لابن الأثير ، و « النجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى ، و « بدائع الزهور » لابن إياس ، و « عجائب الآثار » للجبرتى .

أما كتب الخطط التى تناولت العمران والمجتمعات العربية فتحفل بالتراجم ، وأهمها ، تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ جرجان للسهمى ، وتاريخ حلب لابن العديم . وخطط المقرئى ، وخطط على باشا مبارك .

وتعد كتب الطبقات من مصادر هذا الفن الفريد ، طبقات الصحابة لابن سعد وطبقات الفقهاء ، منها « طبقات الفقهاء والمحدثين » للمهيشم بن عدى المتوفى سنة ٢٠٧ هجرية ، و « طبقات الفقهاء » لابن إسحق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ هجرية و « طبقات الشافعية الكبرى » لتاج الدين السبكى ، توفى سنة ١٧٧ هجرية . وهذا كتاب شديد الحيوية ، يقدم صورة متكاملة واقعية جدًا للمجتمع المصرى خلال القرن الثامن الهجرى . وهناك كتاب « طبقات الشافعية » لابن قاضى شعبة الدمشقى المتوفى سنة ٨٥١ هجرية ، وهناك مؤلفات فى تراجم الحنابلة والمالكية والحنفية ، وللشيعية العديد من كتب التراجم منها (أعيان الشيعة) ، و « مقاتل الطالبين » للأصفهانى صاحب كتاب الأغانى . وبالمناسبة فإن كتاب الأغانى الشهير فى جوهره ما هو إلا كتاب تراجم ، هناك مؤلفات اختصت بطبقات المحدثين والحفاظ والقراء ، والنحاة ، والشعراء ، والقضاة ، وكتاب واحد فقط فى التراث العربى للأطباء ، الذى وضعه ابن أبى أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هجرية ، أما طبقات الصوفية فهناك العديد من الكتب الضخمة التى تحفل بتراجم رجال الصوفية وكراماتهم وخوارقهم وعاداتهم . إن المجال ليضيق بحصر تلك المؤلفات . ولكن لابد من الإشارة لثلاث موسوعات كبيرة . الأولى « حلية الأولياء » لأبى نعيم الأصبهانى ، وقد طبعت عدة مرات فى عشرة أجزاء ، وكتاب الإمام الشعرانى « لواقح الأنوار فى طبقات

الأخيار» واشتهر باسم «طبقات الشعرائى الكبرى» . وهناك كتاب هام صدر أخيراً فى المغرب هو «التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبى العباس السبئى» لابن يعقوب يوسف بن يحيى التادلى المعروف بابن الزيات وقد صدر فى الرباط عام ١٩٨٤ بتحقىق الدكتور أحمد التوفىق . ونلاحظ فى كتب التراجم الخاصة بالتصوف وجود البعد الغربائى أو المعجائى المرتبط بالرجال والنساء المترجم لهم من أصل الكرامات .

* * *

هكذا . . ما قصدت إلا الإشارة إلى ذلك الفن القديم ، العريق فى تراثنا ، قبل الإبحار فى لجة مضمونه ، ومحاولة تلمس أسراره ، طرق الرواية ، وأساليبها ، وما يميز هذا عن ذلك . وما يدخر به من تفاصيل وحيوات تضح بها السطور بعد أن خلت الأرض من أصحابها ، كما استخلو منا يوماً . .

لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق

في بداية سعيي ، زمن اكتمال غضاضتي ، وشروق أمري ، لم تكن يد الوالد الكريم ، تخلو من يدي عند توجيهه هنا أو هناك ، لزيارة قريب ، أو للفسحة . أو للطواف بمقام أحد الكُمل الصالحين ، الشاوين في تراب مدينتي الشاسعة ، كان أحد مقاصده مسجد سيدي عبد الوهاب الشعراني ، الذي ينسب إليه حتى بأكمله يعد من أكثر مناطق القاهرة ازدحامًا وأصاله ، باب الشعرية ، مازلت أذكر ظلال المقام ، ورسوخ الضريح ، وخشوع القوم ، ورائحة القدم المنبعثة من أغطية الأرض الفقيرة عند الركوع مازلت أعي وقفة أبي ، وإطراقتة ، والتماسه الغوث ، العون ، من الشيخ جليل القدر الذي رحل منذ حوالي خمسة قرون ، مازلت أذكر مع أن الشوط طال . والمسافات انقضت ، والصحبة انفرطت بعد التحاق أبي بالعدم . . رحمه الله .

في السنوات الأخيرة عدت إلى سيدي عبد الوهاب الشعراني من جديد ، هذه المرة عبر كتبه ، وآثاره ، سطره حفزنتي لزيارته . ولكن هذه المرة بمفردى ، أترحم عليه ، وأقرأ له ولوالدي الفاتحة ، بعد أن نفذت إلى دقائق تكوينه الإنساني من خلال ترجمته الذاتية البديعة ، الفريدة في الأدبين العربي والعالمي ، والمعروفة بلطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، هكذا كتب الإمام سيدي الشعراني حياته ، من خلال ذكر ما مَنَّ الله به عليه . وتطرق إلى أدق تفاصيل معاناته الروحية ، وعلاقاته الإنسانية ، حتى ما يتعلق بزوجته ، رسم أيضًا صورة حية ، لمجتمعه ، ولعلاقات الناس ببعضهم البعض ، بحيث جاء صورة لعصر بأكمله ، بقدر ما عبر اضطرام وشراء الحياة الروحية . لواحد من الذين تعلق بهم الشعب . وأنزله في أرفع مكانة .

المن ، جمع منة . وخلال حياة سيدى الشعرانى أنعم الله عليه بالعديد منها . فرأى أن يذكرها . ليقنّدى إخوانه به ، فيتخلّقوا بها ، يقول فى سبب تأليفه الكتاب :

« وقد مكثت متخلّقًا بها عدة سنين ، ولا يشعر إخوانى بذلك ، وكنت أمرهم بالتخلّق بها فلا يسمعون ، فقال لى يومًا جماعة منهم ، هذه الأخلاق التى تأمرنا بها لم نجد أحدًا تخلّق بها من أهل عصرنا حتى نقنّدى به فيها ، فاستخرت الله تعالى وأظهرت لهم تخلّقى بها . قطعًا لحجتهم ، وقلت لهم : انظروا إلى هذه الأخلاق التى أذكرها لكم فى هذا الكتاب ، فكل خلق رأيتمنى متخلّقًا به فاتبعونى عليه .

هكذا رتب الكتاب على مقدمة . وستة عشر بابًا ، وخاتمة ، فى الباب الأول يحدد نسبه الذى ينتهى بالإمام محمد بن الحنفية وخطته فى السرد إيراد فقرات متتالية . تبدأ كل منها بجملته « فمما منّ الله تعالى به على . . . » ، يقول أثناء سرد نسبه :

« وكان جدى السابع الذى هو السلطان أحمد سلطانًا بمدينة تلمسان فى عصر الشيخ أبى مدين المغربى رضى الله عنه ، ولما اجتمع به جدى موسى ، قال له الشيخ أبو مدين : لمن تتسب ؟ . قال والدى : السلطان أحمد . فقال له : إنما عنيت اسمك من جهة الشرف ؟ فقال انتسب إلى السيد محمد بن الحنفية ، فقال له : ملك وشرف وفقر لا تجتمع . فقال له : يا سيدى قد خلعت ماعددا الفقر ، فرباه ، فلما كمل فى الطريق أمره بالسفر إلى صعيد مصر ، وقال له أسكن بناحية « هو » فإن بها قبرك ، فكان الأمر كما قال . . . » .

هكذا امثل الجد السابع لأمر شيخه . فجاء من المغرب إلى مصر . وانتقل جذر سيدنا من المغرب إلى المشرق .

* * *

ولد فى ريف مصر ، فى القرن السادس عشر الميلادى ، يقول عن طفولته :

« وما منّ الله تبارك وتعالى به علىّ : وأنا صغير ببلاد الريف حفظ القرآن وأنا ابن ثمانى سنين ، وواظبت على الصلوات الخمس فى أوقاتها من ذلك الوقت ، فلا أتذكر أننى أخرجت صلاة عن وقتها إلى وقتى هذا إلا نسيانا مرة واحدة فنسيت الظهر فى طريق الحجاز حتى دخل وقت العصر من غير نية تأخير ، وكثيرًا ما كنت أصلى بالقرآن كله فى ركعة وأنا دون البلوغ . فالحمد لله رب العالمين . . . » .

جاء إلى القاهرة سنة إحدى عشرة وتسعمائة ، وعمره آنذاك اثنتا عشرة سنة ، أقام فى

جامع سيدى أبى العباس الغمري . وحنن الله عليه شيخ الجامع وأولاده ، فأصبح كأنه واحد منهم ، يأكل مما يأكلون ، ويلبس مما يلبسون :

« فأقمت عندهم حتى حفظت متون الكتب الشرعية وآلاتها ، وحللتها على الأشياخ ، ولم أزل بحمد الله محفوظ الظاهر من الوقوع في المعاصي ، معتقداً عند الناس يعرضون على كثيراً من الذهب والفضة والثياب ، فتارة أردتها وتارة أطرحها إباحة في صحن الجامع ، فيلتقطها المجاورون ، وكنت كثيراً ما أطوى الأيام وأنا دون البلوغ تعففاً عما في أيدي الناس ، وخوفاً من هوانى في أعينهم . . . » .

حفظ متون الكتب ، حتى صار يعرف مشابهاها كالقرآن . واستمع إلى شيوخه وشروحهم ، وكانوا نحو خمسين شيخاً . وكان ينسخ الكتاب والزوائد عليه لضيق ذات يده عن شرائها يقول سيدى الإمام الشعرانى :

« وكان ذهني بحمد الله سيالاً لا يسمع شيئاً وينساه ، ولم أزل كذلك حتى ترادفت على المهوم ، لما بلغت في السن إلى نحو خمس وعشرين سنة . وذلك نحو ثلاث وعشرين من القرن العاشر (الهجرى) التى دخلت فيها إلى مصر . لما جاءت دولة بنى عثمان نصرهم الله تعالى ، وقال لى مرات بدايتك نهاية غيرك ، فانى مارأيت أحداً تيسر له مطالعة هذه الكتب كلها في هذا الزمن أبداً . . . » .

ثم يقول :

« وما أنعم الله تبارك وتعالى به على حال اشتغالى بالعلم على الأشياخ حفظى من دعوى العلم والتكبر به على العامة ، فلا أستحضر أنسى رأيت نفسى قط على أحد من عوام المسلمين . » .

من نعم الله عليه أيضاً خفض الصوت عند حفظه . أو جدله مع رفاقه وكذلك كثرة المطالعة ، ومراجعة المشايخ سعيًا إلى الفهم الأدق وكان دائم السعى إلى نوادر المخطوطات .

« وكان الله تعالى قد سخر لى الشيخ شمس الدين المظفرى يأتينى بكل كتاب طلبته من خزائن مصر ، فجزاه الله تعالى عنى خيرًا . . . » وبعد ذكر تحصيله وبجاهدته فى طلب العلم ، يذكر مؤلفاته وتقريظ علماء عصره لها ، ويورد نصوص العبارات التى مدحوه بها ، ثم يقول :

« وما أنعم الله تعالى به على : موت جميع أشياخى وهم عنى راضون ، وذلك من أكبر نعم الله تعالى على » .

كان سيدي الإمام يجاهد في طلب العلم وتحصيله ، حتى أنه سعيًا إلى سهر الليالي مد حياضًا من السقف أحاط به عنقه ، يجعله حولها من العشاء إلى الفجر . ومكث على ذلك سنين ، حتى لا تأخذه غفوة .

القناعة باليسير

بعد ذكر ما حصله من كتب ، وما استوعبه من شروح ، ومتون ، يأخذنا شيئًا فشيئًا إلى عالمه الروحي . فيقول ما نصه :

« وكانت القناعة من الدنيا باليسير سداى ولحمتى ، فأغتنى بحمد الله عن وقوصى في الدل لأحد من أبناء الدنيا .

ولم يقع لي أنسى باشرت حرفة ولا وظيفة لها معلوم دنيوى منذ بلغت ، ولم يزل الحق تعالى يرزقنى من حيث لا أحسب إلى وقتى هذا . وعرضوا على الألف دينار وأكثر فرددتها ولم أقبل منها شيئًا ، وكان المباشرون والتجار يأتون بالذهب والفضة فانشرهما في صحن جامع الغمري فيلتقطهما المجاورون ، وتركت أكل لذيق الطعام ، ولبست الخيش والمرقعات من شراميط الكيان نحو سنتين وأكلت التراب لما فقدت الحلال نحو شهرين ، ثم أغائنى الله تبارك وتعالى بالحلال المناسب للقامى إذ ذاك ، وكنت لا أكل طعام أمين ولا مباشر ، ولا تاجر يبيع على الظلمة ، ولا فقيه لا يسد في وظيفته . ويأكل معلومها ولا غيرهم من جميع المتهورين في كسبهم ، وضافت على الأرض كلها ونفرت من جميع الناس ونفروا منى . فكنت أقيم في المساجد المهجورة ، والأبراج الخراب مدة طويلة ، وأقمت في البرج الذى فوق السور من خرابة الأحمدي مدة سنة . وما رأيت أصفى من تلك الأيام . وكنت أطوى الثلاثة أيام وأكثر ثم أفطر على نحو أوقية من الخبز من غير زيادة وضعفت بشريتى ، وقويت روحانيتى ، حتى كنت أصعد بالهمة في الهواء إلى الصارى المنصوب على صحن جامع الغمري ، فأجلس عليه في الليل والناس نائمون ، ثم إذا نزلت من السلم إلى الجامع أنزل بجهد وتعب لغلبة روحانيتى وطلبها الصعود إلى عالمها ، فإنه لا يثقل الإنسان في الأرض إلا كثرة الشهوات . وهذا هو سبب تحريك الإنسان رأسه حال الذكر ، وتلاوة القرآن ، فكان الروح تشتاق إلى القرب من حضرة ربها ، إذا سمعت كلامه أو اسمه فتكاد تلتحق بعالمها السامى ، وقد أنشدوا في معنى ذلك :

ولما بدا الكون الغريب لناظرى

حننت إلى الأوطان شب الركائب

يقول سيدى الإمام الشعرانى إنه كثيراً ما خرج إلى موارد البرك التى يغسل الناس فيها
الفجل والخس والجزر والبقل فيلتقط منها ما يكفيه ، ثم يقول :

« وقد مكثت أنا نحو سنة وعمامتى من شراميط الكييان وقصاصة الجلود . حتى
وجدت الحلال ، وبالغت فى التدقيق فى الورع بحماية الله عز وجل لا بحولى ولا بقوتى ،
حتى كنت لا أكل من فراخ الحمام لأكلها من زرع الناس ، ماقد لا تسمح به نفوسهم ،
ولا أمشى فى ظل عمارة أحد من الولاة أو أعوانهم ، ولما عمل السلطان الغورى بمصر
الساباطا - السقف - الخشب الذى بين مدرسته وقبته الزرقاء ، تركت المرور من تحته ،
فكنت أدخل من سوق الوراقين ، وأخرج من سوق الشرب ، وأنا بحمد الله على مقام
الورع إلى وقتى هذا . . . » .

الملتفت لا يصل

يذكر الإمام كثيراً من شيوخه ، ولكن الاسم الذى يتردد أكثر من غيره . هو الشيخ على
الخواص ، وقد أفرد له ترجمة مطولة فى كتابه لوائح الأنوار المعروف بطبقات الشعرانى .
بعد أن يذكر مجاهدته من أجل العلم . واستيعاب الفقه ، والعلوم الشرعية ، والتفاسير ،
بعد أن يذكر قبساً من مجاهدته الروحية ، ينتقل إلى مجاهدته على يد سيده وسيدنا الشيخ
على الخواص الذى أمره فى أول اجتماع به أن يبيع جميع كتبه ، وأن يتصدق بثمانها على
الفقراء ، فامتثل مع أنه يذكر نفاسة كتبه وندرتها ، صار عنده التفات إليها وحزن لكثرة
كتابه الحواشى والتقييدات عليها ، شعر كأنه سلب العلم ، فطلب منه شيخه أن يذكر
الله تعالى فإنهم قالوا : ملتفت لا يصل .

وهنا :

« عملت على قطع الالتفات إليها مدة حتى خلصت بحمد الله تعالى من ذلك ،
فأمرنى بالعزلة عن الناس مدة حتى صفا وقتى ، فصرت أهرب من الناس وأرى نفسى
خييراً منهم فقال لى : اعمل على قطع رؤية أنك خير منهم .

فعملت فى المجاهدة مدة حتى صرت أرى أن أرذلهم خير منى .

ثم أمرنى بالخلطة . والصبر على أذاهم . وعدم مقابلتهم . فعملت على ذلك حتى
قطعته . فرأيت حيثئذ أننى صرت أفضل مقاماً منهم فقال لى : اعمل على قطع ذلك .

فعملت على قطعه مدة ، حتى قطعته .

ثم أمرني بالاشتغال بذكر الله تبارك وتعالى سرًا وعلانية . وكل خاطر خطري بترك أكل الشهورات مطلقًا ، فتركتهما حتى صرت أصعد بالهمة في الهواء . وصارت العلوم النقلية تزاحم العلوم الوهية ، ثم أمرني بالتوجه إلى الله تعالى في أنه يطلعني على أدلتها الشرعية . فلما اطلعت عليها وصار لسوح قلبي ممسوخًا من العلوم النقلية لا ندراجها في الأدلة ، ترادفت عليّ حيثئذ العلوم الوهية ، وكان ابتداء ذلك بساحل بحر النيل عند بيوت البرابرة وسواقي القلعة ، فبينما أنا واقف هناك ، وإذا بأبواب من العلوم اللدنية انفتحت لقلبي ، كل باب أوسع مما بين السماء والأرض ، فصرت أتكلم على معاني القرآن والحديث . واستنبط منها الأحكام وقواعد النحو والأصول وغير ذلك ، حتى استغنيت عن النظر في كتب المؤلفين ، فكتبت عن ذلك نحو مائة كراسة . فعرضت بعض ذلك على سيدي علي الخواص فأمرني بغسله ، وقال : هذا علم مخلوط بفكر وكسب . وعلوم الوهب منزهة عن مثل ذلك . فغسلتها وأمرني بالعمل على تصفية القلب من شوائب الفكر ، وقال : بينك وبين علم الوهب الخالص ألف مقام . فصرت أعرض عليه كل شيء فتح به عليّ ، وهو يقول : اعرض عن هذا واطلب ما فوقه . إلى أن كان ما كان . فهذا كان صورة فتحي بعد المجاهدة المذكورة . فالحمد لله رب العالمين .

* * *

هكذا ، بدأ سيدي الإمام الشعراني طريق القوم . وفي ختام الباب الأول الذي خصصه لشرح عناصر تكوينه ، يورد سطورًا لشيخه سيدي علي الخواص .

« كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله يقول : مررت على حجر مكتوب عليه اقلبنى تعتبر ، وذلك أيام سياحتي ، قال : فقلبت فوجدت في باطنه مكتوبًا : « أنت بها تعلم لم تعمل فكيف تطلب علم ما لم تعلم فوالله إن أمثالنا لم يطلب العلم إلا لإقامة الحججة عليه لا غير ، ومن ادعى غير ذلك كذبه أفعاله ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . . . » .

يقول الإمام الشعراني في مفتتح الباب الثاني إن من نعم الله عليه عدم اصغائه منذ طفولته إلى من يزعم أنه يعرف علم الكيمياء ، أو يقدر على فتح المطالب ، وهذا من النعم الجليلة ، فقد تلف في ذلك حال كثير من الفقراء وطلبة العلم ، كان سيدي إبراهيم المتبولي يقول : ثلاثة من الناس لا يرجى فلاحهم لاستحكام المقت فيهم ، من يجب اللواط . ومن يعمل الكيمياء ومن يريد فتح المطالب .

واضح أن المجتمع المصري كان مشغولًا بالأمرين معًا ، الاشتغال بالكيمياء لتحويل الحديد إلى ذهب . والعثور على الكنوز الخبيثة التي تضم الذهب والمجوهرات النفيسة ،

يقول الإمام الشعرائى إن سيدى « أبو » البقاء بن البارزى أخبره عن شخص نصب عليه .
فأتلّف عليه نحو ثلاثين ألف دينار ، فصار يأخذ منه دفعات من المال ، ويطبّخ - أى
يجرى التجارب - فتطلع الطبخة فاسدة ، فيقول له : المرة الثانية تصح إن شاء الله تعالى ،
واستمر الأمر حتى نفذ جميع ما معه من مال .
سأله مولانا الشعرائى : وأين ، كان عقلك ؟
فقال : وهل لمحّب الدنيا من عقل ؟

المطالب

أما الشيخ محمد أبو شعر الماوردى فكان من أصحاب سيدى الشيخ « أبو » السعود
الجارحى . أخبر مولانا الشعرائى أن رجلاً نصب عليه قال له : بلغنى أن فى قاعتك
مطلباً عظيماً ومقصودى أفتحه لك ، ولكن يحتاج إلى نحو سبعة وعشرين ألف نصف
نشترى بها بخورات ، ونحلى بها ضام الجن الذين يحرسون الكنز ، وكان النصاب يعرف
علم الكيمياء ، فآخذة وأدخله القاعة ، وأطلق له عشباً معروفاً عنده فرأى بمخيلته أن
باباً انفتح ، فنزل هو وإياه فوجدا أكواماً من الذهب والفضة كالتلال الصغيرة ، وإذا
بملك الكنز وحارسه نائم على سرير قوائمه من ذهب وهو مغطى بشباب من حرير ،
وعليه شبكة من لؤلؤ . فقال له : بقى عندك شك ؟ ، فقال : لا ، فقال : أعطنى من
المال لآتى لك بالبخور الذى يبطل الموانع لتبخر به ، فأعطاه جميع ما بيده من النقد ،
وأخذ أساور أمه الذهبية ، وباع حتى ملابس زوجته ، وبعد أن أخذ النقود كلها اختفى ،
ولم يعثر له على أثر حتى اليوم ، وبعد أن يأتى إمامنا الشعرائى بحكايات عديدة حول
الذين سعوا إلى كشف الكنوز ، أو تحويل الحديد إلى ذهب ، يقول :

« وقد لعب الشيطان بجماعة كثيرة يدعون التصوف والسلوك فأتلفوا ما كان بأيديهم
وأيدى أصحابهم من الأموال . وصاروا كلهم فقراء من الدنيا يأكلون بسديتهم وصلاحهم
ومجالسهم فى الذكر خبزاً وطعاماً وثياباً . فكان الذى يأكل بالطبل والمزمار أحسن حالاً
منهم . لأنه قد قيل بحل الأكل بالطبل والمزمار فى الجملة » .

ثم يحدثنا عن امتحانه لأحد الصوفية المشهورين فى عصره :

« وقد امتحنت سيدى محمد الجعفى لما حججت ، وقلت له : أنا أعرف علم الكيمياء
فصار يخدمنى أشد الخدمة ، فلما عزمتم على الرجوع من الحج تبغى . وقال : علمنى ما
وعدتنى . فقلت له : هيهات . . كيف أعلمك شيئاً يشغلك عن الله تعالى . فما زال

يقسم على فلا أجيبه ، ثم قلت له : يا شيخ محمد أين شهرك بالزهد في الشام ومصر والحجاز والروم ، وأنت تحب الدنيا ؟ قال ، فاستغفر وتاب على يدي . وكلح مني .

الشفقة

من نعم الله العظمى على مولانا إحساسه بالآخرين . لم يكن ذاهلاً أو غائباً عن مجتمعه أو ناسه .

« كثرة شفقتي على جميع المسلمين ، وولاة أمورهم ، حتى أنى ريباً أمرض لمرض ولى أمرى . وأشفى وقت شفائه ، ومن شفقتى أنى أحوطهم في كل يوم وليلة بما ورد في الأخبار والآيات مما يدفع عنهم الآفات المعلقة على ذلك ، حتى أنى أحوط جسورهم أيام زيادة النيل خوفاً من أنها تنقطع قبل وقتها أو يقطعها العصاة كذلك فيعدم الناس رى أراضيهم أو بعضها ، وكذلك أحوط زروعهم من الدودة والهياف - المشرات - والغار ، ونزول المطر الذى يحرق الزرع بعد اشتداد حبه ونحو ذلك إلى طلوع الثريا . »

والمقصود بالحوطة التى يذكرها مولانا أنه يقرأ آيات من القرآن الكريم وأوراداً تقيم حاجزاً وسياجاً حول الشيء المراد التحويط عليه لحمايته ، وقد وقع لى مثل ذلك فى طفولتى بصعيد مصر ، عندما كانت جدتى لأمى ترفع أصبعها وتحركها حول رأسى متممة بما لا أعلمه وبين الحين والآخر تقول إنها تحوطنى من عين الحسود والمرض وأخطار الطريق والمجهول ، يقول مولانا وسيدنا :

« وكذلك أحوط زهر الفواكه والخضراوات خوفاً من البرد والحر الشديدين ، لأنهما يسقطان الزهر فيخسر الناس الذين يزنون المال على ذلك معجلاً ، وكذلك أحوط من يغفل عن الله عز وجل من رعاى الناس ، فى مثل يوم خروج المحمل أو خروج الحجاج أو دخولهم . أو كسر النيل أيام الوفاء ، أو دخول نائى جديد البلد ، أو عمل مولد . أو عرس . أو نحو ذلك . كالتفرج على البهلوان ، فأحوط جميع هؤلاء وأحوط دورهم خوفاً أن تسرق اللصوص ما فيها حال غيبتهم . »

بلغ من رهافة إحساسه بالآخرين ، أنه كان إذا سمع امرأة تهتاز مخاضاً صعباً ، يشعر هو بالأم الوضع حتى تلد ، كان يرحم جميع الخلق ، فلكل مخلوق عنده رحمة تناسب حاله من مؤمن وكافر ، والرحمة على الخلق مقام لم يتفرد به إلا قلة محدودة جداً من الصوفية ، ويحدثنا إمامنا عن رؤيا مرت به فى شبابه ، إذ رأى فى المنام أنه فى أرض من بللور واسعة وعليها سور شاهق نحو السحاب ، وليس له باب ، وهو خلف الشيخ نور الدين

الشونى ، شيخ مجالس الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مصر وقراها ، فبينما هما ما شيان إذ نزل من السماء قربة من ماء فى سلسلة من ذهب ، إلى أن وقف بقدر ما يصلها فمه ، شرب الشيخ نور الدين منها ، ثم أعطاه الفضلة ، تركه حتى تجاوزه ، عندئذ نزل شيء يشبه اللوح وهو فى سلسلة من فضة إلى أن وقف بقدر ما يصل إليه الفم كذلك ، فرأى ثلاثة عيون تتفجر بباء بارد ، على العين العليا مكتوب ، هذه العين مستمدة من حضرة الله تعالى ، أما الوسطى فمن العرش ، والسفلى من الكرسي ، ألهمه الله تعالى أن يشرب من الوسطى . ولما قص رؤاه على الشيخ شهاب المرامزى فسرها له . قال له إن ذلك يعنى الرحمة بجميع العالم . لأن الحق تعالى ما ذكر أنه استوى على العرش إلا باسم الرحمن .

الأكل

محدثنا مولانا الشعرانى على امتداد كتابه مرآة عن الأكل ، فمن منن الله عليه أنه لم يأكل من طعام فيه شبهة ، وإذا استراب فيه فإنه يتقيوه ، كذلك عدم الشيع من الحلال فضلاً عن الحرام والشبهات ، وذلك من أكبر نعم الله تبارك وتعالى عليه ، فإن أكل الحرام أو الحلال الزائد عن الحاجة يجلب النوم ، والنوم أخو الموت ، لأنه يورث الغفلة . عن جميع المصالح ، والخير ، كل الخير فى اليقظة ، والشر فى النوم والغفلة ، ومن النعم أيضاً عدم اشتهاه شيئاً من المطاعم والملابس إذا دخل السوق وإذا رأى فإنه يرى ببصر عقله لا بقلبه . كذلك كرهه الأكل من الصدقات الخاصة . وأيضاً حمايته من الأكل من هدايا الظلمة وأعوانهم من العمال ، ومشايخ العرب ، والكشاف ، وشيوخ البلد ، والمباشرين ، أى من يمتون إلى السلطة ، قال تبارك وتعالى « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » فنهى عن الركون والاستكانة إلى الظلم . كان سيدى إبراهيم المتبولى يقول : إياكم أن تأكلوا من طعام من يعتقد فيكم الصلاح من الأمراء وغيرهم . فإنكم تأكلون بدينكم . وكان رضى الله عنه يرد هدايا الولاة . وقد أرسل إليه شخص من جند السلطان فى رمضان صحن كنافه مبخرة ، ونثر عليها السكر والفستق ، فأكل منها لقيماً ، فقسا قلبه جمعة ، وعجز عن إخراجه بالقىء . ومرة أخرى أفطر عند شخص من مباشرى القلعة فى رمضان ، فوجد على مائدته أكثر من خمسة عشر لوتاً ، علم أنه متهور فى مكسبه ، فأكل لأجل خاطره ثلاث لقم بورق فجعل ، وفى الليلة نفسها رأى فى المنام من يقول له : استعد لمن يجاذيك على الصراط من أجل الثلاث لقم التى أكلتها الليلة بورق الفججل . عيئاً حاول أن يتقياً فلم يتيسر له . يتساءل مولانا : فإذا كان هذا فى مثل ثلاث لقم بفججل ، فكيف

الحال فيمن يشبع ، فأسأل الله تعالى من فضله أن يحميني وإخواني من مثل ذلك بقية أعمارنا ، آمين والحمد لله رب العالمين .

الولاية الحكام

يشعر إمامنا الشعراني بآلام الحكام ، حتى أنه يمرض لمرضهم ، ولكنه يحسهم كولاية لأمر المسلمين وليس باعتبارهم حكاماً ذوي سلطة ، وقد نشر في صفحات كتابه الكثير من المتن المتعلقة بعلاقته بهم ، ومعظمها يعكس تعففاً ، وتجنباً وشجاعة في مواجهتهم عند وقوع الضرورة . يؤكد أنه لا يخاف من مخلوق مطلقاً ، حتى الحيات أو العقارب والتماسيح واللصوص والجان ، ولكنه قبل ذلك يقول :

« وما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ : عدم خوفاً من أحد من الولاية بسبب كلام نقله لهم بعض الحسدة في حقهم عنى أو نحو ذلك إلا إن كان الخوف منهم يرجع إلى الخوف من الله عز وجل » .

ويروى إمامنا عن الأمير خضر كاشف الشرقية والقلبيوية أن الشيخ المتصوف علي البرلسي لقيه في طريق قلوب ، ومعه العسكر فقبض على طوقه وأنزله من فوق الفرس ، وصار يصفعه ويضربه على عيائه ، حتى هدمها في عنقه بحضرة عسكر السلطان ، حتى أن الأمير صار يرتعد من هيئته .

« ومن هنا تصدر العلماء العاملون لإزاله منكرات الولاية كالشيخ محيى الدين النوى ، والشيخ تقى الدين الحصنى ونحوهما لكمال زهدهم في الدنيا ، ولو أنهم كانوا يجنون الدنيا لما قدر أحد منهم على محاصمة أحد الولاية » .

يقول الإمام الشعراني إنه حمل دائماً على العلماء الذين يدخلون على الأمراء ولا ينصحونهم ، ولا يسأرونهم بمعروف ، ومن منن الله عليه نفوره من مدح الأمراء ، وقلة عبادته للظلمة ، وفي المقابل فإنه يشارك الخلق كل بلاء يقع عليهم ولا يهدأ إلا إذا ارتفع .

« وما منّ الله تبارك وتعالى به عليّ : مشاركتي لكل من بلغنى أنه في ضيق في جميع ما يصيبه ، وينزل عليه من البلايا والمعن » .

« وما يقع لي أنه إذا كان عندنا امرأة في المخاض أحسن أنى أطلق مثلها ، إذا بلغنى ما هى فيه من الوجع . وكذلك . إذا بلغنى أن أحداً يعاقب في بيت الوالى أحسن بالمقارع ، والكسارات وعصر الرأس ، ووضع الخوذة المحيطة بالنار على رأسى . . . » .

وفي المقابل يقول إن من منن الله عليه حب الفقراء له ، واعتقادهم فيه حتى أن بعضهم يخلفون به ، ويقولون لبعضهم : وسر سيدى عبد السوهاب . فيخلفون به كما يخلفون بالمشايخ الموتى ، المدفونين في التوابيت « مع أنى لست بشيخ ، وإنما الله تعالى مازال يسترنى بين عباده بوجوه شتى ، فله الفضل والمنة على سترتى بين عباده » .

الحياة الخاصة

لا أظن أن ترجمة ذاتية في الأدب القديم أو الحديث حوت مثل صراحة امامنا الشعراني وهو يسرد لطائف منته ، خاصة فيما يتعلق بزوجته ، وعندما توجه إلى زيارة سيدى أحمد البدوى في طنطا صحب زوجته . كان قد عقد عليها منذ سبعة شهور وما تزال بكرًا ، جاءه السيد أحمد البدوى ، وقال له : اختل بها في ركن القبة الذى على يسار الداخل وأزل بكارتها ، ففعل .

« وما أنعم الله تبارك وتعالى به على : كثرة شفقتى على ذريتى من قبل أن تحمل بهم أمهم . وذلك أنى لا أجامع أمهم قط وأنا غافل عن الله تبارك وتعالى ، ولا أجامعها وأنا غضبان ولا وأنا مقبل على الدنيا ، ولا وأنا مخاصم أمهم لحظ نفس ، ولا وأنا حسود أو متكبر على أحد من المسلمين » .

ومن لطائف المنن أيضًا كثرة صبره على زوجته إذا مرضت ، حتى أنه لا يستنكف أن يمسح ما تحتها من القاذورات إذا عجزت عن الذهاب إلى الخلاء ، أو الجلوس على الطشت مثلاً . كما كانت تفعل معه إذا مرض ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

« وإن طال مرضها واحتجت إلى التزويج لم أتزوج عليها لئلا أجمع بذلك عليها مرضين . حسياً ومعنوياً ، وإن خفت العنت استعملت الأدوية المسكنة لهيجان الشهوة إلى وقت شفاء زوجتى أو موتها . كل ذلك قيامًا بحق الصحبة ولو ليلة واحدة . وشفقة على خلق الله تعالى بمثل ما أصنع معها إذا مرضت » .

يقول إن من منن الله عليه عدم بخله عليها بأجرة الحمام ، سواء كان لإزالة جنابة جماع أو نفاس ، أو حيض . لأن ذلك من جملة المعاشرة بالمعروف ، فمن بخل على زوجته لم يعاشرها بمعروف ، وعلى امتداد الكتاب يوصى بغض الطرف ، وعدم النظر إلى محاسن امرأة الجار ، أو تلك التى غاب زوجها ، والرحمة بالأبناء ، والمودة والقربى للزوجة .

* * *

لطائف المنن دستور إنسانى رفيع فيما يجب أن تكون عليه علاقة الإنسان بمجتمعه ، بأسرته ، بصحبه ، بالحكام والولاة ، يفصل أحوال المجتمع المصرى فى القرن السادس عشر الميلادى ، ويثبت أن المتصوفة الكبار كانوا على صلة وثيقة بأدق تفاصيل الحياة اليومية ، كانوا طرفاً أساسياً فى المجتمع ولم يكونوا على هامشه ، وقد أدرك الناس ، خاصة البسطاء حقيقة هذه النفس الشفافة . الإنسانية ، فأنزلوا صاحبها فى حياته أرفع منزلة ، حتى أنهم حلفوا به . وبعد وفاته رفعوه إلى مرتبة الأولياء الصالحين . وإنسى إذ أمضى لزيارة ضريحه فى زمنى القاهرى العتيق ، احتوى بنظرى مئات الساعين إليه ، القادمين من قرى قصبية ، أو أماكن بعيدة ، يطوفون بمرقده ، يقرءون الفاتحة ، ويشنون نجواهم ، ومواجعهم . لقد عبر جوهره الإنسانى الحقب والعصور المتتالية . فصار ضوءاً مشعاً ، هو الذى لم يقدم على تدوين لطائف المنن التى أنعم بها الله عليه ، إلا ليقشده به الآخرون ، ويتبعوه ، فتصح إنسانيتهم .

ابن سينا .. يتحدث عن نفسه

تبدو الترجمة الذاتية في أدبنا العربي لغير المدقق ، الخبير بجوانب هذا التراث نادرة بل قد يقول البعض إنها منعدمة ، غير أن الواقع لا يؤيد ذلك ، فإلى جانب النصوص التي كتبت كترجمة ذاتية مباشرة ، أى أن الكاتب والمكتوب عنه شخص واحد ، مثل (الاعتبار) لأسامة بن منقذ ، و (المنقذ من الضلال) للإمام الغزالي ، و «السيرة المؤيدية» للمؤيد الشيرازي ، هناك نصوص عديدة في بطون الكتب ، إلى جانب الشعر العربي القديم ، الذي نجد في العديد من قصائده ترجمة ذاتية للشاعر ، وهذا موضوع يحتاج إلى بحث ودراسة منفصلة ، وبالطبع فإنني أتحدث عن الترجمة الذاتية ، أما عن كتب التراجم فما أغنى الأدب العربي بها ، وكتب الطبقات والتراجم يزخر بها تراثنا في مختلف العصور .

من النصوص المندسة في بطون الكتب ، نص فريد يتحدث فيه ابن سينا عن نشأته ، وتكوينه أملاه على أحد المقربين منه ، أبي عبيد الجوزجاني وهذا النص موجود في كتاب «عيون الأنبياء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة ، والذي حققه وشرحه الدكتور نزار رضا ، وصدر في بيروت عن منشورات دار مكتبة الحياة منذ عدة سنوات . يقول المحقق في مقدمة الكتاب :

« من أطباء العرب المعروفين وأدبائهم المرموقين ، رجل ترجم في كتاب واحد ، لم يؤلف غيره . أطباء العالم المشهورين منذ بدء التاريخ حتى يومه الذي هو فيه ، إنه موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة السعدي الخزرجي » .

ولد في دمشق عام ٦٠٠ هجرية ، وكان والده طبيباً تلقى علم الطب في دمشق ، والقاهرة ، وذاعت شهرته حتى وصلت إلى أمير صرخند ، إحدى مدن جبال حوران ، فأرسل يطلبه ، فرحل إليه ، وهناك عاش حتى توفي في ٦٦٨ هجرية ، وضع كتابه هذا لأمين الدولة وزير الملك الصالح ، وقد بدأ فيه بترجمة كبار الأطباء زمن الإغريق ،

والرومان، والهنود، والعرب، والعجم. ترجم لأطباء مصر والشام، كل قطر على حدة. طبع لأول مرة على يد المستشرق الألماني مولر الذي عثر على نسختين مخطوطتين منه عام ١٨٨٤. ثم قامت المطابع المصرية بطبعه مرة أخرى، نقلًا عن طبعة مولر، إلا أن العثور على طبعاته القديمة بات صعبًا، ولم يصبح متاحًا إلا بعد التحقيق الجديد الذي قدمه الدكتور نزار رضا.

* * *

ابن سينا أو الشيخ الرئيس، أو إمام العلوم كلها، ولد عام ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) قرب بخارى. كان أبوه من أهل بلخ. أتم دراسته في اللغة والأدب وهو في سن العاشرة على يد رجل مجهول لم تذكره الترجمة التي نتحدث عنها. ويقول الأستاذ محمد ثابت الفندى في تعليقه على المادة التي كتبها المستشرق دي بور لدائرة المعارف الإسلامية إن هذا الرجل من المحتمل أن يكون هو أبا بكر أحمد بن محمد البرقي الخوارزمي (يسراج كشف الظنون لحاجي خليفة الجزء الثالث - ص ٣٧٦)، وتقول الترجمة إنه درس الطب بمفرده، من جهة أخرى يروى أنه تلقاه على أبي سهل المسيحي، وأبي منصور الحسن بن نوح القمري، عام ٣٩٢ هـ، وبعد سقوط عرش السامانيين بين يدى أمير غزنة السلطان محمود بن سبكتكين، خرج من كركانج إلى جرجان عام ٤٠٣ هـ، فآرا من وجه سلطان غزنة أيضًا، ويذكر فريد الدين العطار أنه التقى بالشيخ أبي سعيد بن أبي الخير شيخ متصوفة هذا العصر في نفس هذا العام، في عام ٤٠٦ هـ يظهر ابن سينا في المدى ثم نجده في همدان حيث تولى الوزارة مرتين، إلا أنه من المؤكد أنه ترك الوزارة عام ٤١١ هـ، إذ نجد في أخبار هذا العام عند ابن الأثير ذكرًا لوزير آخر، بعد تركه الوزارة اضطره من قبل أمير همدان الجديد، بث حوله البصاين، بل إنه سجن لفترة، وأخيرًا. فر إلى أصفهان عام ٤١٤ هـ، وعاش مقرَّبًا من أميرها علاء الدولة بن كاكويه. ثم توفى في عام ٤٢٨ هـ. ويروى ابن خلكان في وفيات الأعيان روايات مختلفة عن موضع وفاته، كما ذهب بعض المستشرقين إلى القول بأنه توفى بالأندلس إثر دسياسة من ابن رشد، ولكن هذه أقاويل تفتقر إلى أبسط الأدلة، وحتى الآن فإن قبره مازال بهمدان يزار. كان ابن سينا قويًا، جلدًا، وفي نص ترجمته صورة حية، بليغة تصف مواصلته السهر لتحصيله العلم، وسكبه المياه الباردة على رأسه كلما أوشك على النوم حتى يفيق، في السادسة عشرة كان قد استوعب الطب، والمنطق، والأهليات، وعندما تمكن من علاج سلطان بخارى نوح بن منصور سمح له بدخول دار كتبه، ولأنه كان يتمتع بقوة ذاكرة مدهشة فقد

استطاع في فترة وجيزة أن يحصل من العلم الكثير . وفي الواحدة والعشرين بدأ يصنف الكتب . تعرضت حياته لا اضطراب بعد وفاة والده ، إلا أنه كتب أهم مؤلفاته خلال فترات الراحة والهدوء التي كان ينعم بها في بلاطى همدان ، وأصفهان ، وقد أتم في هذه الفترات دائرة معارفه الفلسفية (الشفاء) ومصنفه الطبى (القانون فى الطب) . وقد تركت مؤلفاته الموسوعية أثرًا عميقًا على الفكر الإسلامى ، والعصور التالية له ، وبعد موته تكونت له فى الأذهان ملامح أسطورية . والترجمة التى نورد نصها تلقى الضوء على بعض سيرته ، خاصة سنوات تكويته ، إلا أننا ننبه إليها من زاوية محاولة تسليط الضوء على بعض الجوانب المجهولة فى الأدب العربى ، خاصة وأن كتابًا مثل (عيون الأنبياء فى طبقات الأطباء) قد لا ينظر إليه دارسو الأدب العربى باهتمام . وكثير من المصادر التى يمكن أن تثرى أدبنا الحديث فى بطون كتب غير مطروقة . وهذا النص يؤكد وجود شكل السيرة الذاتية فى تراثنا العربى والإسلامى ، إلى جانب نصوص أخرى سوف نحاول تسليط الضوء عليها تبعًا .

* * *

إن أبى كان رجلاً من أهل بلخ ، وانتقل منها إلى بخارى فى أيام نوح بن منصور واشتغل بالتصوف . وتولى العمل فى أثناء أيامه بقرية يقال لها خرميثن من ضياع بخارى ، وهى من أمهات القرى . وبقرىها قرية يقال لها أفشنة ، تزوج أبى منها بوالدته وقطن بها وسكن ، وولدت منها بها ، ثم ولدت أخى ، ثم انتقلنا إلى بخارى ، وأحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب ، حتى كان يقضى منى العجب . وكان أبى ممن أجاب داعى المصريين ويعد من الإسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذى يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك أخى . وكانوا ربما تذكروا بينهم وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسى ، وابتدءوا يدعونى أيضًا إليه ، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وأخذ يوجهنى إلى رجل كان يبيع البقل ، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه ، ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله النائلى وكان يدعى المتفلسف ، وأنزله أبى دارنا رجاء تعلمى منه ، وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد ، وكنت من أجود السالكين ، وقد ألقت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على العجيب على الوجه الذى جرت عادة القوم به .

ثم ابتدأت بكتاب إيساغوجى على النائلى ، ولما ذكر لى حد الجنس ، إنه هو المقول

على كثيرين مختلفين بالنوع في جواب ما هو ، فأخذت في تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله ، وتعجب منى كل العجب وحذر والدى من شغلى بغير العلم . وكان أى مسألة قالها لى أتصورها خيراً منه ، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه . وأما دقائقه فلم يكن عنده منها خبرة . ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق . وكذلك كتاب أقليدس فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره . ثم انتقلت لى المجسطى ، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت لى الأشكال الهندسية ، قال لى النائلى تول قراءتها وحلها بنفسك ، ثم عرضها على لأبين لك صوابه من خطئه ، وما كان الرجل يقوم بالكتاب ، وأخذت أحل ذلك الكتاب فكم من شكل ما عرفه لى وقت ما عرضته عليه ومهمته إياه . ثم فارقتى النائلى متوجهاً لى كركانج ، واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من النصوص والشروح ، من الطبيعى والألهى ، وصارت أبواب العلم تنفتح علىّ .

ثم رغبت فى علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه . وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة ، فلا جرم أنى برزت فيه فى أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرءون علىّ علم الطب ، وتعهدت المرضى فانفتح علىّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف . وأنا مع ذلك أختلف لى الفقه وأناظر فيه وأنا فى هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة . ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصفاً ، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة . وفى هذه المدة نمت ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغلت النهار بغيره وجمعت بين يدى ظهوراً فكل حجة كنت أنظر فيها أثبت مقدمات قياسية وربتها فى تلك الظهور ، ثم نظرت فيما عساها تنتج ، وراعيت شروط مقدماته حتى تحقق لى حقيقة الحق فى تلك المسألة . وكلما كنت أتخير فى مسألة ولم أكن أظفر بالحد الأوسط فى قياس ترددت لى الجامع ، وصليت وابتهلت لى مبدع الكل ، حتى فتح لى المنغلق ، وتيسر المتعسر .

وكنت أرجع بالليل لى دارى وأضع السراج بين يدى ، واشتغل بالقراءة والكتابة . فمهما غلبنى النوم أو شعرت بضعف ، عدلت لى شرب قدح من الشراب ريثما تعود لى قوتى ، ثم أرجع لى القراءة . ومهما أخذنى أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى إن كثيراً من المسائل اتضح لى وجوهها فى المنام . وكذلك حتى استحكم معى جميع العلوم ، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنسانى . وكل ما علمته فى ذلك الوقت فهو كما علمته الآن لم أزد فيه لى اليوم ، حتى أحكمت على المنطق والطبيعى والرياضى . ثم عدلت لى الألهى ، وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة . فما كدت أفهم ما فيه ، والتبس على

غرض واضعه ، حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لي محفوظًا . وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به ، وأيست من نفسى وقلت : هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه . وإذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في السوراقين وبيد دلال مجلد ينادى عليه . فعرضه عليّ فرددته رد متبرم معتقد أن لا فائدة من هذا العلم . فقال لي اشتر منى هذا فإنه رخيص أبيعك بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج إلى ثمنه ، واشتريته فإذا هو كتاب لأبى نصر الفارابى في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة : ورجعت إلى بيتى وأسرت قراءته ، فانفتح على في الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان لي محفوظًا على ظهر القلب . وفرحت بذلك وتصدقت في ثانى يومه بشيء كثير على الفقراء شكرًا لله تعالى . وكان سلطان بخارى في ذلك الوقت نوح بن منصور ، واتفق له مرض التّج الأطباء فيه وكان اسمى اشهر بينهم بالتوفر على القراءة ، فأجروا ذكرى بين يديه وسألوه إحضارى ، فحضرت وشاركتهم في مداواته وتوسعت بخدمته فسألته يومًا الإذن لي في دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب ، فأذن لي فدخلت دارًا ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض . في بيت منها كتب العربية والشعر، وفي آخر الفقه وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد .

فطالعت فهرست كتب الأوائل وطلبت ما احتجت إليه منها . ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته أيضًا من بعد . فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها ، وعرفت مرتبة كل رجل في علمه . فلما بلغت ثمانى عشرة سنة من عمري ، فرضت من هذه العلوم كلها . وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ ، ولكنه اليوم معى أنضج ، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لي بعده شيء . وكان في جوارى رجل يقال له أبو الحسين العروضى فسألنى أن أصنف له كتابًا جامعًا في هذا العلم ، فصنفت له المجموع وسميته به . وأتيت فيه على سائر العلوم سوى الرياضى . ولى إذ ذاك إحدى وعشرون سنة من عمري . وكان في جوارى أيضًا رجل يقال له أبو بكر البرقى ، خوارزمى المولد ، فقيه النفس ، متوحد في الفقه والتفسير والزهد ، مائل إلى هذه العلوم ، فسألنى شرح الكتب له فصنفت له كتاب الحاصل والمحصل في قريب من عشرين مجلدًا ، وصنفت له في الأخلاق كتابًا سميته كتاب البر والإثم . وهذان الكتابان لا يوجدان إلا عنده فلم يعر أحدًا بنسخ منهما ثم مات والدى وتصرفت بسى الأحوال ، وتقلدت شيئًا من أعمال السلطان ، ودعتنى الضرورة إلى الإخلال ببخارى والانتقال إلى كركانج . وكان أبو الحسين السهلى المحب لهذه العلوم بها وزيرًا ، وقدمت إلى الأمير بها وهو على بن مأمون

وكننت على زى الفقهاء إذ ذاك بطيلسان وتحت الحنك ، وأثبتوا إلى مشاهرة دارة بكفاية
مثلى ، ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى نسا ، ومنها إلى باورد ، ومنها إلى طوس ، ومنها
إلى شقان ، ومنها إلى سمنيقان ، ومنها إلى جاجرم رأس حد خراسان ، ومنها إلى جرجان ،
وكان قصدى الأمير قابوس ، فاتفق فى أثناء هذا أخذ قابوس وحبسه فى بعض القلاع
وموته هناك ، ثم مضيت إلى دهستان ومرضت بها مرضًا صعبًا وعدت إلى جرجان ،
فاتصل أبو عبيد الجوزجاني بى وأنشأت فى حالى قصيدة فيها بيت القائل :

لما عظمت فليس مصر واسعى لما غلا ثمنى عدمت المشتري

قال أبو عبيد الجوزجاني ، صاحب الشيخ الرئيس ، فهذا ما حكى لى الشيخ من
لفظه .

* * *

إلى هنا ينتهى النص الذى ورد فى عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ويكمل أبو عبيد
الجوزجاني قائلاً :

هذا ما حكى لى الشيخ من لفظه !

الاعتبار

للأمير أسامة بن منقذ

وهو مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكنانى الشيزرى
« إن ركوب أخطار الحروب لا ينقص أجل المكتوب ، فإنسى رأيت معتبراً يوضح
للشجاع العاقل ، والجبان الجاهل أن العمر موقت ، مقدر ، لا يتقدم أجله ولا
يتأخر . » .

ما خطه الأمير العربى أسامة بن منقذ فى كتابه « الاعتبار » الذى بدأ تدوينه بعد أن بلغ
التسعين من العمر ، عمر طويل شهد فيه أحداثاً جسيمة وحاسمة ، الحروب الصليبية ،
زوال الدولة الفاطمية فى مصر ، عرف صلاح الدين الأيوبى والعاقل نور الدين ، وعاش
فى البلاط الفاطمى وكان طرفاً رئيسياً فى الصراعات التى جرت فى عهد الخليفة الحافظ ،
والخليفة الفائز ، خاض معارك لا حصر لها ، كان فارساً شجاعاً ، وشاعراً أدبياً ، وقطع
سنوات طويلاً من عمره جواً ، ولد فى ٢٠ جمادى الآخرة ٤٨٨ هـ (٤ يوليو ١٠٩٥) .
أطلق عليه والده اسم أول قائد عربى عهد إليه فتح الشام ، نشأ فى قلعة شيزر على ضفاف
نهر العاصمة . قضى معظم شبابه ما بين بلاط نور الدين فى دمشق ، والبلاط الفاطمى
فى القاهرة ، كهولته قد أمضاها فى الموصل ، فى حصن كيفا المطل على نهر دجلة ، زار
بيت المقدس فى فلسطين وحج إلى الحرمين ، وتنقل بين معظم البلاد الإسلامية وخلال
سنوات عمره الأخيرة ، وفى حصن كيفا ، كان يشرف على السنوات الطويلة التى قطعها
فى هذه الحياة الدنيا ، يتأمل ، ويسجل ، ويستخلص العبر ، وفى حدود ما أعلم ،
فإن هذا الكتاب فريد من نوعه فى التراث العربى ، إذ يمكن اعتباره سيرة ذاتية متكاملة فى
الأدب العربى ، الكاتبة والمكتوب عنه شخص واحد ، فهو سيرة ذاتية تتطرق إلى
تفاصيل إنسانية لم تتطرق إليها السير الأخرى كعلاقة مؤلف بوالده ، وإحساسه بالطبيعة ،

والزمن ، مما يجعل الكتاب أثرًا فريدًا في الأدب العربي ، حيث لا يتكلف السجع أو يستعرض فخامة الألفاظ ، إنما يترك أسلوبه ليسترسل على سجيته ، هناك سيرة ذاتية أخرى تسبق الاعتبار بسنوات قليلة لأحد الدعاة الفاطميين ، وهو المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي المتوفى ٤٧٠ هـ غير أن الطابع العقائدي يغلب عليها ، كما أنها لا تتطرق إلى التفاصيل .

مخطوطة كتاب الاعتبار وحيدة لا أخت لها ، محفوظة في مكتبة الاسكوريال ، وقد نشرت لأول مرة في ليون عام ١٨٨٤ . وفي عام ١٩٣٠ نشر الأستاذ فيليب حتى السفر العربي محققه في الولايات المتحدة . وقد أعيد نشره في بيروت منذ عدة سنوات ، وفي هذا الإصدار الذي أقدمه أحاول أن أجعل النص متاحًا للقارئ ، لا أتدخل قط بالتعديل في الأجزاء التي أقتطعها منه ، وقد حرصت على توضيح خلفيات بعض الحوادث التاريخية ، وإعادة ترتيب بعض الأجزاء حتى يكون متاحًا ، واضحًا للقارئ الذي تبدو أمامه كتب التراث كالألغاز والأحاجي . وتناهى عن المتناول بسبب ظروف عديدة في حياتنا الثقافية :

أسامة في مصر

(. . الدولة الفاطمية في مصر تمزقها الانقسامات ، والاضطرابات ، تزايد الصراع بين أطراف الدولة المختلفة ، في هذه الأوقات العصيبة وصل إلى مصر من الشام الأمير أسامة ابن منقذ . .) .

» . . فكان وصولي إلى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة (٥٣٩ - ١١٤٤ م) . فأقرني الخافظ لدين الله ساعة وصولي ، فخلع على بين يديه . ودفع لي تحت ثياب ومائة دينار . وحوّلني دخول الحمام ، وأنزلني في دار من دور الأمير الأفضل بن أمير الجيوش في غاية الحسن ، وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة وألثها من النحاس . كل ذلك لا يستعاد منه شيء ، وأقامت بها مدة . إقامة في إكرام واحترام ، وإنعام متواصل ، وإقطاع زاج .

(في ذلك الوقت كان يتولى الوزارة رضوان بن الولحشى ، كان شاعرًا وجنديًا مقدامًا ، ثم عزل من الوزارة ففر إلى الشام وطلب إلى زنكى أنابك الموصل مساعدته ، كان يريد غزو مصر . غير أن الأمير أسامة بن منقذ أثناه عن ذلك ، واسترضاه بثلاثين ألف دينار دفعها له من أموال الخليفة الفاطمي ، عاد الوزير رضوان إلى القاهرة بعد أن أمنه الخليفة الفاطمي الخافظ غير أنه لم يف بعهده . فقد حبسه عشر سنوات تمكّن في آخرها من

الفرار. وجمع أنصارًا كثيرين ، واستقر في الجامع الأحمر أمام القصر ، غير أن جنود الخليفة السودانية هزموا أنصاره ، وأسروه ، فقطعوا رأسه ، وقطعوا جسمه ، والشهوه اعتقادًا منهم أنهم بذلك يئاثلون في بأسه وشجاعته . . وبعد يومين من مقتل رضوان توفى الخليفة الحافظ . .) .

« . . وجلس بعده الظافر بأمر الله . وهو أصغر أولاده ، واستوزر نجسم الدين بن مصال ، وكان شيخًا كبيرًا ، والأمير سيف الدين « أبو » الحسن ، على بن السلار ، رحمه الله إذ ذاك في ولايته . فحشد وجمع وسار إلى القاهرة ونفذ إلى داره فجمع الظافر بأمر الله الأمراء في مجلس الوزارة ونفذ إلى داره ، فجمع الظافر بأمر الله الأمراء في مجلس الوزارة ، ونفذ النبأ زمام القصور يقول « يا أمراء هذا نجسم الدين وزيرى ونائبى ، فمن كان يطيعنى فليطعه ويمثل بأمره . » .

قال الأمراء : « نحن بمالك مولانا سامعون مطيعون » .

فقال أمير من الأمراء ، شيخ يقال له « لكروان » : « يا أمراء نترك على بن السلار يقتل ؟ » قالوا : « لا والله » قال « قوموا » فنفروا كلهم وخرجوا من القصر . شدوا على خيلهم وبغالهم وخرجوا إلى معونة سيف الدين بن السلار ، فلما رأى الظافر ذلك وغلب عن دفعه أعطى نجم الدين بن مصال مالا كثيرا وقال « اخرج إلى الخوف ، اجمع واحشد وانفق فيهم . وادفع ابن السلار . . » ودخل ابن السلار القاهرة ، ودخل دار الوزارة واتفق الجند على طاعته ، وأحسن إليهم ، وأمرنى أن أبيت أنا وأصحابى في داره وأفردي موضعا في الدار أكون فيه .

(دارت الحرب بين ابن السلار ، والوزير المخلوع ابن مصال وكان الأمير أسامة بن منقذ في جانب ابن السلار ، وعند مدينة الواسطى بالوجه القبلى دارت معركة حاسمة هزم فيها ابن مصال . واستقر ابن السلار عنوة في منصب الوزارة غير أن الخليفة الظاهر لم يكف عن الكيد له . .) .

« . . فعمل على قتله ، وقرر مع جماعة من صبيان الخاص وغيرهم ممن استياهم ، واتفق فيهم أن يهجموا داره ويقتلوه وكان شهر رمضان والقوم قد اجتمعوا في دار بالقرب من دار الملك العادل ينتظرون توسط الليل وإفتراق أصحاب العادل (ابن السلار) وأنا تلك الليلة عنده .

فقد فرغ الناس من العشاء وافترقوا ، وقد بلغه الخبر من بعض المعاملين (المتآمرين)

عليه ، أحضر رجلين من غلمانہ وأمرهما أن يهجا عليهم للدار التي هم فيها مجتمعون . وكانت الدار لما أرادہ الله من سلامة بعضهم ، لها بابان ، الواحد قريب من دار العادل ، والآخر بعيد ، فهجمت الفرقة الواحدة من الباب القريب قبل وصول أصحابهم إلى الباب الآخر ، فانهزموا وخرجوا من ذلك الباب ، وجاءني منهم في الليل من صبيان الخصاص نحو عشرة رجال ، كانوا أصدقاء غلماني فخبوهم . وأصبح البلد فيه الطلب لأولئك المنهزمين ، ومن ظفر بهم منه قتل .

وأعجب ما رأيت في ذلك اليوم أن رجلاً من السودان الذين كانوا في العملة انهزم إلى غلو داري ، والرجال بالسيوف خلفه ، فأشرف على القاعة من ارتفاع عظيم ، وفي الدار شجرة نبق كبيرة ، فقفز من السطح إلى تلك الشجرة فثبت عليها ثم نزل ودخل من كم مجلس قريب منه فوطئ على منارة نحاس فكسرهما ، ودخل إلى خلف رجل في المجلس . وأشرف أولئك الذين كانوا خلفه . فصححت عليهم وأطلقت عليهم الغلمان . دفعوهم ودخلت إلى ذلك الأسود . فنزع كساء عليه وقال « خذه إليك » قلت « أكثر الله خيرك ، ما أحتاجه » .

وخرجته ، وسيرت معه قومًا من غلماني فنجنا . .

(استدعى الأمير أسامة بن منقذ لمقابلة الوزير ابن السلار ، الذي طلب منه أن يتجهز للمسير إلى الملك العادل نور الدين ، يطلب مساعدته لغزو مدينة طبرية التي كان يحتلها الصليبيون ، فيمنع بذلك غزو الصليبيين لمصر ، وفي هذه الأثناء يسير الوزير ابن السلار لغزو غزة وعسقلان .

(يخرج الأمير أسامة من مصر موفدًا في مهمة من قبل الوزير ابن السلار إلى الشام لمقابلة الملك العادل نور الدين ، يطلب منه العون ضد الصليبيين) .

يقول أسامة بن منقذ

« . . وسرت وقد أراح علة سفري بكل ما أحتاجه من كثير وقليل ، فلها من الجفر
«واحة بين مصر وفلسطين» قال لي الأولاد :

« هذا مكان لا يكاد يخلو من الأفرنج » .

فأمرت اثنين من الأولاد ركبا مهرتين وسارا قدامنا إلى الجفر ، فما لبسا أن عادا والمهاري تطير بهما ، قالوا :

« الفرنج على الجفر ا » .

فوقعت وجمعت الجمال التى عليها ثقلى ورفساقاً من السفارة كانوا معى ورددتهم إلى الغرب ، وندبت ستة فوارس من مماليكى وقلت :

« تقدمونا وأنا فى أتركم »

فلما وصلت الجفر ، وفيه مياه وعشب وشجر ، فقام من ذلك العشب رجل عليه ثوب أسود فأخذناه ، وتفترق أصحابى فأخذوا رجلاً آخر وامرأتين وصبيانا ، فجاءت امرأة منهما ، مسكت ثوبى وقالت : « يا شيخ أنا فى حسبك » . قلت « أنت آمنة مالك ؟ » .

قلت : « لقد أخذ أصحابك لى ثوباً وناهقاً ونابحاً وخرزة » .

قلت للعلمانى : « من كان أخذ شيئاً يردده » .

* * *

« ومن طريف ما جرى لى فى الطريق أننى نزلت ليلة أصلى المغرب والعشاء قصرًا وجمعا ، وسارت الجمال ، فوقفت على رفعة من الأرض ، وقلت للعلمان : « تفترقوا فى طلب الجمال ، وعودوا لى . فأنا ما أزول من مكانى » .

فتفترقوا . وركضوا . كذا وكذا فيما رأوهم ، فعادوا لى وقالوا :

« ما لقيناهم ، ولا ندرى كيف مضوا » .

« نستعين بالله تعالى ونسير على النوء » .

فسرنا ونحن قد أشرفنا من انفرادنا عن الجمال فى البرية على أمر صعب وفى الأدلاء رجل يقال له « جزية » فيه يقظة وفطنة ، فلما استبطأنا علم أنا قد تهنا عنهم ، فأخرج قداحه وجعل يقدح وهو على الجمال . . والشرار من الزند يتفترق كذا وكذا ، فرأيناه على البعد ، فقصدنا النار حتى لحقناهم . ولولا لطف الله وما ألهمه ذلك الرجل كنا هلكنا .

* * *

ومما جرى فى تلك الطريق أن الملك العادل (الوزير ابن السلار) قال لى : لا تعلم الزملاء الذين معك بالمال . فجعلت أربعة آلاف دينار فى خرج على بغل سروجى مجنوب ، معى وسلمته إلى غلام وجعلت ألفى دينار فى خرج على حصان مجنوب معى وسلمته إلى غلام ، فكنت إذا نزلت جعلت الأخراج فى وسط بساط ، ورددت طرفية عليها ، وبسطت

فوقه بساعداً آخر ، وأنام على الأخراج وأقوم وقت الرحيل قبل أصحابي ، يهين الغلامان اللذان معها الخرجان فيتسلماها ، فاذا شداهما على الجناث ركبت وأيقظت أصحابي ، فهممتا بالرحيل ، فنزلنا ليلة في تيه بنى إسرائيل فلما قمت للرحيل جاء الغلام الذي معه البغل المجنوب أخذ الخرج وطرحه على وركى البغل ودار يريد شده ، فزل البغل وخرج يركض وعليه الخرج ، فركبت حصاني ، وقد قدمه الركابي ، وقلت لواحد من غلمانى : « اركب . . اركب » . وركضت خلف البغل فما طفته ، وهو كأنه حمار وحش ، وحصانى قد أعيسى من الطريق ، ولحقنى الغلام ، فقلت « اتبع البغل » فمضى وقال : « والله يا مولاي ما رأيت البغل ، ولقيت هذا الخرج قد شلته » ، فقلت : « للخرج كنت أطلب والبغل أهون مفقود » ، ورجعت إلى المنزلة وإذا بالبغل قد جاء يركض دخل في طوالة الخيل ووقف ، فكأنه ما كان قصده إلا تضييع أربعة آلاف دينار .

* * *

« ويمضى أسامة إلى الشام ، يلتقى بأسد الدين شركوه ، وبالعادل نور الدين ، يرفض نور الدين محاربة الصليبيين في هذه الفترة ، لأن أهل دمشق لم يكونوا معه ، وبرغم ذلك سمح للأمير أسامة أن يجند تحت لوائه عددًا كبيرًا من المنتطوعين وسمح لعدد من جنود حرسه الخاص الانضمام إليه لينسب إلى نفسه ما قد يجوزه أسامة من نصر ، ويحاصر أسامة الفرنج في عسقلان مدة أربعة شهور ، غير أن قواته اندحرت لعدم ثباتها أمام الفرنج من جهة ، وإهمال قائده تنفيذ أوامره ، سار أسامة بعد ذلك إلى الجنوب غير أن ابن السلار أمره بالعودة إلى القاهرة ، وفي القاهرة كانت تنتظره أحداث جسام » .

« لقد كان بصحبة أسامة شاب اسمه عباس ، وهو في نفس الوقت ابن زوجة الوزير ابن السلار . وكان عباس متألمًا بسبب سفره إلى الشام لمحاربة الصليبيين ومغادرة مصر الجميلة ذات المناخ الجميل ، كذلك كان يضيق بعسب الحياة العسكرية . وفي بلبس أفضى عباس بمتاعبه إلى أسامة . ويقال إن أسامة أراد حينئذ أنه في إمكانه أن يتجنب هذا كله بقتل الوزير ابن السلار ، زوج أمه ، وعندئذ أرسل عباس ابنه المسمى «نصر» إلى القاهرة ، وقام باغتيال الوزير ابن السلار ، وعاد عباس إلى القاهرة وتقلد الوزارة بدلاً من ابن السلار .

« يقول ستانلى لين بول : إن مقتل ابن السلار بيد حفيد زوجته نصر ، وما تبعه من قتل الخليفة بنفس هذه الأئمة يعتبر من أخفى حوادث التاريخ في مصر » .

غير أن الخليفة لم يكتف بقتل ابن السلار ، بل راح يحرض « نصر » على قتل أبيه

عباس ، كان نصر والخليفة في نفس السن تقريبًا ، وكانا صديقين ، غير أن تدبير الخليفة انقلب عليه .

يقول الأمير أسامة بن منقذ :

« كانا يخرجان في الليل متنكرين وهما أتراب ، وسنهما واحدة فدعاه إلى داره ، وكانت في سوق السوفيين ، ورتب من أصحابه نفرًا في جانب الدار ، فلما استغربه المجلس خرجوا عليه فقتلوه ، وذلك ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وأربعمائة (١٥ إبريل ١١٥٤) ورماه في جب في داره ، وكان معه خادم له أسود لا يفارقه يقال له سعيد الدولة فقتلوه ، وأصبح عباس ، جاء إلى القصر كالعادة للسلام يوم الخميس ، فجلس في خزانة في مجلس الوزارة كأنه ينتظر جلوس الخليفة الظاهر للسلام ، فلما جاوز وقت جلوسه استدعى زمام القصر وقال :

« مالولانا ما جلس للسلام ؟ »

فتبلىد الزمام في الجواب ، فصاح عليه وقال :

« مالك لا تجاويني ؟ »

قال :

« يا مولاي ، مولانا ما ندرى أين هو ؟ »

قال :

« مثل مولانا يضيع ؟ ارجع فاكشف الحال . »

فمضى ورجع وقال :

« ما وجدنا مولانا . »

فقال عباس :

« ما بقى الناس دون خليفة ، أدخل إلى الوالى أخوته ، يخرج منهم واحد نبايعة . »

فمضى وعاد وقال :

« الوالى يقبولون لك ، نحن مالنا في الأمر شيء ، والده عزله عنا وجعله في الظافر

والأمر لولده ، بعده . »

قال :

« أخرجوه حتى نبايعة . »

وعباس قد قتل الظافر ، وعزم على أن يقول « أخوته قتلوه » ويقتلهم ، فخرج ولد

الظافر ، وهو صبي محمول على كتف أستاذ من أستاذى القصر ، فوجده عباس ، فحمله ، وبكى الناس ، ثم دخل به إلى مجلس أبيه وفيه أولاد الخافظ ، الأمير يوسف ، والأمير جبريل ، وابن أخيهم أبو البقي .

« أثار قتل الخليفة وأهله أهالى القاهرة ، فنشبت المعارك فى طرقات المدينة وأخذ النسوة والأطفال يرجعون اتباع الوزير بالحجارة من نوافذ دورهم ، ولم يلبث هؤلاء الأعوان أن اعتزلوه ولم يكن لعباس طاقة بمقاومة سلطة الأهالى وثورتهم ففر هو وابنه إلى الشام ، كان الأمير أسامة قريباً من عباس فتأهب لمغادرة مصر . »

يقول الأمير أسامة بن منقذ :

« فلما خرجنا من باب النصر وصلوا إلى الأبواب أغلقوها وعادوا إلى دورنا هبوها ، وأخذوا من قاعة دارى أربعين غرارة مخاطة فيها من الفضة والذهب والكسوات شيء كثير ، وأخذوا من اصطبلى ستة وثلاثين حصاناً وبغلة مسروجية بمروجها بسروجها وعدتها كمامات ، خمسة وعشرين جملاً ، وأخذوا من إقطاعى مائتى رأس بقر ، ولما سرنا عن باب النصر اتجهت قبائل العرب الذين استحلقتهم عباس وقتلونا من يوم الجمعة وضحى نار إلى يوم الخميس العشرين من ربيع الأول ، فكانوا يقاتلوننا النهار كله . فإذا جنَّ الليل وأغفلونا إلى أن ننام ، ثم يركبون فى مائة فارس ، ويدفعون فيهم فى بعض جوانبنا ويرفعون أصواتهم بالصياح ، فما نفر من خيلنا وخرج إليهم أخذوه . . »

وانقطعت يوماً عن أصحابى وتحتى حصان أبيض ، هو أردى خيلى ، شده الركابى ولا يدرى ما جرى ، وما معى من السلاح غير سيفى ، فحمل على العرب فلم أجد ما أدفعهم به ، ولا ينجينى منهم حصانى ، وقد وصلتني رماحهم ، قلت : « أثب عن حصانى وأجذب سيفى ، أدفعهم » . فجمعت نفسى لأثب ، ففتتح الحصان ، فوقعت على حجارة وأرض خشنة ، فانقطعت جلدة من جلدة رأسى ودخت حتى ما بقيت أدرى بها أنا فيه . فوقف على منهم قوم ، وأنا جالس مكشوف الرأس ، غائب الدهن ، وسيفى مرمى بجهازه ، فضربنى واحد منهم ضربتين بالسيف وقال : « هات الوزن » ، وأنا لا أدرى ما يقول ، ثم أخذوا حصانى وسيفى ، ورأى الأتراك فعادوا إلى ، ونفذ لى ناصر الدين بن عباس حصانا وسيفاً وسرت وأنا لا أقدر على عصاة أشد بها جراحى ، فسبحان من لا يزول ملكه .

وسرنا وما مع أحد منا كفف زاد ، وإذا أردت أشرب ماء ترجلت شربت بيدي ، وقبل أن أخرج بليلة جلست فى بعض دهاليز دارى على كرسي وعرضوا على ستة عشر جملاً .

. . ويستمر الأمير أسامة في طريقه إلى دمشق ، يلقي مصاعب جمة ، وفي دمشق يتصل مرة أخرى بخدمة الملك العادل نور الدين ، غير أن أسرته كانت ما تزال بالقاهرة ، وأرسل الملك العادل إلى الوزير الفاطمي الصالح طلائع بن رزيق يطلب منه السماح بسفر أسرة الأمير أسامة ، فرد الصالح قائلاً إنه يخاف عليهم من الفرنج ، وفكر الأمير أسامة في العودة إلى مصر .

يقول الأمير أسامة بن منقذ :

« ففاوضت الملك العادل ، واستطلعت أمره فقال :

يا فلان ، ما صدقت متى تخلص مصر وفتتها ، تعود إليها ، العمر أقصر من ذلك ، أنا أنفذ أخذ لأهلك الأمان من ملك الفرنج وأسير من يحضرهم » .

فأعاد ، رحمه الله ، أخذ أمان الملك وصلبيه في البر والبحر ، وسيرت الأمان مع غلام لي وكتاب الملك العادل وكتابي إلى الملك الصالح ، فسيرهم إلى دمياط ، وحمل لهم كل ما يحتاجونه من النفقات والزاد ، ووصى بهم ، وأقلعوا من دمياط في مركب من سراكب الإفرنج ، فلما دنوا من عكا والملك نفذ رحمه الله ، فيها نقل قومًا في مركب صغيرة ، كسروا المركب بالفؤوس ، وأصحابي يرونهم ، وركب ، ووقف على الساحل نهب كل ما فيه ، فخرج إليه غلام لي سباحة ، والأمان معه ، وقال له : « يا مولاي الملك ما هذا أمانك؟ » قال : « بلى . . ولكن هذا رسم المسلمين : إذا انكسر لهم مركب على بلد نهب أهل ذلك البلد ، » قال : « فتسبينا؟ » قال : « لا » وأنزهم لعنة الله في دار وفتش النساء حتى أخذ كل ما معهن ، وقد كان في المركب حلى أودعه النساء وكسوات وجوهر ، وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو من ثلاثين ألف دينار ، فأخذ الجميع وترك لهم خمسمائة دينار ، وقال : « توصلوا بهذه إلى بلادكم » .

« لا يكتب الأمير أسامة ما يشير إلى تحسره على سرقة ماله ، ومتاعه ، غير أن حديثه عن كتبه يختلف » .

يقول الأمير أسامة :

« . . وكنت إذ ذاك مع الملك العادل في بلاد الملك مسعود (قونية) فهون على سلامة أولادي ، وأولاد أخي ، وحرمتنا ذهاب ما ذهب من المال ، إلا ما ذهب لي من الكتب . فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت . فهذه نكبات تزعزع الجبال وتفنى الأموال . والله سبحانه يعرض برحمته ويختم بلطفه

ومغفرته . وتلك وقعات كبار شاهدتها مضافة إلى نكبات نكبتها سلمت فيها النفس لتوقيت الأجال . وأجحفت بهلاك المال .

. . يتوقف الأمير أسامة بن منقذ عن سرد الحوادث التاريخية التي عاشها ، ثم ينتقل إلى نوع من التذكير ، استرجاع التفاصيل الدقيقة التي لم تغيب عن ذهنه وقد بلغ التسعين من العمر . .

. . ترى في أى موضع من حصنى كيف المطل على نهر دجلة كان يجلس الأمير أسامة ابن منقذ ، يحمق في مياه النهر ، أمواجه المتتابعة كسنوات عمره التسعين ، لابد أنه كان يستدعى أيامه البعيدة ، ما مر به من أحداث ، ومن مخاطر يستعيد ملامح من عرفهم في البلاط الفاطمي ، في دمشق ، ملامح صلاح الدين الأيوبي ، كان يطل على ذلك الماضي الطويل العريض ، ثم يغمس ريشته في المداد ، وفي هدوء الليل ، أو صمت النهار يستعيد ، ويدون . . يدون . .

يقول الأمير أسامة بن منقذ وهو يحدثنا عن أول مرة خاض فيها القتال :

. . ومثل ذلك ما جرى لي على أفامية (بلدة في الشام) ، فإن نجم الدين بن اليارزى ابن أرتق ، رحمه الله ، كسر الإفرنج على البلاط ، وذلك يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسةائة ، وأفتاهم وقتل صاحب الكاكيك روجار وجميع فرسانه ، فسار إليه عمر عز الدين أبو العساكر سلطان ، رحمه الله ، وتخلف والدي ، رحمه الله في حصن شيزر ، وقد وصاه أن يسيرني إلى أفاميه بمن معي بشيزر من الناس ويستنفر الناس والعرب لتهدب زرع أفامية ، وكان قد هدف من العرب إلينا خلق كثير ، فلما سار عمى نادى المنادى بعد « يوميات » من مسيره ، وسرت في نفر قليل ما يلحق عشرين فارسًا ، ونحن على يقين أن أفامية ما فيها خيالة ، ومعى غلام عظيم من النهاية والبادية فلما صرنا على وادي « أبو » الميمون ، والنهاية والعرب متفرقون في الزرع ، خرج علينا من الإفرنج جمع كثير ، وكان قد وصلها تلك الليلة ستون فارسًا وستون راجلاً ، فكشفونا عن الوادي ، فاندفعنا بين أيديهم إلى أن وصلنا الناس الذين في الزرع يتبهونه ، فضجوا ضجة عظيمة ، فهان على الموت هلاك ذلك العالم معي ، فرجعت على فارس في أولهم قد ألقى عنه درعه وتخفف ليجوزنا من بين أيدينا ، فطعته في صدره فطار عن سرجه ميتا ، ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا وأنا غر من القتال ما حضرت قتالاً قبل ذلك اليوم ، وتحتى فرس مثل الطير ، ألحق أعقابهم لأطعن فيهم ثم أجتن عنهم ، وفي آخرهم فارس على حصان أدهم مثل الجمل بالدرع ولأمة الحرب ، أنا خائف منه لا يكون جاذبًا لي ليعود على ، حتى رأيته

خرب حصانه بمهمازه فلوح بذنبه فعلمت أنه قد أعيأ . فحملت عليه طعته فنفذ الرمح من قدامه نحواً من ذراع ، وخرجت من السرج لخرة جسمى وقوة الطعنة وسرعة الفرس ، ثم تراجعت وجذبت رعى وأنا أظن أنى قتلته ، فجمعت أصحابى وهم سالمون ، وكان معى مملوك صغير يجير فرساً لى وهماء بجنوبة وتحتة بغلة مليحة سروجية وعليها مركوب ثقيل فضة ، فنزل عن البغلة وسيبها وركب الحجره فطارت به إلى شيزر ، فلما عدت إلى أصحابى وقد مسكوا البغلة سألت عن الغلام « راح » فعلمت أنه يصل شيزر ويشغل قلب الوالد - رحمه الله - فدعوت رجلاً من الجنند وقلت : « تسرع إلى شيزر تعرف والدى بها جرى » .

وكان الغلام لما وصل أحضره الوالد بين يديه وقال :

« أى شىء لقيتم ؟ قال : يامولاي . . خرج علينا الإفرنج فى ألف : وما أظن أحدًا يسلم إلا مولاي . . » قال : « كيف يسلم مولاك دون الناس ؟ » قال : « رأيتة قد لبس وركب الخضراء . . » .

هو يحدثه وذلك الفارس قد وصله وأخبره باليقين ووصلت بعده فاستخبرنى رحمه الله ، فقلت :

« يا مولاي ، كان أول قتال حضرته ، فلما رأيت الإفرنج قد وصلوا إلى الناس هان على الموت ، فرجعت إلى الإفرنج لأقتل أو أحمى ذلك العالم . . » .

* * *

« ثم ينصح الأمير أسامة من وصل إلى الطعن أن يشد ذراعه ويده على الرمح ، ويدع الفرس يعمل ما عمله فى الطعنة ، فإنه متى حرك يده بالرمح ومدها به لم يكن لطحته تأثير . ويتذكر مواقف مرت به أثناء القتال » .

يقول الأمير أسامة :

. . شاهدت رجلاً من رجالنا يقال له ندى بن تليل القسىرى ، وكان من شجعاننا ، وقد التقينا نحن والأفرنج وهو تعرى ، ما عليه غير ثوبين قطعنه فارس من الإفرنج فى صدره فقطع هذه العصفورة التى فى الصدر ، وخرج الرمح من جانبه ، فرجع وما نظنه يصل منزله حيًا ، فقدر الله سبحانه أن سلم وبرا جرحه ، لكنه لبث سنة إذ نام على ظهره لا يقدر إن يجلس أن لم يجلسه إنسان بأكتافه ، ثم زال عنه ما كان يشكوه وعاد إلى تصرفه وركوبه كما كان .

قلت : فسبحان من نفذت مشيئته في خلقه يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

. . غير أن أسامة إذ يفرغ من تذكره لهذا الرجل الذي عاش بعد أن قطع قلبه بالسيف ، يذكر آخرًا مات بسبب إبرة .

« كان عندنا رجل من المصطنعة ، يقال له عتاب ، أجسم ما يكون من الرجال وأطولهم ، دخل بيته فاعتمد على يده عند جلوسه على ثوب بين يديه ، كانت فيه إبرة ، دخلت في راحته فمات منها ، وبالله كان يثنى في المدينة ، فيسمع أنينه من الحصن لعظم خلقه وجهازة صوته . . يموت من إبرة وهذا القشيري يدخل في صدره قنطارية (رمح) تخرج من جنبه لا يصيبه شيء ؟! »

* * *

يتذكر الأمير أسامة فارسًا إفرنجيًا هزم أربعة من المسلمين :

« . . وكان بافامية فارس من كبار فرسانهم يقال له بدرهوا فكان أبدا يقول :

« ترى ما التقى جمعة في القتال » .

وجمعة يقول :

« ترى ما التقى بدرهوا في القتال » ؟

فنزل علينا عسكر انطاكية وضرب خيامه في الموضع الذي كان ينزله وبيننا وبينهم الماء ، ولنا موكب واقف على شرف مقابلهم ، فركب فارس من الخيام وسار حتى وقف تحت موكبنا ، والماء بينه وبينهم وصاح بهم :

« فيكم جمعة ؟ »

قالوا :

« لا . . . »

وكان ذلك الفارس « بدرهوا » ، فالتفت فرأى أربعة فوارس منا من ناحيته ، فحمل عليهم فهزمهم ، ولحق واحدًا منهم طعنه طعنة فشله ما أحقه حصانه ليتمكن الطعن ، وعاد إلى الخيام .

ودخل أولئك الثغر إلى البلد فافتضحوا واستخفهم الناس ولاموهم وأزروا بهم وقالوا :

أربعة فوارس يهزمهم فارس واحد ا كتتم افترقتم له فكان طعن واحدًا منكم ، وكان الثلاثة قتلوه ولا قد افتضحتم ، وكان أشد الناس عليهم جمعة النميرى ، فكان تلك الهزيمة منحتم قلوبًا غير قلوبهم وشجاعة ما كانوا يطمعون فيها ، فانتحوا وقاتلوا واشتهروا في الحرب وصاروا من الفرسان المعدودين بعد تلك الهزيمة .

أما « بدرهوا » فإنه سار بعد ذلك من اقامية في بعض شغله يريد انطاكية ، فخرج عليه الأسد في طريقه ، فخطفه عن بخلته ودخل به إلى الغاب أكله .. لا رحمه الله .

« كثيرة تلك التفاصيل التي يتذكرها الأمير في آخر حياته ، إن ذاكرته تعج بأصوات صليل السيوف ، وركض الخيول لا ينسى قط أنه طعن فارسًا من رجاله على سبيل الخطأ وأن طعنة واحدة من فارس مسلم أودت بحياة فارسين من الإفرنج في وقت واحد ، لا ينسى هذه اللحظة التي جرح فيها عمه في جفن عينه ، وكيف أن الجفن سقط وبقى معلقًا بجلدته من مؤخرة العين ، والعين تلعب لا تستقر ، حتى جاء الطبيب وأدواها فعادت كحالها الأولى ، لا تعرف العين المطعونة من الأخرى ، يتذكر قتاله مع الفارس الشجاع جمعة ، وكيف أنها هزما ثمانية فرسان من الإفرنج ، ولا يلبث أن يتذكر كيف هاجمها شاب صغير منهم واضطرهما إلى الفرار ، طويل ذلك العمر الذي عاشه الأمير ، وخلال حروبه مرت به مواقف كثيرة كان يمكن أن يقتل خلالها ، ومن هنا نجد ثنا عن عجائب السلامة » ا

يقول الأمير أسامة :

« . . . ومن عجائب السلامة إذا جرى بها القدر وسبقت المشيئة أن الأمير فخر الدين قرا ارسلان بن سقمان بن ارتق ، رحمه الله ، عمل على مدينته أحد عدة مرار ، وأنا في خدمته ، ولا يبلغ عنها مقصوده ، وكان آخر ما عمل عليها أن أميرًا من الأكراد كان مديونًا بأمد راسله ومعه جماعة من أصحابه وقدر الأمر أن يصله العساكر في ليلة تواعدوا إليها ويطلعهم بالحبال ويملك فخر الدين في ذلك المهم على خادم له إفرنجي يقال له ياروق ، والعسكر كله يمقته ويكرهه لسوء أخلاقه ، فركب في بعض العسكر وتقدم ، وركب باقي الأمراء فتبعوه . وتوانى هو في السير فسبقه الأمراء إلى أمد ، فأشرف عليهم ذلك الأمير الكردي وأصحابه من برج ودلوا إليهم الحبال وقالوا : « اطلعوا » ، فما طلع منهم أحد ، فنزلوا كسروا أقال المدينة وقالوا : « ادخلوا » فما دخلوا ، كل ذلك لاعتقاد فخر الدين على صبي جاهل في هذا المهم العظيم دون الأمراء الكبار ، وعلم بذلك الأمير كمال الدين على بن نيسان والبلاية والجند ففرغوا إليهم ، فقتلوا بعضهم ورمى بعضهم نفسه وقبضوا

بعضهم ، ومد بعض الديرين رموا نفوسهم وهو نازل في الهواء يده كأنه يريد شيئاً يتمسك به ، فوق في يده جبل من تلك الجبال التي دلوها أول الليل وما طلوعوا فيها فتعلق به فنجا دون أصحابه . إلا أن كفيه انسخلتا من الجبل ، وأنا حاضر ، وأصبح صاحب أمد يتبع الديرين عملوا عليه فقتلوهم ، وسلم ذلك من دونهم ، فسبحان من إذا قدر السلامة أنقذ الإنسان من هاة الأسد ، فذلك حق لا مثل .

كان في حصن الجسر رجل من أصحابنا من بنى كنانة يعرف بابن الأحمر ، ركب فرسه من حصن الجسر يريد كفر طاب لشغل له فاجتازوا بكفر نبوذا ، وقافلة عابرة على الطريق ، فرأوا الأسد ومع ابن الأحمر جرية تلمع ، فصاح إليه أهل القافلة : « يا صاحب الخشب البراق ا دونك الأسد » ، فحمله الحياء من صياحهم أن حمل على الأسد فماصت به الفرس ، فوق ، وجاء ، فخبرك عليه ، وكان لما يريد الله من سلامته ، الأسد شعبان ، فالتقم وجهه وجهته ، فجرح وجهه وصار يلحس الدم وهو بارك عليه لا يؤذيه ، قال : « ففتحت عيني فأبصرت هاة الأسد ، ثم جذبت نفسي من تحته ، ورفعت فخذه عنى ، وخرجت تعلقت بشجرة بالقرب منه ، وصعدت فيها ، فرأى وجاء خلفى ، فسبقته وطلعت في الشجرة ، فنام الأسد تحت الشجرة وصلاتى من شىء عظيم على تلك الجراح (والدر يطلب جريح الأسد كما يطلب الفأر جريح النمر) قال : فرأيت الأسد قد قعد وأنصب أذنيه كأنه يتسمع ، ثم قام يهرول ، فإذا قافلة قد أقبلت على الطريق ، كأنه سمع حسها » فعرفوه وحملوه إلى بيته ، وكان أثر أنياب السبع في جبهته وخديه كوسم النار ، فسبحان المسلم .

« . . لا ينسى الأمير أسامة أن يبدى رأيه في العدو ، لقد خبر الفرنج سنوات طويلة ، وقتلهم وقتل منهم ، وبارز فرسانهم فكيف وآهم بعد هذا العمر كله ؟ »
يقول الأمير أسامة :

« . . والإفرنج خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم تقدم ولا منزلة عالية إلا للفرسان ، ولا عندهم ناس إلا الفرسان فهم أصحاب الرأى وأصحاب القضاء والحكم ، وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بيناس من الشعراء ، وبيته بينهم صلح ، وأنا إذ ذاك بدمشق ، فقلت للملك فلان بن فلان . « هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا » فقال الملك لستة سبعة من الفرسان : « قوموا اعملوا له حكماً » ، فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شىء واحد وعادوا إلى مجلس الملك ، فقالوا : « قد حكمنا أن صاحب بيناس عليه غرامة ما

أتلّف من غنمهم ، فأمره الملك بالفرامة فتوسل إلى وثقل على وسألني حتى أخذت منه أربعائة دينار وهذا يفيد ولا ينقصه ، فالفراس أمر عظيم عندهم .

يحدثنا الأمير عن تصرفات حمقى من بعضهم ، وعن طبهم ولكنه يشيد بالطب العربي في مواجهة طب الإفرنج ويستمر في ذكر عاداتهم وأخلاقهم كما خبرها وعرفها .
يقول الأمير أسامة :

« . . فظل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين ، فمن جفء أخلاقهم ، قبحهم الله ، أنسى كنت إذا زرت البيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة ، فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى ، وفيه الداوية (فرسان من الفرنج) ، وهم أصدقائي ، يخلون لي ذلك المسجد الصغير أصلى فيه ، فدخلته يوماً فكبرت ووقفت في الصلاة ، فهجم على واحد من الإفرنج مسكنى ورد وجهي إلى الشرق ، وقال : « كذا صل » فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه ، أخرجوه عنى وعدت إلى الصلاة ، فافتلهم وعاد هجم على ذلك بعينه ، ورد وجهي إلى الشرق ، وقال : « كذا صل » ، فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه واعتدروا لي ، وقالوا « هذا غريب وصل من بلاد الأفرنج في هذه الأيام ، وما رأى من يصل إلى غير الشرق » فقلت « حسبي من الصلاة ا » فخرجت فكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغيير وجهه ووعده وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة .

« . . وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته ، يلقيه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طوّلت عليه خلأها مع المتحدث ومضى .

ومما شاهدت من ذلك أنى كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل في دار رجل يقال له معز داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح إلى الطريق ، ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار يأخذ في قنينه من النبيذ وينادى عليه ، ويقول « فلان التاجر قد فتح بنية (قارورة) من هذا الخمر من أراد منها شيئاً فهو في موضع كذا وكذا » وأجرته عن ندائه النبيذ الذي في القنينة فجاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش فقال له : « أى شيء أدخلك إلى عند امرأتى ؟ » قال : « وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه . » قال : « والمرأة نائمة معك ؟ » قال : « الفراش لها كنت أقدر أمنعها من فراشها ؟ » قال : « وحق ديني إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت . »

فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته ا

« لا يتوقف سيل الذكريات وتتابعها ، ولكن أرقها بلا شك تلك المتعلقة بوالده ، بأعمامه ، بما يدور حول المرأة العربية » .

السؤال

. . يقول أسامة بن منقذ عندما يحدثنا عن والده :

كان الوالد رحمه الله ، كثير المباشرة للحرب ، وفي بدنه جراح هائلة ، ومات على فراشه .

هكذا في بساطة وعمق يلخص أسامة سيرة والده الذي ترك فيه أثرًا عميقًا ، لقد تولى والده إمارة الدولة المنقذية بشيزر في سوريا بعد وفاة شقيقه الأكبر « أبو » المرهف ، غير أن شغفه بالصيد ، ونسخ القرآن الكريم جعله يتنازل عن السيادة والإمارة لأخيه الأصغر عز الدين أبي العساكر ، وكان يردد :

« والله لأوليئها ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها » .

وما دونه أسامة عن والده يؤكد صورة هذا الرجل الصالح الذي يفيض بالتقوى يقول :
« وذلك أن والدي رحمه الله ، كان قد فرغ زمانه لتلاوة القرآن ، والصيام ، والصيد في نهاره ، وفي الليل ينسخ كتاب الله تعالى ، فكان قد نسخ ستًا وأربعين ختمة بخطه رحمه الله ، منها ختمتان بالذهب جميع القرآن ، ويركب إلى الصيد يومًا ويستريح يومًا ، وهو صائم الدهر . . » .

ويقول في موضع آخر مشيرًا إلى علم والده بالنجوم :

« وكان رحمه الله له اليد الطولى في النجوم مع ورعه ودينه وصومه الدهر وتلاوة القرآن ، وكان يحرضني على معرفة علم النجوم فأبى وأمتنع فيقول : « فاعرف أسماء النجوم ، ما يطلع منها ويغرب » ، فكان يريني النجوم ويعرفني أسماءها .

وبرغم زهد والده ، وتفرضه للعبادة ، إلا أنه كان صيادًا ماهرًا ومقاتلًا متمرسًا يقول أسامة عنه :

« والله ما رأيت الوالد ، رحمه الله ، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر ، مع ما كان يرى في وأرى من إشفاقه وإيثاره لي » .

لم يكن والده - كما نرى من خلال صورته التي تركها لنا في الكتاب - له شغل سوى

الحرب وجهاد الإفرنج ونسخ كتاب الله ، ومن العبارات ذات الدلالة قوله لابنه : « يا ولدى في طالعي أننى لا أرتاع » ، ومن الحوادث التى يرويها أسامة ويرد فيها ذكر الوالد ، ووقائع الصيد ما يرويها عن فهدة كان يمتلكها والده :

« وكان للوالد رحمه الله فهدة فى الفهود مثل اليحشور فى البزاة ، اصطادوها وهى وحشية من أكبر ما يكون من الفهود ، فأخذها الفهاد وقرمها واستجابها ، وكانت تركب ولا تريد الصيد ، وكانت تصرع كما يصرع المصاب بعقله وتزيد ، ويقدم إليها الخشف فلا تطلبه ولا تريده ، حتى إذا شمته عضته ، وبقيت كذلك مدة طويلة نحواً من سنة ، فخرجنا يوماً إلى الأزوار ، فدخلت الخيل إلى الزور وأنا واقف فى فم الزور ، وألفها وبهذه الفهدة قريب منى ، فقام من الزور غزال وخرج إلى ، فدفعت حصاناً كان من تحتى من أجود الخيل أريد أن يرد إلى الفهدة ، وعاجله الحصان بصدره ، رماه ، فوثبت الفهدة صادمة ، فكأنها كانت نائمة انتبهت وقالت : « خذوا من الصيد ما أردتم » ، فكانت معها قام لها من الغزلان أخذته ، ولا يستطيع الفهاد ضبطها فتجذبه ترميه .

وكانت هذه الفهدة دون باقى الفهود فى دار الوالد رحمه الله وله جارية تخدمها ، ولها فى جانب الدار قطيفة مطوية تحتها حشيش يابس ، وفى الحائط سكة مضروبة يجرى الفهاد بها من الصيد إلى باب الدار ، وتدخل إلى الدار ، إلى ذلك المكان المفروش لها فتنام فيه ، وتجرى الجارية تربطها إلى السكة المضروبة فى الحائط ، وفى الدار ، والله ، نحو من عشرين غزالاً آدمياً وأبيض فحول ومعزى وخشوف قد توالدت فى الدار فلا تطلبهم ولا تروعهن ولا تزول عن موضعها ، وتدخل إلى الدار وهى مسيئة فلا تلتفت إلى الغزلان .

يفرد أسامة الجزء الأخير من كتابه للحديث عن ذكريات الصيد الذى كان يمارسه الوالد ، خروجه إلى البرية ، الطيور ، الحيوانات التى كان يصطادها ، يرسم لنا لوحة متكاملة لأحد جوانب الحياة فى هذه العصور النائية ، ويبرز أيضاً أحد ملامح الحياة العربية ، يقول أسامة عن والده :

« وكان ، رحمه الله ، مع ثقل جسمه وكبر سنه ، وأنه لا يزال صائماً يركض نهاره كله ، وكان لا يتصيد إلا على حصان أو أكدميش كواد ، ونحن معه أربعة أولاد ، نتعب ونكل وهو لا يضعف ولا يكل ولا يتعب » .

يبدو أسامة خبيراً بالصيد ، صيد الطيور ، وصيد الحيوان ، عالماً بوسائله ، وطرقه وأساليبه ، والفرق بين الحيوانات المتوحشة وطبائعها وخصالها ، يسردها من خلال الوقائع

التي عايشها ومن خلال التجربة المباشرة وبأسلوب الرواية الذي يكسب النص فرادته في التراث العربي المكتوب .

* * *

كانت والدته قوية الشخصية ، ويبدو ذلك من خلال حادثة أوردها أسامة ، إذ حدث أن هاجم الإسماعيلية شيزر ، وكان الجنود خارجها ، عندئذ قامت أم أسامة ووزعت السلاح ، وألبست ابنتها الخف والأزار وأجلستها فوق مرتفع مشرف على الوادي حتى إذا ما انتهى الأعداء إليها تدفعا وترميا إلى الوادي ، تقتلها بيدها . وراها ميتة . ولكن أبداً . لن تراها أسيرة منتهكة ، على امتداد ذكريات الأمير أسامة نلمح ، بل ويلفت نظرنا احترامه للمرأة ، يذكر العديد من أعمال البطولة التي قمن بها . وكان ينادى خادمته العجوز « يا أمي » ، ومن مؤلفاته التي وضعها كتاب أفرده لأخبار النساء .

* * *

في آخر حياته ، بعد أن بلغ من الكبر عتياً وأتم التسعين ، يدون تأملاته التي يبدو فيها رؤية آخر المرحلة ، ونهاية الشوط :

« لم أدر أن داء الكبر عام ، يعدى كل من أخفله الحمام ، فلما توقلت ذروة التسعين ، وأبلتني مر الأيام والسنين ، صرت كجواد العلاف ، لا الجواد المتلاف ، ولصقت من الضعف بالأرض ، ودخل من الكبر بعض في بعض ، حتى أنكرت نفسي ، وتحسرت على أمسى .

ثم يقول :

« فلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر ، ولا يؤخره شدة الخذر ، ففى بقائع أوضح معتبر ، فكسم لقيت من الأهوال ، وتقحمت المخاوف والأخطار ، ولاقيت الفرسان ، وقتلت الأسود ، وضربت بالسيوف ، وطعنت بالرماح ، وجرحت بالسهام ، والجروح ، وأنا من الأجل في حصن حصين ، إلى أن بلغت تمام التسعين ، فرأيت الصحة والبقاء ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « كفى بالصحة داء » ، فأعقبت النجاة من تلك الأهوال ، ما هو أصعب من القتل والقتال ، وكان الهلاك في كنه الجيش ، أسهل من تكاليف العيش ، استرجعت منى الأيام بطول الحياة سائر محبوب اللذات ، وشاب كدر النكد صفو العيش الرغد » .

ثم ينشد :

تناسنتى الأجال حتى كأننى
ولما تدع منى الثمانون منة
أؤدى صلاتى قاعدًا وسجودها
وقد أنذرتنى حطة الحال أننى
دريئة سفر بالفلاة حسير
كأنى إذا رمت القيام كسير
علت إذا رمت السجود عسير
دنت رحلة منى وحان مسير

هذا هو الأمير أسامة بن منقذ ، الفارس ، والشاعر ، والأديب ، هذا هو يلخص لنا تجربة عمره الطويل ، والتي من أجلها سمي كتابه « الاعتبار » ، أقدم ترجمة ذاتية في التراث العربى طبقًا لما وصل إلينا ، أسامة بن منقذ ساهم المؤرخ الذهبى بأحد أبطال الإسلام ، أما ابن الأثير فوصفه بأنه « كان من الشجاعة فى الغاية التى لا مزيد عليها . . . » .

كتاب العصا

هذا نص أدبي نادر ، غير شائع ، وغير معروف حتى لبعض المهتمين بالتراث العربي ، والمخطوطات القديمة ، المؤلف هو الأمير أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكلبي الشيرزي . وقد عرضنا له .

ونتوقف الآن عند كتابه (العصا) . وهذا العنوان ليس من ابتداعه إذ يذكر لنا في المقدمة الباعث له على تأليف الكتاب ، يقول الأمير أسامة : . . . وبعد فإن النفس ترتاح لما سمعت . وتلج في الطلب إذا مُنعت . وكان الوالد السعيد مجد الدين أبو سلامة مرشد ابن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ رضي الله عنه ، حدثني أنه لما توجه لخدمة السلطان ملكشاه رحمه الله وهو إذ ذاك بأصفهان ، قصد القاضي الإمام الصدر العالم أبسط يوسف القزويني رحمه الله ، عائداً ومسلماً بمعرفة قديمة بينها ، ويد كانت عنده للجدّ سديد الملك ذي المناقب أبي الحسن علي بن مقلد رحمه الله . وذلك أن القاضي المذكور سافر إلى مصر في أيام الحاكم صاحب مصر ، فأحسن إليه وأكرمه ، ووصله بصلات سنية فاستغفى منها ، وسأله أن يجعل صلته كتباً يقترحها من خزانة الكتب فأجابته إلى ذلك ، فدخل الخزانة واختار منها ما أرادته من الكتب ، ثم ركب في مركب وتلك الكتب معه ، يريد بلاد الإسلام التي في الساحل ، فتغير عليه الهواء فرمى بالمركب إلى مدينة اللاذقية فخاف على نفسه وعلى ما معه من الكتب ، فكتب إلى جدي سديد الملك رحمه الله تعالى كتاباً يقول فيه :

« قد حصلت بمدينة اللاذقية بين الروم . ومعى كتب الإسلام . وقد وقعت لك رخيصة ، فهل أجذك حريصة . . . » .

فسير إليه من يومه ولده عمي عز الدولة أبا المرهف نصرًا رحمه الله ، وسبر معه خيلاً كثيراً من غلمانة وجنده ، وظهرًا لركوبه وحمل أثقاله ، فأتاه وحمله وما معه فأقام عند جدي

رحمه الله مدة طويلة وكانت له بالوالد رحمه الله عناية « وإلف . فلما اجتاز ببغداد قصده ليجدد به عهدًا . . . » .

ويذكر والد الأمير أسامة أنه رأى كتاب العصا عند هذا الشيخ وهنا يقول الأمير :

« ولى منذ سمعت هذا نحوًا من ستين سنة اتطلب كتاب العصا بالشام ومصر والعراق والحجاز والجزيرة وديار بكر ، فلا أجد من يعرفه . وكلما تعذر وجوده ازددت حرصًا على طلبه . لى أن حداني اليأس منه على أن جمعت هذا الكتاب وترجمته بكتاب العصا ، ولا أدري أكان ذلك الكتاب على هذا الوضع أم على وضع غيره . . . » .

هكذا يخبرنا الأمير أسامة أنه عندما أدركه اليأس من الحصول على كتاب العصا ، أقدم هو على تأليف كتاب حول الموضوع نفسه ويقول المرحوم الأستاذ عبد السلام هارون إنه يعتقد أن الكتاب الذى أمضى الأمير أسامة عمرًا يبحث عنه ، ماهو إلا كتاب « العصا » للجاحظ . وهو من مشتملات كتاب البيان والتبيين . وأن الأمير أسامة التبس عليه الأمر فظن ذلك الكتاب الذى دار حوله الحديث كتابًا مستقلًا لمؤلف آخر غير الجاحظ .

والأستاذ عبد السلام هارون هو الذى نشر كتاب (العصا) للأمير أسامة ضمن مجموعة « نواذر المخطوطات » التى حققها وصدرت فى القاهرة .

العصا

بعد المقدمة يذكر لنا المؤلف لماذا سميت العصا ؟

قال أبو بكر محمد بن دريد رحمه الله : إنها سميت العصا عصا لصلابتها . مأخوذ من قولهم ، عَصَى الشيء وعصا وعسا إذا صلب . واعتصت النواة . إذا اشتدت . فأنا العصا مثل يضرب للجماعة . يقال شق فلان عصا المسلمين والجماعة . وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم « اياك وقتيل العصا » . يريد المفارق للجماعة فيقتل . وألقى الرجل عصاه ، إذا أطمأن مكانه . ويقال عصا وعصوان والجمع العَصِي .

ويقال عصوت الجرح . إذا دوايته .

والعصيان ، فلان الطاعة .

وينقل الأمير أسامة عن كتاب الأوائى لأبى هلال العسكري ما نصه قال أبو هلال العسكري ، أول من خطب على العصا وعلى الرأحلة قس بن ساعدة الإيادى ، فما ورد عنه من خطبه قوله :

« أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو أت
أت ، ليل داج ، وساء ذات أبراج ، ونجوم تزهـر ، وبحار تزخر ، وجبال مرسة وأرض
مدحاة . وأنهارًا مجرة . ما بال الناس يذهبون فلا يرجعون . أرضوا فأقساموا . أم تُركوا
فناموا ، يقسم قس بالله قسًا لا أثم فيه : أن الله ديننا هو أرضى وأفضل من دينكم . الذي
أنتم عليه ، أنكم لتأتون من الأمر منكرًا ، ثم انشأ يقول :

فى الذا هيبن الأولـ	ين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردًا	للقوم ليس لها مصادر
ورأيت قسومى نحوها	يمضى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى إلـ	ولا من الباقيـن ضابر
أيقنت أنى لا محالة	حيث صار القوم صائر

ثم يقول أسامة :

تقول العرب : فلان ممن قرعت له العصا إذا كان يرجع إلى الصواب وتقول : فلان
صلب العصا . إذا كان ذا نجدة وحزامة وتقول إذا تفرقت الخلطاء واختلفت آراء العشيرة
ومرج الأمر : انشقت العصا ، وتقول للمسافر إذا آب واستقرت به داره : ألقى عصا
السيار .

قرع العصا

الفصل الثانى بعنوان « قرع العصا » . ييدؤه بحديث شريف للرسول عليه الصلاة
والسلام :

« ما قرعت عصا على عصا إلا فرح لها قوم وحزن آخرون » . ويذكر قصة عامر بن
الظرب العدوانى . وكان حكمًا للعرب ، يُرجع إلى حكمه ورأيه . فكبر وأفناه الكبر والدهر
وتغيرت أحواله ، فأنكر عليه الثانى من ولده أمرًا من حكمه فقال له : إنك ربما أخطأت
فى الحكم ويحمل عنك ، فقال : اجعلوا لى أمانة أعرفها ، فإذا أخطأت وقرعت لى العصا
رجعت إلى الحكم ، فكان يجلس أمام بيته يحكم ويجلس ابنه فى البيت ومعه العصا ، فإذا
زلَّ وهفا ، قرع له الجفنة بالعصا .

ثم يذكر الأمير أسامة بعضا من أقوال العرب ، فالقول بأن فلانا (صلب العصا) ، إذا
كان جلدًا قويًا على السفر والسير .

وفى القرآن الكريم « إذا ضربتم فى الأرض » أى سافرتهم ، وضرب بالعصا أى شرع فى
السير .

ويقال . فلان يشق العصا . إذا كان لا يدخل تحت حكم ولا طاعة مخالفاً لأمر الآخرين . ويستعمل شق العصا فيمن يتفرق عنه أحبابه ويرحل عنه أصحابه ، فيظهر مكنون سره ، ويبيح مخفى أمره ، لضرورة البين الداعية إلى ذلك .
 ويقال (ألقى العصا) أى ألقى عصا التسيار . إذا أقام وترك السفر ، أو وصل الإنسان إلى مراده ، وراحته ، ومظنة استراحته وعن الجاحظ يقول الأمير أسامة :
 « الدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم ، ومعدن شريف ، اتخاذ سليمان ابن داود عليه السلام العصا لخطبته وموعظته ومقاماته وطول صلواته وتلاوته وانتصابه . فجعلها لتلك الخصال جامعة و « المحججة » أى العصا المعوجة . وفى الحديث المرفوع أنه صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت يستلم الأركان بمحججه .
 والعرب تقول « لو كان فى العصا سير ، للمقل والضعيف » .
 وتقول أيضا : قد أقبل فلان ولا نت عصاه ، إذا أصابه الشؤف - وهو ذهاب المال -
 وتقول العرب « العصا من العَصِيَّة ، والأفصى من الحية » ، أى أن الأمر الصغير من الكبير .

* * *

يتضمن كتاب العصا عدة حكايات رواها الأمير أسامة عن مشاهدة ومعاينة ، وهذا أسلوب يتفرد به . ويبدو واضحاً فى أرقى صوره فى كتابه الاعتبار ، ويذكر الأستاذ عبد السلام هارون ، أن كتاب العصا تضمن تسعين بيتاً من الشعر لم يتضمنها ديوانه المطبوع ومن هذه الأبيات .

وساءنى ضعف رجلى واضطراب يدي
 كحَظِّ مرتعش الكفين مرتعد
 رجلى كأنى أخوض السوحل فى الجَلَد
 من بعد حَظْم القنسا فى لَبَّة الأسد
 هذى عواقب طول العمر والمدد

مع الثمانين عاث الضعف فى جلدى
 إذا كتبت فخطى جِدُّ مضطرب
 وإن مشيت فى كفى العصا ثقلت
 فاعجب لضعف يدي عن حملها قلباً
 فقل لمن يتمنى طول مدته

وينقل الأمير أسامة عن شاعر مجهول قوله :

عَلَّ ولا أنسى تحيُّتُ مِنِّي بِسَبْرِهِ
 لأعليها أن المقيم على سفره

حملتُ العصا لا الضعف أوجب حملها
 ولكننى ألزمت نفسى حملها

المنازل والديار

للأمير أسامة بن منقذ ..

.. ثمة نصوص أدبية . قريبة من النفس ، كتبت من مداد ، من حروف ولكن تنشأ بينها وبين الإنسان صلوات وثيقة . فكأنها نسيج بين مخلوقين من لحم وأعصاب ودم . وخلال إبحاري الطويل في لجة التراث العربي . عرفت عددًا كبيرًا من هذه النصوص . أطلعها لأول مرة فتبدأ العلاقة ، وتمضي فترة زمنية ثم أعود مرة أخرى وكأني أتطلع إلى رؤية صاحب حميم . أحيانًا يطالعني المؤلف نفسه من بين سطوره . فأكاد أرى ملامحه . وأوشك أن أشعر بحالته النفسية عند تسطير هذه الصفحة أو تلك ، بل أوشك أحيانًا أن أتخيل نوعية النظرة في عينيه ، أسبانية ، فرحانة ، أو حزينة .

من هؤلاء الذين قام بيني وبينهم وثيق صلة ، الأمير أسامة بن منقذ ، بالرغم من عشرة قرون وعدة سنوات تفصلني عنه ، نشأت العلاقة بعد أن قرأت كتابه «الاعتبار» . أقدم ترجمة ذاتية معروفة حتى الآن في الأدب العربي ، بدأت البحث عن كتاب له بعنوان « المنازل والديار » ، فسأرت أن النسخة الوحيدة الموجودة منه في العالم ، توجد ، في ليننجراد بالاتحاد السوفيتي . وأن طبعة صدرت في موسكو أول الستينيات ، تضم النص العربي ، والترجمة الروسية . وكتبت إلى الصديقة الدكتورة فاليريا كيريتشنيكو ، المستشرقة المعروفة ، أسألها أن توفر لي نسخة من الكتاب . وأجابتنى قائلة إن المؤلف طبع فعلاً في موسكو . ولكن الطبعة كانت محدودة جدًا . وإن النسخة الواحدة منها تعتبر الآن في مصاف التحف ، والحصول عليها صعب جدًا ، الحق أنني شعرت بالضيق ، فلا شيء يكدرني مثل رغبتني في الحصول على كتاب ، وأبقى أنا في ناحية ، والكتاب في ناحية أخرى مجهولة لي ، لم يكن هناك حل إلا الانتظار حتى سفرى إلى الاتحاد السوفيتي ، وإلى ليننجراد بالتحديد . وهناك ، أحاول

تصوير نسخة من المخطوطة الأصلية . هذا إذا ووفقت ، وقبل ذلك إذا سافرت إلى روسيا وإلى ليننجراد بالتحديد .

طبعا لم يدركنى اليأس فى القاهرة . وأوصيت عدداً من معارفى المتخصصين فى العثور على الكتب النادرة ، أن يبحثوا لى عن نسخة من « المنازل والديار » ، ربما تكون إحدى نسخ الطبعة الروسية قد وجدت طريقها إلى القاهرة ، أو . . من يدرى ، ربما طبع فى جهة ما .

إلى أن وقعت المفاجأة ذات صباح .

المنازل .. والديار

جاءنى صديق من ذوى الخبرة فى الكتب القديمة . وقال مبتسماً .

.. لقد عثرت لك على نسخة من المنازل والديار . .

تطلعت إليه غير مصدق . لكم طال شوقى عبر سنوات عديدة إلى هذا الكتاب ، وعندما فتح حقيقته الجلدية القديمة . وأخرج منها النسخة ، فوجئت أكثر ، لم تكن طبعة رومية . ولا إنجليزية ، ولا هندية . كانت طبعة مصرية وحديثة نسبياً .

نعم . . فوجئت أن الكتاب حقق تحقيقاً علمياً رائعاً ، وصدر عام ثمانية وستين وتسعمائة وألف فى القاهرة ، عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وهذا المجلس يضم لجنة لإحياء التراث الإسلامى ، تصدر سلسلة من المطبوعات الهامة ، ولكنها لا توزع بشكل جيد ، وبمحدودة الانتشار ، كما أن معظم النسخ تقدم كهدايا ، وفى الأغلب الأعم ، تفضل الكتب طريقها عن مستحقيها الحقيقيين عندما تقدم هدية ، خاصة لمن لم يسع إليها ، ولمن لم يطلبها .

على أية حال ، ها هو الكتاب أمامى ، بتحقيق الأستاذ مصطفى حجازى ، حملته بعناية . وفى اليوم نفسه بدأت أرحل معه وفيه .

رحلة الكتاب

يقول المحقق ، الضالع ، المتمكن ، مصطفى حجازى فى مقدمته ، إن ناشرى مؤلفات الأمير أسامة أشاروا إلى هذا الكتاب ، وذكرت دائرة المعارف الإسلامية أن نسخته الوحيدة محفوظة فى ليننجراد ، وكان أول من نبه إليه المستشرق السوفيتى كراتشكوفيسكى ،

الذي كتب عنه مقالاً عام ١٩٢٥ في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق . وفي عام ١٩٦١ قام معهد الشعوب الآسيوية بموسكو بنشره ، بطريقة تصوير المخطوط . . . وهي الطبعة التي كنت أبحث عنها . وكتب له المقدمة المستشرق أنس خالدوف ، والنشر بهذه الطريقة يعنى توفير صورة من المخطوط لا غير . ويقول الأستاذ المحقق مصطفى حجازى إنه شعر بضرورة تحقيق الكتاب ، وفق مناهج التحقيق الحديثة ، وقد اكتشف خطأ بالطبعة الروسية في ترتيب الصفحات .

المنهج

رتب الأمير أسامة كتابه أو قسمه في ستة عشر فصلاً سردها في آخر المقدمة . الفصل الأول في ذكر المنازل ، والثانى في ذكر الديار ، والثالث في المغانى . ويستمر حتى يصل إلى آخر فصول الكتاب وقد خصصه في بكاء الأهل والإخوان .

إنه يبدأ الفصل غالباً بما يجده مناسباً له من آيات الكتاب العزيز ، يردفه بتفسيرها من المأثور ، وربما يورد بعد ذلك ما يناسبه من الحديث الشريف إن وجد ، ثم يفيض في مختاراته الشعرية . وهذا أسلوب مألوف في كثير من المؤلفات الأدبية العربية ، منها «الغرر والغرر» للوطواط و «محاضرات الأدباء» للأصفهاني ، و «العقد الفريد» لابن عبد ربه . أحياناً كان يفصل معنى اللفظ اللغوي كما فعل في فصل «الديار» وفصل «الآثار» لكنه لم يلتزم بذلك في معظم الفصول .

المدخل

بشعور أسيان ، وبقلب يقطر حكمة ، وتجربة ، يبدأ الأمير أسامة مؤلفه ، يقول :
« الحمد لله ، وإن تنقلت بنا الدنيا تنقل الظلال ، وتقلب بنا الدهر من حال إلى حال ، وعفت رسوم آثارنا ، واستولت يد الاعتداء على ديارنا ، وتصدع شملنا أيدي سبأ ، وتشعبت بنا شُبل المذاهب ، وأخذت الحوادث على معشري وآل ، وأفنى الموت أسودى وأشبالى ، كل ذلك بقدر جرى به القلم في القدم ، وقضاء سبقت به المشيئة قبل الخروج إلى الوجود من العدم . . . »

ويمضى الأمير في خطبة الكتاب ، أو المدخل الحزين . الأسيان ، ثم يخاطب القارئ مباشرة بأن يدعو له .

- وبعد جعلك الله بنجوة من النوائب . وأصفى لك الحياة من كدر الشوائب . ولا راعك بحادثة تُنسى ما قبلها . وتُصغر ما بعدها وتفتح من النكبات أبوابًا لا تستطيع سدها .

ثم يقول متحدثًا عن كتابه .

- وقد جعلت هذا الكتاب فصولاً ، فافتتحت كل فصل بما يوافق حالي ، ثم أفضت فيها يوافق ذا القلب الخالي ، لكيلا يأتى الكتاب وهو كله عويل ونياحة . ليس فيه لذوى البث راحة ، على أن رزايا الدنيا كالأجل ، تمهل ولا تهمل ، فإن تولت اليوم فغداً تقبل . ويبدأ الأمير أسامة بن منقذ فصول كتابه ، أو يبدأ في عد الحيات التى انتظمتها هذه السبحة ، لتفرز أرق المشاعر وأجلها حزناً . والثى عبق بها وازدحم هذا الأثر الأدبى الرقيق النفيس ، فماذا نجد فيه .

يبدأ الأمير أسامة مؤلفه ، ناقلاً عن شخص اسمه ابن أبى مريم قوله ، إنه مر بسويقة عبد الوهاب . وهى محلة قديمة بمدينة بغداد . فلقى المحلة قد خربت وعلى أحد الجدران المهدمة هذه الأبيات .

هذى منازل أقوام عهدتهم
صاحت بهم نايبات الدهر فانقلبوا
في خفص عيش وعز ماله خطر
إلى القبور ، فسلا عين ولا أثر

هكذا ، مباشرة يدخل الأمير فى موضوعه ، مبتدئاً الفصل الذى خصصه للذكر المنازل ، ثم يورد أبياتاً من الشعر ، يشرح غوامضها . ويفسر غريبها ، وإنى لأنوقف عند بعض مختاراته فى ذكر المنازل . أى أنى اختار مما وقع عليه اختيار الأمير . وهو يكتب ليتسل فى محتته .

يقول ابن أبى طاهر .

يا منزلاً لعب الزمان بأفيله
ايمن الذين عهدتهم بك مرة
طووراً يفرقهم . وطووراً يجمع
كان الزمان يضرهم وينفع

وينقل عن البحرى قوله :

ففى إليك ، فقد تحسونا أنسرتى
تلك المنازل ما تمع وأقفا
لن تخلف الأيام لى بدلا بهم
حذف الردى وتحامل النكبات
بزهى الشخصوس . ولا وغى الأصوات
أبيات من بدل بهم أبيات

وَمُعِيرِي بِالذَّهْرِ يَعْلَمُ فِي غَدٍ أَنْ الْحَصَادَ وَرَاءَ كُحْلٍ نَبَاتِ

ويقول شاعر مجهول :

دَعْنِي وَتَسْكَابِ دَمْعِي فِي مَنَازِلِهِمْ فَلِلشُّتُونِ وَلِي مَنْ بَعْدَهُمْ شَانُ
أَحْبَابِنَا مَا الدِّيَارُ الْيَوْمَ بَعْدَكُمْ تِلْكَ الدِّيَارُ وَلَا الْأَوْطَانُ أَوْطَانُ !

ولا يكتفى الأمير أسامة بإيراد الشعر الذي يتضمن رثاء المنازل ، وإنما يذكر الحكايات المتعلقة بنفس الموضوع . يقول نقلاً عن زينام الزأمر : لما اشتد المرض بالمعتصم - في مرضه الذي مات فيه - أفاق في بعض الأيام ، فقال : هيتوالى الزلال . لأركب فيه في دجلة غداً ، فعملوه . فركب : وركبت معه ، فهو في دجلة بإزاء منزله فقال يا زينام أزمري :

يَا مَنْزِلًا لَمْ تَبَلْ أَطْلَأَهُ حَاشَا لِأَطْلَالِكَ أَنْ تَبْلَى
لَمْ أَبْكِ أَطْلَالِكَ . لَكُنْتِي بَكَيْتِ عَيْشِي فِيكَ إِذْ وَلِي
وما زال يتحجب حتى عاد إلى منزله .

وتتولى المقتطفات الشعرية الأسيانة التي اختارها الأمير أسامة ، حتى يقول ما نصه :
« في على من تقدم ذكره من الشعراء فضل المزية . إذ كنت دونهم صاحب الرزية ، فكان شعري أولى أن يقدم على أشعارهم . وأن قصرت بي البلاغة عن اقتضاء آثارهم . لكن للمتقدم سبق ، وهو بالتقدمة أولى وأحق . وإن كنت وهم كما قال ذر لأبيه : يا أبت مالك إذا تكلمت أبكيت الناس ، وإذا تكلم غيرك لم يبكهم . قال : يا بني ليست النائمة المستأجرة كالشكلى .

ثم يورد أشعاره هو التي نظمها حزناً على أهله الذين أبادهم الزلزال . ومن أرق شعره هذا البيت :

أَبِيكَ . أَمْ أَبْكَى زَمَانِي فِيكَ أَمْ أَهْلِيكَ ، أَمْ تَسْرَخَ الشَّبَابِ الزَّائِلِ

الديار

من المنازل ينتقل الأمير أسامة إلى الديار ، يبدأ بذكر آيات القرآن الكريم التي ذكرت الديار .

قال تعالى « ولا تخرجون أنفسكم من دياركم . . . » - سورة البقرة ٨٤ .

ثم يمضى طبقاً لمنهجه ، فيورد مختارات من الشعر العربي ، كلها تدور حول الديار وقرنتها . والحنين إليها ، وتعمكس هذه المختارات سعة اطلاع الأمير وغزارة ثقافته ، يذكر كثير بن عبد الرحمن الخزاعي .

لمن الديارُ بأبْرِقِ الحَنانِ فالبُرْقِ فالهَضْبَاتِ من أَدَمَانِ
أَقْوَتِ منازِلُهُمْ وَغَيَّرَ رَسْمَهَا بعدد الأَنْبِيسِ تعاقِبُ الأَزْمَانِ

وعن البحترى :

مَتَى تَسْتَبْرِدُ فَضْلاً من العُمَرِ تَعْتَرِفُ بِسَجَلَيْكَ من أذى الخَطُوبِ وصابِها
يُسَرُّ بِعُمَرانِ الدِيَارِ مَقْضَلُ وعمرانُها تدونوبه من خرابِها
ولم أَرْضِ الدِنيا أوانَ مَجِيهِها فكيف أَرْضِنايها أوانَ ذهابِها

وعن أبي عبد الله الطبري ينقل الأمير أسامة قصة يقول فيها : قال رجل لأبي محمد الحريري : كنت على بساط الأنس . وفتح لي طريق إلى الانبساط ، فزلت زلة ، فحبت عن مقامي ، فكيف السبيل إليه ؟ دلني إلى الوصول إلى ما كنت عليه ، فبكى أبو محمد وقال : يا أخي ، الكحل في قهر هذه الخطئة ، وفي أمر هذه الرزية ، ثم شق ، ثم سكت ساعة وأنشد :

قف الديار فهذه آثارهم نَبِّكَ الأَجْبَةَ حَنسرة وتَشوقاً
كَمْ قد وقفت بها أسائل غيبراً عن أهلها ، أو صادراً ، أو مشفقاً
فأجابني داعي الهوى في رسمها فازقت من تهوى فعزَّ الملتقى

ويذكر الأمير نصر قصيدة نظمها الأمير طلائع بن زريك رجل الدولة الفاطمية القوي في مصر ، يعزى فيها الأمير على فقد أهله . يبدوها قائلاً :

هَلَفَ نَفْسِي على ديار من السُّكْبِ إنْ أَسْوَتْ . فليس فيها عريبُ
ولكسم حَلْها فانسته أوطا نَ صباه والأهل يوماً غريبُ

ويذكر الأمير أسامة أنه كان بقريّة « فنك » القريبة من سمرقند ، فقرأ على حائط
مسجد البيت التالي مفردًا :

تَجَنَّبْتُ غَشِيَانَ الدِّيَارِ وَلَيْسَ فِي تَجَنَّبْتُهَا بَعْدَ الْفِرَاقِ مَسْلَامٌ

* * *

عندئذ اضاف الأمير أسامة تحته :

وَمَا كُنْتُ أَهْوَى الدَّارَ إِلَّا لِأَهْلِهَا عَلَى الدَّارِ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ سَلَامٌ

* * *

المغاني ، الأطلال ، الربيع

المغاني هي المنازل التي هجرها أهلها . يفرد لها الأمير أسامة فصلاً . ومن مختاراته .
أبيات لأبي تمام :

شَهِدْتُ لَقَدْ أَقْسَوْتُ مَغَانِيكُمْ بَعْدِي وَتَحَسَّتُ كَمَا حُتَّتْ وَشَاعِعٌ مِنْ بُرْدٍ
فَانْجَدْتُ تَسْمَ مِنْ بَعْدِ أَتْهَامِ دَارِكُمْ فَيَادِمُ أَنْجَدْنِي عَلَى سَاكِنِي نَجْدٍ
لِعَمْرِي لَقَدْ أَبْلَيْتُمْ جِدَّةَ الْبُكَاءِ بِبَلَاءِي ، وَجَدَّدْتُمْ عَلَيَّ بَلَى الْوَجْدِ

وبلى المغاني فصل في ذكر الأطلال . تطالعنا في بدايته أبيات امرئ القيس الشهيرة .

إِلَّا أَنْعَمَ صَبَاخًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي وَهَلْ يَنْعَمُنْ مِنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْخَالِي

وتعد مختارات الأمير في هذا الفصل من أرق وأغنى المختارات في الكتاب ، أو في
المجموعات الشعرية التي خصصها أصحابها لجمع ما اختاروه من الشعر العربي ، فإما
أكثر الوقوف على الأطلال في الشعر العربي ، والوقوف على الأطلال هو قمة التعبير عن
الإحساس المرمرور الزمن ، وزوال الوقت ، والمكان معًا . بلى الأطلال ، فصل عن
الربيع ، والربيع أي المنزل ، ودار الإقامة . ومن المقطوعات الشعرية التي اختارها الأمير
نورد أبياتاً لأبي الطيب المتنبي :

أي قلوب هذا الركب شاقا أيدي الربيع أي دم أراقبا
تلاقى في جسوم ما تلاقى لنا ولأهله أبدا قلبوب
فحمل كل قلب ما أطاقا فليست هوى الأحبة كان عدلا

* * *

الدمن ، الرسم ، الأثار

الدمن ، جمع دمنة ، ودمنة الدار ، أي أثرها ، والدمنة أيضا آثار الناس وما سودوا .
وقيل ما سودوا من آثار البعد وغيره ، عن البحترى ينقل :

دمن لزينب قبل تشريد النوى من ذي الأداك بزينب ولعوب
تابى المنازل أن تحيب ومن جوى يوم الديار دعوت غير مجيب

بعد الدمن ، يذكر الأمير أسامة ما قيل في الرسم . والرسم أي الأثر ، وهو ما لصق
بالأرض منها ، ورسم الدار ما كان من آثارها لاصقا بالأرض ، وعن العرجى يذكر .

أفى رسم دار دمك المتحدُر سفاها . وما استنطاق ما ليس يُجبر
تغير ذاك الرسم من بعد جِدَّة وكل جديد مرة يتغير

أما الفصل الذى خصصه للأثار . فيبدأ بقوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى . وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ . . . ﴾ - سورة يس .

ويعنى بنفس النهج مورداً مقتطفات مما قيل من شعر في الأثار ، ثم يخصص فصلاً
واحداً لذكر المساكن ، والمعاهد ، والمعاهد جمع المعهد وهو الموضع الذى عهده الإنسان ،
أو عهد هوى له فيه ، والمعهد أيضاً هو المنزل الذى ارتحل عنه القوم ثم رجعوا إليه ، أما
المحال ، فمفرده محل . وهو موضع الحلول ، والمحلة ، أى المكان ينزله القوم . أما
العرصات فهى جمع عرصة أى وسط الدار ، أو هى كل بقعة فسيحة بين الدور .

المساكن ، المعاهد ، المحال ، العرصات ، لكل يفرده الأمير أسامة فصلاً ، يورد فيه
ما قيل من شعر ذكر فيه كل من هذه المعالم . ثم يخصص فصلاً كبيراً لذكر الأرض ،
وينقسم هذا الفصل إلى جزأين ، فى الأول يورد مقتطفات معانى البكاء على فراق الأرض ،
مثل قول شاعر مجهول :

سقى الله أرضاً لو ظفرت بتربها كَجَلْتُ بِهَا مِنْ شِدَّةِ الشُّوقِ أَجْفَانِي
فهمل بعد هذا للمحبين غايةً وهل أحدٌ أشجانه مثل أشجاني ١٩

أما الجزء الثانى فيحضر على مفارقة الأرض التى وقعت بها المصائب ، فأرض الله
واسعة ، ومن ذلك قول الشنفرى :

وفيها لمن رام القلبي مُتَحَوِّلٌ وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
لعمرك ما بالأرض ضيقٌ على امرئٍ سرى راغباً أو راهباً وهو يعقلُ

ونفس الشيء نجده فى الفصل الذى خصصه للأوطان . فى الجزء الأول نجد أشعاراً
تبكى الأوطان ، وتحن إليها ، وتذرف أبياتاً مبلولة بالدمع من أجلها ، يقول - على سبيل
المثال - القاضى أبو محمد عبد الوهاب بن على بن نصر :

أهيم بذكر الشرق والغرب دائماً وما بى لا شرق البلاد ولا الغربُ
ولكن أوطاناً نأت وأحسبته فقدتُ ، متى أذكر عهدهم أضبُ

أما الجزء الثانى فيتضمن أشعاراً تحض على الغربة ، وهنا نجد أنفسنا أمام معان
تتناقض مع البكاء على الأطلال ، والمنازل ، والديار ، يقول شاعر مجهول :

لأرحلنَّ المطايا رحلةً عجيباً يكونُ أدنى مداها الصينُ أو عَدَنُ
فكلُّ خيلٍ إذا صافيته سكنٌ وكل أرضٍ إذا أحمدتها وطن

ثم يخصص فصولاً للمدن ، والبلاد ، ويعود مرة أخرى ليفرد قسمًا للندار ، أى
البيت ، وهذا أطول فصول الكتاب ، ثم يفرد فصلاً للبيت ، يذكر فيه قصة بناء سيدنا
إبراهيم للكعبة ، ويذكر الآداب المتعلقة بدخول البيوت :

« وقد قيل : إن وقعت العينُ على العينِ قبل الاستئذان ، فالأولى تقديمُ السلام على
الاستئذان ، وإن لم تقع العينُ على العينِ قبل الإذن . فالأولى تقديم الاستئذان على
السلام . . . » .

ويختتم الكتاب بذكر ما قيل فى بكاء الأهل والإخوان ، يقول الأمير أسامة بن منقذ إن
هذا الفصل كان موضعه فى مقدمة الكتاب ، لكنه أخره ليختتم به كتابه ، ويكاد المرء

يشعر بانحنائه ، وشجوه ، وحزنه ، إذ كان يخط الأبيات التالية ، من شعره هو ، وهو يوشك على اختتام واحد ، من أرق ، وأجل ، كتب التراث العربى ، وأغزرها إنسانية .

يقول الأمير :

نافستنى صرُوفُ دَهْرِي فِي القَمُورِ	زِ بِسْبَرِ الأَبْسَاءِ فِي السَّرْحَمِ
لو كُنْتُ أستطِيعُ أنْ أزوهمَا	مشياً على السرايس لا على القدم
بادرت أمشى إلى ثرى جَدَّتِي	أعزُّ أهلى على كالفلم
لكنْ بمصر قبر وفى شسيزر قبر	ودارى بمتسأى العجسم
والظلمُ فى الأرض ما يعى كُلى	ما أبنيه حتى زيارة الرحم
وما ظننت الذى لقيت من الدُّ	نيسا تراه عينائى فى الحُلمِ

رحمه الله ورحم أهله أجمعين !

الذخائر والتحف

« الذخائر والتحف » للقاضي الرشيد بن الزبير - القرن الخامس الهجري - كتاب نادر وفريد ، كثيرًا ما وقعت عيناى على اسمه أثناء معاشتى لخطط المقرئى الشهيرة ، إذ ذكره عدة مرات ، ثم اكتشفت منذ عدة سنوات أن هذا الكتاب حقق وطبع فى الكويت عام ١٩٥٩ ، وصدر كأول مطبوع فى سلسلة التراث العربى التى كانت تصدرها دائرة المطبوعات والنشر ، للكتاب نسخة واحدة فقط فى العالم . مخطوطة فى مكتبة بلدة «أفيون قرة حصار» فى تركيا ، مؤلفه القاضي الرشيد أبو الحسين أحمد بن الرشيد بن القاضي الزبير ، لا توجد ترجمة له فى المصادر التاريخية المتداولة ، ولكن من خلال نصوص عديدة فى الكتاب نفسه نجد بعض المعلومات عنه ، ومنها يمكن الاستدلال على أنه كان فى خدمة أبى كالجار . وعندما انتهت الدولة البويهية هاجر وأقام بمصر ، وعمل فى خدمة الفاطميين ، والمؤلف يجمع فى هذا الكتاب حكايات وأخبارا عن هدايا الملوك وكبار الأمراء ، السلاطيم المشهورة ، الإعدارات ، الأيام المشهودة والاجتماعات ، الغرائب الموجودات والذخائر المصنونات ، الترك الموروثات ، المغانم فى الفتوحات . النفقات ، حول هذه الموضوعات يورد المؤلف العديد من الحكايات التى تقرب فى بعض أجزاءها من الفن القصصى ، ويصف فيها بعض التحف وصفًا دقيقًا مما يجعل الكتاب مصدرًا هامًا للفنون الإسلامية ، إضافة إلى تسليطه الضوء على جوانب اجتماعية لم تتعرض لها مصادر التاريخ الكبرى . كما أنه يعرض أيضًا للعلاقات السياسية بين الشرق والغرب فى العصر القديم ، هكذا يبرز الكتاب أحد الجوانب الفريدة لحضارتنا الإسلامية . حقق الكتاب الدكتور محمد حميد الله ، وقدمه وراجعه الدكتور صلاح الدين المنجد .

الهدايا

الباب الأول خصص للهدايا ، ويضم ستا ومائة حكاية قصيرة ، من الهدايا فى العصر الإسلامى يذكر أولًا هدية جريج بن مينا - المقوقس - عامل قيصر الروم على مصر إلى

الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد أن راسله يدعوه إلى الإسلام . عاد الرسول وكان حاطب بن أبى بلتعة الضبى إلى النبي بجواب الرسالة ومعه رسول من قبل المقوقس ، ومعه هدية بينها أربع جوار ، منهن جاريتان أختان هما مارية وسيرين ، وكان لها شأن عظيم في القبط ، جميلتان جدًا ، وخصى محبوب لخدمتهما . وبغلة شهباء ، سماها الرسول الكريم « دلدل » . وماتت في خلافة معاوية . وحمار سماه عليه السلام « يعفور » ، وفرس ، وألف مثقال ذهب وعشرون ثوبًا من قباطى مصر ، وعسل من بنها .

يقول المؤلف إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يبرد هدية أحد ، ويكافئ عليها . ونزوح مارية . وهب أختها سرية لحسان بن ثابت ، وهب الثالثة لمحمد بن مسلمة الأنصارى ، والرابعة لجهم بن قيس العدوى ، وتصدق بالمال ، وأعجبه العسل فدعا لعسل بنها بالبركة ، وعندما كتب ملك الصين إلى معاوية بن أبى سفيان يطلب منه إرسال من يشرح له الإسلام ، بعث إليه هدية عبارة عن كتاب يتضمن بعضًا من أسرار العلوم ، يقول المؤلف إنه انتهى إلى خالد بن يزيد بن معاوية . وكان يعمل منه الأعمال العظيمة من الصنعة وغيرها .

ومن غرائب الهدايا قضيب الزمرد الذى أهده أحد ملوك الهند إلى الرشيد ، كان أطول من الذراع . وعلى رأسه تمثال طائر من ياقوت أحمر ، لا قدر له من النفاسة ، فوهبه لأم جعفر زبيدة زوجته ، وانتقل منها إلى الأمين بالله ، ثم إلى أخيه المأمون ، ثم صار إلى المعتصم بالله بعدهما ، وجلس المعتصم بالله يومًا ، فشرب ، وعنده ندمائه فطرح إليهم قضيب زمرد كان بيده . وسأل عما إذا كان أحدهم يعرف هذا القضيب ؟ فلم يعرفه أحد منهم . حتى صار إلى عبد الله بن محمد المخلوع فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، هذا قضيب أهده ملك الهند إلى الرشيد . وكان على رأسه طائر ياقوت أحمر قيمته مائة ألف دينار ، ولست أراه ، فأمر المعتصم بطلبه ، وتوعد المستولين عن الخزانة بالقتل إذا لم يحضروه من ساعته . فجاءوا به وركب على القضيب .

وفي عصر المأمون أهده أبو ذؤلف بن عيسى مائة حمل زعفران ، على مائة حمار . فوصلت الهدية وكان المأمون عند حديمه ، وأحب أن ينظر إليها على حالها . لكنه في نفس الوقت كره أن يكون بين الحمير شيء لا يصح للنساء أن ينظرن إليه ، فسأل : أهى أثن (إناث) أم ذكور ؟ . فقيل له إن الحمير كلها إناث مربية ، فسرُ لذلك وقال ، علمت أن الرجل أعقل من أن يوجه إليه حميرًا غير إناث . وهو عند حريمه ا

قطر النسدي

ويذكر المؤلف تفاصيل هدية قطر النسدي أشهر عروس في التاريخ العربي ، إذ أهدت إلى الخليفة العباسي المعتضد بالله سنة ٢٠٢ هجرية ، هدية ضمت عشرين صينية ذهبًا ، في عشر منها علب عنبر زنتها أربعة وثلاثون رطلاً ، وفي العشر الأخرى علب نذ معجون وزنها أيضًا أربعة وثلاثون رطلاً ، وعشرين صينية فضة بها صندل ، وزعفران ، وعشرين صينية من الذهب مغلفة بالزجاج ، بها مسك وزنه أكثر من ثلاثين رطلاً ، وخمس خلج وثُنيا قيمتها خمسة آلاف دينار .

وإلى المعتضد بالله أيضًا جاءت هدية من عمر بن الليث ، فيها تمثال أصفر على مثال امرأة لها أربع أيد . عليها وشاحان مرصعان بالجواهر ، ومعها أصنام صغار لها أيد ووجوه عليها جواهر . كان أصحاب عمر قد ظفروا بها من بعض المدن البعيدة في البحر . وقد عرضت الهدية ببغداد أيامًا ليراها الناس ، وسميت (شغلًا) لاشتغال الناس بها .

بين المكتفى وبرتا

وكان للهدايا موضع متميز في العلاقات بين الدول ، بل إنها الفرصة المتاحة لكي يظهر كل ذي سلطان مقدار تقدم أمته ، ونبوغها في العلم ، يقول المؤلف ما نصه :

« وأهدت برتباننت الاوتارى (برتا فيليا لوتارى حفييدة شارلمان ملك فرنسا) ملكة الإفرنجية ومن والها إلى المكتفى بالله ، مع على الخادم ، أحد خدم زيادة الله بن الأغب ، سنة ثلاث وتسعين ومائتين ، خمسين سيفًا ، وخمسين ترسا ، وخمسين رحًا الأفرنجية ، وعشرين ثوبًا منسوجة بالذهب ، وعشرين خادمًا صقليةً ، وعشرين جارية صقلية ، حسانا لطافًا ، وعشرة أكلب كبارًا ، لا يطيقها السبع ولا غيره ، وسبعة بزاة ، وسبعة صقور ، ومضرب حرير بجميع آله ، وعشرين ثوبًا معمولة من صوف يكون في صدف يخرج من قصر البحر هناك ، يتلون بجميع الألوان كقوس قزح . يتلون لوثًا في كل ساعة من ساعات النهار ، وثلاثة أطيبار تكون ببلاد الفرنجة ، إذا نظرت إلى الطعام والشراب المسموم صاحت صياحًا منكرًا ، وشفقت بأجنحتها حتى يُعلم ذلك . وخرزًا تجذب التصول والأزجة بعد بناء اللحم عليها بغير وجع » .

ثم يورد المؤلف نص الرسالة التي بعثت بها برتا إلى المكتفى تطلب الزواج منه ومودته ، ونص الرد الذي أرسله الخليفة ، والرسالتان نموذجان لكتابات الملوك في هذا الزمن

البعيد. وللعلاقات بين القوى الدولية أيضًا . طبعًا الخليفة رفض الزواج وقد أورد ابن النديم في كتابه (الفهرست) قصة هذه المراسلة ، أما مؤلف الكتاب الذى نعرض له ، فقد ذكرها نقلًا عن سيرة المكتفى بالله لعبيد الله بن أحمد الطاهر ، وكتاب آخر لم يسمه ، ويرجح المحقق الدكتور محمد حميد الله . أنه اطلع على نص الرسالتين في ديوان الرسائل ، عندما كان يعمل في خدمة أبى كاليجار ، فقد أورد تفاصيل أكثر من المصادر الأخرى .

والمؤلف لا ينقل فقط ، إنما كان شاهد عيان أيضًا ، فقد رأى بنفسه بعض الهدايا يقول :

« وأهدى ميخائيل ملك الروم أيضًا إلى المستنصر بالله في وزارة الحسن بن عبد الرحمن اليازورى في سنة أربع وأربعين وأربعمائة . مع رسول له ورد في البحر إلى تنيس . هدايا جليلة ، شاهدت جميعها بتنيس . من جملتها غلمان أتراك متقاربو الأعمار .

وجوار تركيات . وحجل بيض . وطواويس بيض ، وكراكى بيض . . الخ » وينقل عن مصادر أطلعته مباشرة فيقول :

« وأخبرنى فيما تقدم أن ميخائيل ممتلك الروم أهدى إلى السيدة والدة المستنصر بالله خمسة دسوت حليا . مجرى بسزجاج من أربعة ألوان أحمر قان ، وأبيض ناصع . وأسود حالك ، وأزرق صاف .

ويقول :

« وأخبرنى من أتق به من وزراء المستنصر بالله في سنة إحدى وستين وأربعمائة ما يقارب ذلك أنه وجد في بعض خزائن القصر ، في جملة ما أخرج منها لبيع في أعطيات الرجال ، قفص مقل . وأنه فتح بين يديه فوجد فيه أربعة سروج ، أحدها معمول بديباج أسود . ودفناه وركاباه من ذهب مصبوب ، مرصع جميعه بقطع من اليشب الأبيض ، المليح الجواهر ، وسيوره من جلود سود ناعمة كالحرير ، ولجامة جميعه مكان الحديد منه ذهب مرصع باليشب أيضًا ، وسيوره سودانية كأحسن ما يكون ، وعليه رقعة مكتوب فيها بخط المعز لدين الله :

« أهدى ممتلك الروم إلينا هذا السرج واللجام بعد دخولنا إلى مصر ، وذكر أنه من جملة ستة سروج كانت لدى القرنين ، انتقلت منه إلى خزائهم ، وأنه بقاه ، ولم يحدث فيه حادثة ، وطالع به » .

وترتبط بعض الهدايا بخصائص علاجية ، فيذكر المؤلف أن المستنصر بالله تلقى هدية

عبارة عن حجر أبيض معمول كالحلزة . إذا شُدَّ ليلاً على سرة صاحب الاستسقاء المائي وذلك إلى الصباح وجُعِل في الشمس . قطرت منه قطرات ماء إلى أن يفرغ تماماً . ويكرر ذلك حتى يشفى المريض ، ويعرف هذا الحجر باسم حجر الماء ، وقد ورد ذكره في كتاب الأحجار لأرسطو طاليس .

ويورد خبراً عن أحد الباحثين عن الكنوز . أنه عثر في كنيسة سرقوسة القديمة على حق من نحاس كل من يمسكه يصاب بالإنعاض طالما بقي في يده .

الولائم والدعوات

يفرد المؤلف باباً لأخبار الدعوات والولائم المشهورة . يذكر نقلاً عن ابن عُفَيْر أن عبد العزيز بن مروان خرج إلى الإسكندرية في سنة أربع وسبعين فاعترضه صاحب بلدة « بلهيب » ، فطلب إليه أن ينزل عنده ، فقال له عبد العزيز : ويحك إن معي جماعة ، فأصّر ، ولبى عبد العزيز الدعوة ، وكان معه ألف من خواصه ، مع كل رجل منهم اثنان وثلاثة ، فأقاموا عنده ثلاثة أيام يقدم إليهم الأطعمة والطرائف في كل يوم ثلاث مرات . وعندما عزم عبد العزيز على المسير ، جاء أربعة يحملون قفة عظيمة تسع ثلاثة أراذب ، فلما كشف عنها عبد العزيز وجدها مملوءة دنائير فأبى أن يقبلها . بلغ ذلك أم صاحب بلهيب . وكانت عجوزاً ضعيفة كبيرة ، فأقبلت عليه ، وقالت ، ما أدري أيها الأمير اجئتنا لتسرنا أم جئت لتشتت بنا عدونا ؟ . فقال عبد العزيز : إنما جئت لأسركم . فتساءلت : لماذا ترد هديتنا علينا ؟ . وقبل عبد العزيز الهدية وقسمها على رجاله .

ويورد المؤلف نصّاً حدثه به من يثق به :

« حدثني من أثق به . عن ابن مهنّا ، أحد عمال الريف ، قال : رُذِّ النظرُ إلى في الضياع الجوانية . من كسرة دَمِيس ، في أيام المستنصر بالله . فنزلت يوماً الضيعة المعروفة بطاء النمل ، فرأيت فيها آثار بناء قديم كأحكم ما يكون من الابنية وأتقنها ، فسألت ما روت الضيعة عنه ، ولمن كان ، فقال لي : أنا أتيسك بمن يعرفك به وبأربابه . فجاءني بشيخ من القبط ، قد جاوز المائة سنة بعدة سنين ، صحيح العقل والحديث ، فسألته عن البناء فقال : قال لي أبي ، وعمره قريب من عمري ، وقد سألته عن هذه الآثار وهي أبين مما رأيت وأجد . « لمن كان هذا البناء ؟ » فقال « لما روت من القبط ، عاملته وشاهدته ، وكان ذا يسار ، وقدر ، وهمة عالية . من أهل هذه الضيعة ، وله والدة تضاهيه في القدرة والمروءة ، تدعى مارية . ولقد رأيتها أيام ورد المأمونُ إلى مصر في سنة ثمانى عشرة ومائتين ،

وانحدر إلى بلد اليعقوم ، وكان بينى له في كل ضيعة دكة ويجعل عليها ترسية (٢) . فإذا ورد الضيعة جلس في التركية ، ونزل العسكر والقواد والوجوه بجوانبها وقد تمنى له الا ينزل في طاء النمل .

واتصل الخبر ببارية المذكورة . فخرجت إليه ، وتوصلت إلى خطابه ، وكان بحضرة المأمون تراجمه يعرفون الرومية ، والقبطية والنبطية وسائر اللغات ، لا يفارقون عسكره في كل أسفاره ، فسمع الترجمان ما قالت ، فقال :

« تقول يا أمير المؤمنين إنك قد نزلت في كل مكان بنيت لك فيه دكة . ومتى لم تنزل عندنا ، بقيت وصمة ذلك علينا وعلى ولدنا من بعدنا ما بقى الزمان » .

فاستحسن كلامها ، ، وأعجبه عقلها . وعدل برأس دابته إلى التركية فنزل فيها ، ونزل جميع العسكر حوله ، ورجعت إلى ولدها فأخبرته بها جرى بينهما وبين المأمون ، فسُر بذلك ، وأحضر إليه وكلاء مطبخ المأمون وطباخيه ، وسألهم عن قوانين مطبخه في كل يوم من الحيوان والدجاج والجداء والخراف والفراريج والأوز . وما يحتاج إليه من الشوابل ، ورسمه في الحلاوات والطيب والشمع ، وسائر ما جرت به عادته من صغير وكبير ، واستدعى كتاب جيش العسكر وقرر معهم ما يحتاج إليه الرجال من الوطاء والأبقار والتعليق . . . » .

بالغت المرأة وابنها في إكرام المأمون وجيشه ، وعندما استعد الخليفة للرحيل ، أحضرت المرأة عشر صوانٍ مغطاة ، فلما كشفت بين يديه ، وجد في كل صينية بها ألف دينار جميعها من نقد واحد . فسأل المأمون عما إذا كانت قد عثرت على كنز فضحكت . وقالت بعد أن أخذت بيدها قطعة طين : قل لأمر المؤمنين هذا من الطين . ومن عدلك ا . « أعجب الخليفة بجوابها ، فكتسب لها إقطاعاً قيمته مائتا فدان ، فقبلت ذلك وزرعتهما ، وأقامت قنطرة عرفت باسمها .

أما أشهر الدعوات في الإسلام فثلاث ، منها دعوة أقامها المعتز ، وعرس زبيدة مع الرشيد ، وعرس المأمون ببوران .

الأيام المشهودة والأوقات المعهودة

في هذا الباب يقدم المؤلف وصفاً لمظاهر احتفالات مختلفة فمن الأيام المشهودة يوم أن وصل رسولاً ملك الروم إلى الخليفة المقتدر بالله في سنة خمس وثلاثمائة لطلب الفداء ، اصطف الجيش كله من مكان نزولها إلى القصر . كانت فرصة لاستعراض قوة الدولة ،

فهذان الرسولان سيعودان ليخبرا بما شاهدها ، ويورد المؤلف وصفًا دقيقًا يستغرق عشر صفحات لما تم عرضه ، مثل ذلك ما حدث مع رسل ملك الصين عند وصولهم إلى فرغانة ، وبعد العرض المذهل الذي شاهدوه ، منحوا هدايا ثمينة جدًا ، وعند انصرافهم لاحظوا أنها بدون خفير يخفرهم ، فقبل لهم :

- في ولاية الأمير السيد لا يُحتاج إلى خفير .

فتساءلوا .

- أنصرف إذن ؟

قبل لهم

- ذلك إليكم . . إن جلستم أبدا . فهذه الجراية لكم ، وإن خرجتم حينما نزلتم يُقام بنزلكم إلى أن تخرجوا من ولاية الإسلام .

فخرجوا ومعهم العدد الموكل بهم ، حتى خرجوا من فرغانة ، فكان هذا سبب إسلام ملك الصين .

* * *

وفي معرض ذكره للتحف النادرة ، يذكر المؤلف « الدرة اليتيمة » ، ويقول إنها سميت باليتيمة لأنها لم يوجد لها أخت في الدنيا ولا قرينة ، وكانت قد بيعت إلى هارون الرشيد .

أما « الفص الحافر » فكان من ياقوت أحمر ، وزنه سبعة دراهم . وقد انتقل من العباسيين إلى الفاطميين . ثم يذكر أشهر الثروات التي تركها أصحابها بعد موتهم . ويفرد بابا للمغانم في الفتوحات ، وبابا آخر لذكر الكنوز والدفائن القديمة ، وفي كل باب تطالعنا تفاصيل دقيقة لذكر الثروات ، والتحف التي صيغت من أنفس المعادن ، وأوصافها العجيبة ، ويبقى تساؤل يثيره هذا الوصف الذي يفصلنا عن صاحبه ألف سنة .

« أين هي الدرة اليتيمة الآن ؟ »

أين أثواب ملوك الروم . والتي كان الواحد منها مرصعًا بثلاثين ألف لؤلؤة ، أين . . أين ؟

لا يمكن الإجابة على هذا السؤال ، إلا بذكر قوله الكريم :

« كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

الأنبيق في المنجنيق

فن رمى الحجارة في التراث الحربى العربى سقى السيوف
بدماء الدجاج والزرنىخ ، ورمى الأعداء بالحيات

من ؟

من هو ؟

هل اسمه « ابن أرنبغا الزرد كاش » ؟ أو اسنيغا الزرد كاش ؟ من هو مؤلف هذا المخطوط
النادر ، الذى وصل إلى عصرنا ، ويستقر الآن في مكتبة أحمد الثالث باستامبول ؟

الدكتور إحسان الهندى محقق المخطوط الذى نشر في حلب منذ ثلاثة أعوام ، لم يقطع ،
وإنما رجح ، فالمصادر المعاصرة مثل « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » لابن تغرى
بردى ، و « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » للسخاوى ، و « السلوك » للمقرئى ، لا
تمدنا بمعلومات وافية عن المؤلف الذى طمس اسمه من عنوان المخطوط ، وبقي لنا اسم
والده « أرنبغا الزرد كاش » . و « أرنبغا » اسم يطالعنا كثيراً في المصادر المملوكية ، « بغا » تعنى
الفحل ، أما الزرد كاش فهو اسم مركب أعجمى الأصل ، ومعناه صانع الزرد .
على أى حال . .

وصلنا مؤلف أرنبغا العلمى ، والذى يبرز لنا الفن الحربى العربى ، وأصوله الهندسية ،
وما كتبه أرنبغا في بداية القرن التاسع الهجرى محصلة موروث علمى خاص بالعرب ، كان
المنجنيق بمثابة المدفع في الجيوش القديمة ، كان يقذف بالحجارة الثقيلة ، وبرميل النفط ،
وسلال العقارب والثعابين ، المخطوط قصير ، ولكنه مزود بلوحات تفصيلية ، هندسية
عديدة ، وقبل الخوض في علم رمى الحجارة بالمنجنيق ، نطالع المقدمة التى صيغت من عبق
الزمن القديم .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه توفيقى

الحمد لله مدبر الوجود ، ومؤيد الجنود ، بارئ النسم ومودعهم أسرار الحكم ، مبدع الموجودات بحكمته ومتقنها بسديع صنعته ، الواحد القهار ، العزيز الجبار ، ذى البأس الشديد الفعال لما يريد . .

والصلوة [الصلاة] على سيدنا محمد الذى بعثه الله وجيش الكفر منشور بالعصايب ، وغسقه محلولك الغياهب . فشتم عن ساق اجتهاده . وجاهد في سبيل الله حتى جهاده ، حتى أشرق بدر الإسلام ، وانجلت غياهب ذلك الظلام ، وسطعت أنوار الإيمان ، وثبتت منه القواعد والأركان ، وعلى أصحابه وأهل بيته الأطهار ، وجميع المهاجرين والأنصار ، ما لاح ضوء الصباح ولمع برق سلاح .

. . افتتاحية تدل على حرفة صاحبها العسكرية ، وتومئ مشيرة إلى موضوع المؤلف ، وتقليد الافتتاحية هذا تخلت عنه الكتابات العربية الحديثة ، مع أنه من تقاليد النثر العربى ، وفى معاشتى للتراث لا أذكر أنسى طالعت افتتاحية تشبه الأخرى ، لا فى المفردات ، ولا فى الصياغة ، مع أن المضمون متقارب ، أو يكاد يكون واحدًا التسليم لله ، والصلاة على رسوله . تتفاوت كل منها فى القصر أو الطول ، بضعة سطور كما نجد عند صاحبنا هذا ، أو صفحات عديدة كما نلقى عند الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى فى «فتوحاته المكية» ، هذه الافتتاحيات أشبهها بالمداخل المؤدية فى العمارة الإسلامية ، مبانى مدنية كانت ، أو مساجد ، أو منشآت دينية كالخوانق والأسبلة ، والأضرحة .

لن ننأى عن النص الذى نعرض له ، فالموضوع طويل ، وما يقال كثير ولكن قبل الخوض فى النص لنترجع إلى مقدمة المحقق ، فلقد نسى عصرنا المنجنيق وصار أثرًا محجورًا . بعد أن كان واقعًا يثير الرهبة . وهذا حكم الأشياء . .

* * *

العروس

يدلل الدكتور إحسان الهندى على الأصل العربى للمنجنيق ، ويؤكد أن العرب عرفوا هذا السلاح من العصر الجاهلى . فهناك أكثر من مصدر تاريخى يؤكد أن جزيمة الأبرش ، مؤسس دولة التتوخيين (١٣٨ - ٢٦٨ م) كان أول من استخدم المنجنيق من العرب قبل الإسلام ، كما تؤكد دراسة حديثة للدكتور صلاح العبيدى أن عرب العراق عرفوا هذا السلاح منذ القدم . كما ورد فى تاريخ الطبرى أن عروة بن مسعود ، وغيلان بن سلمة لم يشهدا مع الرسول وقعة

حينئذ لأنهما كانا يتعلمان صناعة الدبابات والمنجنيق في بلدة «جرش» . وهذا يدل على أن العرب الغساسنة الذين كانوا يقطنون في هذه المدينة وما جاورها منذ عهد ما قبل الإسلام . قد عرفوا هذا السلاح وبرعوا في استخدامه . كما ذكر صاحب «البداية والنهاية» أن المسلمين استخدموا المنجنيق لأول مرة في حصار الطائف ، أما الخليفة عمر بن الخطاب فقد عنى أفضل عناية باستخدام المنجنيق حتى أصبح لدى جيش المسلمين الذي فتح بلاد فارس عشرون منها استخدمها في فتح مدينة بهرسير (المدائن) . وطبقاً لرواية الواقدي نجد أن جيش ابن الوليد استخدم السلاح نفسه ، وفي العصر الأموي اهتم الخلفاء بتطويره ، وعندما حاصر الحجاج الثقفي عبد الله بن الزبير مكة ، قام بنصب منجنيق ضخيم على جبل قبيس ، وينسب إليه أيضاً أنه أمر بصناعة منجنيق ضخم يحتاج إلى خمسمائة رجل لتحريكه وكان يسمى «العروس» ، ويقال إنه سلمه إلى محمد بن القاسم الثقفي لما وجهه لفتح السند ، واستخدمه أيضاً في فتح مدينة الديبل (كراتشي حالياً) وغيرها من مدن السند سنة ٨٩ هـ ، ويقال إن كبير الرماة الموكل بالرمي على العروس ، كان اسمه «جؤية» وأنه لمهارته كان يرمى على صارية علم بقطعة الحجر فيمزقها في الرمية الثالثة على الأكثر .

مع بداية القرن الثاني الهجري أصبح المنجنيق شائعاً خاصة في حصار المدن ، ويروي ابن الأثير أن مروان بن محمد حاصر سعيد بن هشام وأنصاره في مدينة حمص لمدة عشرة أشهر ، ليلاً ونهاراً ، ونصب عليهم نيفاً وثمانين منجنيقاً . وقد نقل معهم أمويو الأندلس هذا السلاح إلى هناك . في هذه الفترة شاع استخدام المنجنيق عند العرب ، وبدأ يظهر في الشعر .

يقول جرير :

يلقى الزلازل أقوام دلفت لهم بالمنجنيق وصمكا بالملاطيس

والملاطيس هي الحجارة التي يرميها المنجنيق .

في جيوش العباسيين أصبح سلاحاً رئيسياً . وأصبح له صنف خاص ، هو «المهندسين» يرأسه قائد يلقب بالمنجنيقى ، وخلال الفتنة بين الأمين والمأمون عام ١٩٧ هـ (٨١٣ م) استخدم المنجنيق بكثرة .

في العصر المملوكي ، جرى اهتمام عام بالصناعة الحربية ، وبالمنجنيق خاصة ، كان هذا يتم في خزائن السلاح المسماة «الزرد دخاناه» يصفها المؤرخ ابن تغرى بردى بقوله :
«وكانت تحوى أشياء كثيرة محملة على العجل . تجرها الأبقار ، وعليها آلات الحصاد ، ومن مكاحل النفط الكبار ، ومدافع النفط المهولة والمناجيق العظيمة ، ونحو ذلك . . .» .

ويصف لنا أبو الفداء في « المختصر في تاريخ البشر » المنجنيق الذي استخدمه المسلمون في حصار الصليبيين في عكا - ٦٦٠ هـ - (١٢٦١ م) يقول :

« أمر السلطان الملك الأشرف بجر المنجانيق وآلات الحصار من جميع الحصون إليها ، فاجتمع على عكا من المنجانيق الكبار والصغار ما لم يجتمع على غيرها » .

أما المؤرخ ابن تغرى بردى فيصف حصار قلعة صلخد ٨١٢ هـ .

« ثم طلب السلطان مكاحل النفط والمدافع من قلعة الصبية وصفد ودمشق ونصبها حول القلعة ، وكان فيها ما يرمى بحجر زنته ستون رطلاً شامياً ، ومقادى الحصار ليلاً ونهاراً حتى قدم المنجنيق من دمشق على مائتى جمل ، فلما تكامل نصبه ، لم يبق إلا أن يرمى بحجره ، ووزنه حجره تسعون رطلاً بالدمشقى - يساوى ٢٥٠٠ جرام -

وقبل الانتقال مع مقدمة المحقق إلى أنواع المنجانيق ، نعود إلى مخطوط ابن أرنبغا الزرد كاش .

* * *

منكلى بغا

. . من تقاليد المؤلفات القديمة ، أن يهدى المؤلف كتابه إلى صاحب له ، أو إلى سلطان . أو أمير ، له به وثيق صلة ، أو تلقى منه منة ، نجد هذا في معظم المؤلفات العربية . وغريب أننا لا نعرف على وجه الدقة اسم صاحبنا ، أو نحيط بحياته ولكننا نعرف شخصية من أهدى إليه كتابه ، لنصغ إلى النص :

« أتأبك العساكر الإسلامية ، مؤيد الملة المحمدية ، هو المقر الأشرفى . السيفى ، شمس العلامنكل بغا الشمسى . ما زالت الأقدار قاضية بهلاك أعدائه ، متكفلة بإسعاد أحبائه وأودائه ، بمن أخذ من كل فن بأوفر نصيب ، وأضحى كل بعيد المتناول وهو منه قريب ، وجمع بين فضيلتى الحُكم والحِكم ، والسيف والقلم ، ورأيت أعظم مساعيه ، وأكثر دواعيه إلى إمعان النظر فيما يحفظ نظام الممالك ، وتنجلى به الخطوب ، الحوالمك ، من أنواع جيسد الحروب ورمى أعداء الدين بمصميات الخطوب والتوصل إلى أخذ معاقلهم ، والحصون ، وزلزلة أركانهم ، وهتك سرهم المصون » .

والأمير منكل بغا الذى أهدى إليه المؤلف كتابه ، فهو أتأبك العساكر الإسلامية ، منكل بغا ، الصالحى ، الظاهر برقوق ، ويعرف بالعجمى ، صيره الناصر ابن أستاذة ، وأرسله رسولاً إلى تيمور لنك سنة خمس وثمانمائة (هجريه) ، ثم رجع وتولى الحسبة في زمن السلطان المؤيد شيخ ، تزوج من الأميرة خوند فاطمة ابنة الملك أشرف شعبان ، ثم أصبح أتأبك - قائم

- للجيوش عام ٨٣٠ هجرية ، ومات عام ٨٣٦ هجرية ، وهذا يعنى أن ابن ارنبغا الزرد كاش قد وضع مؤلفه قبل عام ٨٣٠ هجرية .

بعد أن يفرغ المؤلف من الإهداء ، يذكر مضمون الكتاب ، فيقول إنه وضعه في أنواع المنجنيق ، والزيارات (نوع من منجنيق السهام - والصلالم التي تستخدم في حصار القلاع ، والزحافات التي يجلس فيها المحاربون بينما يقوم رفاقهم بدحرجتها باتجاه أسوار القلعة المحاصرة ، والجسور التي تمتد لعبور الموانع المائية ، ورمى المكاحل (المدافع) . والقوارير المعبأة بالنفط .

« وما شاكل ذلك من مخترعات التداير ، وجعلته كتابًا ورتبه فصولًا وأبوابًا ، وخدمت به الحضرة العالية ، ما زالت سعودها متوالية ، ولست في ذلك إلا كما قيل . .

كالبحر تَمْطُرُه السحاب وماله فضل عليه لأنه من ماء

ثم ينتقل ابن ارنبغا إلى وصف المنجنيق ، وأسلوب الرمي به :

« . . إذا أردت أن ترمى بعيدًا فإنك تضع الحجر في المنجنيق وترمي به إلى مطلوبك ، فإن أردت أبعد منه فإنك تدهن في الثانية أصبع المنجنيق بالزيت ، [دهن أصبع المنجنيق بالزيت يجعل انزلاقه أسهل ويزيد بالتالي من مدى الرمي] ، فإن رميت به ، وبلغت ما تطلب ، وأردت أبعد من ذلك فإنك تضع بين حلقة سواعد المقلاع ، وبين الأصبع الحديد قطعة من المشاق (ما يبقى من الكتان بعد المشق) وترمي به ، فإن بلغت مقصودك فحسن ، وإن أردت أبعد منه فإنك تدخل في أصبع المنجنيق كعكة من حبل وترمي به فإنك تبلغ مقصودك ، وإن أردت أبعد منه فإنك تضع فيه كعكة أخرى فإنك تبلغ الذى تطلبه إن شاء الله تعالى ، وإن أردت أبعد منه تضع كعكة أخرى ، تفعل ذلك ثلاث مرات فإنك تبلغ الذى تطلبه .

ويمضى ابن ارنبغا في تفصيل طرق الرمي إلى مسافات أبعد ، والعاملون بالفن العسكرى الحديث ، سيجدون أن القواعد التي وصفها تماثل في خطوطها العريضة نفس قواعد إطلاق الصواريخ الحديثة مع مراعاة التعقيد وفارق العلم والعصر ، ينطبق هذا على ما قاله أيضًا بخصوص الرمي عن قرب . .

« وإن أردت القرب ، فإنك تضع الحجر وترمي به إلى حيث تريد ، فإن أردت أقرب من ذلك فإنك تدهن ثلث أصبع المنجنيق وترمي به ، وإن أردت أقرب منه فإنك تدهن ثلثي الأصبع وترمي فإنك تبلغ المقصود .

وإن أردت أقرب من ذلك فادهن جميع الأصبع وترمي فإنك تبلغ ما تريد ، وإن أردت أقرب منه فإنك تشيل رأس المدريب (ينصح المؤلف هنا برفع المنجنيق إلى أعلى ، مما يزيد في

انحناء زاوية الرمي وهذا مما ينقص المدى حسب مبدأ الرمي بالأسلحة المنحنية مثل الهاون (حاليًا) . إلى فوق ذراع واحد فإن أردت أقرب منه فإنك تشيله ذراعاً آخر وترمي فإنك تبلغ ما تريد ، وإن أردت أقرب من ذلك فإنك توسع المزريب وترمي به ، وإن أردت أقرب من ذلك فإنك تنزع جسر الدولاب وترمي به فإنك تبلغ المقصود ، وإن أردت أقرب منه فإنك تغير الساعد بأغلظ منه وأن أردت أقرب منه فإنك تزيد الحجر رطلاً واحداً وترمي به فإنك تبلغ المقصود إن شاء الله تعالى . . . » .

ويعمى ابن ارنبغا في شرح وسائل تقريب الرمي ، والضرب على مسافات قليلة ، ولا يفوته التأكيد بعد شرح كل خطوة أن تنفيذ ما قاله يبلغ صاحبه المقصود بإذن الله تعالى .
وفي نهاية شرحه يقول .

« وهذا الذي ذكرناه تمام العمل بالمنجنيق الذي يسمى قرا بغرى . . . » .

وقرا بغرى ، نوع خاص من المنجنيق ، خاص برمي الحجارة ، ويعمل طبقاً لمبدأ الثقل المعاكس ، وهو النوع الذي ركز عليه ابن ارنبغا في بحثه . سواء فيما يتعلق بالنص ، أو الرسوم التفصيلية ، ولا يفوته أن يشرح تركيبه في نهاية القسم الأول من المخطوط . . .

« ولابد من ذكر وضع هذا المنجنيق فنقول كيفية وضعه (تركيبه) ، حتى يصير الرامي به مستأنساً فتذكر ما يحتاج إليه من الأخشاب ، وهي ثمان وعشرون قطعة من الخشب وفيها ما يزيد وما ينقص ، فإذا أردت وضعه فتنظر إلى ما قد وصفته من الأخشاب في هذا الكتاب فتعمل أمثالها وأعدادها والصندوق المرسوم فيه فلا تخرج عن عمله وانظر أيضاً إلى طول النشاب وما هو عليه ، فاعمل هيئته وسفله وأعلاه وبخوش (ثقوب) الخنزيرات (الجزء من الدولاب الذي يدخل فيه عمود السهم) وغير ذلك من الأعمال ، ثم جمع المنجنيق وما يحتاج إليه . . . » .

وهنا نعود إلى دراسة الدكتور سامي الدهان لنقف منها على أنواع المنجنيق .

* * *

من الحجر إلى الثعابين

المنجانيق بشكل عام عبارة عن عدد من القوائم الخشبية ، تتصل أعلها بعارضة يركب عليها عمود خشبي طويل يقال له « السهم » ، يكون قصيراً من جهة ، وطويلاً من جهة أخرى ، ويحمل هذا السهم من جهته القصيرة ثقلاً معاكساً يسمى «الصندوق» إذا كان كتلة واحدة و « القواعد » إذا كان جملة أثقال ، كما يحمل من جهته الطويلة «الكفة» التي تحمل المقذوف سواء كان هذا الأخير حجراً أو برميل نبط ، ويتصل «السهم» من جهته الطويلة

بحبل من الشعر يسمى « ذيار » ، يمكن شده بواسطة « دولاب » ، كان يطلق عليه أحياناً اسم القوس لأنه كان يتصل بقوس يزيد انحناء كلما دار الدولاب في حالة الشد .

كانت المنجانيق أنواعاً ، فمنها ، مجانيق قذف الحجارة ، وهى أشد الآلات الحربية القديمة تأثيراً ، لا سيما في الحصار ، ويتم الرمي عن طريق وضع قطعة الحجر في الكفة التى يحملها السهم ، وكلما زاد اتساع الكفة كلما أمكن رمي قطع أكبر من الحجارة .

أما مجانيق قذف السهام ، وتسمى أيضاً بقسى الزيار ، فكانت عبارة عن أقواس كبيرة ترمى سهاماً هائلة الحجم يتراوح طولها بين ٦٠ و ١٨٠ سم ، وتزن من اثنين إلى ثلاثة كيلو جرامات ، ويصف ابن خلدون في تاريخه قوساً ضخماً من قسى الزيار ، صنع عام ١٣٩٨ م ، ويقول إنه كان يلزمه أحد عشر بغلاً لنقله ، وكانت هناك أيضاً مجانيق قذف النفط وكرات اللهب ، والقنابل ، وكانت أنواعاً منها قنابل النحاس ، والزجاج ، والغازات ، وتلك الأخيرة عرف منها العرب أنواعاً ، فكانت منها القنابل المضيفة ، وكانوا يصنعونها على شكل كرات من الكبريت الأسود ، والصمغ والزرنيخ ، وكانوا إذا رموا هذه الكرات بعد إشعال النار فيها تبقى مشتعلة ، سواء أثناء إطلاقها أو بعد سقوطها ولا ينفع الماء في إطفائها .

أما القنابل الخائقة فكانوا يصنعونها من الكبريت والزرنيخ والأفيون والبسج الأزرق ، وكانوا يدخنونها على مهب الريح حتى يفسد الهواء الذى يستنشقه جنود العدو، ابن اربغا يخصص قسماً لوصف تركيب هذه القنابل ، ويسمى كلا منها قدرة، ويورد رسماً تفصيلياً لكل منها ، يصف حمساً وأربعين طريقة لصناعة هذه القنابل أو القدور بلغة عصره، منها على سبيل المثال « قدر مخاسفة مضرّس » . وهذا نوع من القنابل التى تنفجر ذاتياً . . يقول في طريقة العمل :

« يأخذ قدر مدور فخار ، يحط فيه فتاتيش (فتاش أى سهم نارى) ، وصفاربخ (صواربخ) في سفلى كل فتاش ضررس وهو حدّ (أى حارق) وفي سفلى كل فتاش ثلاثة كواكب (أجهزة إشعال) وتملأ الصواربخ والفتاتيش ، وتملأ معهم دواحد (كرات صغيرة من المعدن) وتختم رأس القدرة ، وتنزل في رأس القدرة إكربخ عراقى (الأكربخ هو جهاز لإشعال القدرة) . . » .

طبعاً يبدو بوضوح صعوبة النص ، والمصطلحات المستخدمة ، من هنا يبرز أيضاً مدى جهد المحقق في تفسير معنياته ، وفيما يلي النص الخاص بتركيب قنابل الغازات .

« تأخذ ستين فنا ، وستين عنزروت (نبات يستخرج منه صمغ) ، وستين شامبى (نبات غير معروف) وستين وشق (صمغ يعطى حرارة للمكان الذى يلصق عليه يسميه عوام الشام ويشة) ، وستين حصالبان ، وستين علك صنوبر ، وستين حلتيت (أنواع من الصمغ) ،

وتحملة ويطعم بالنفط ، وبالبياض (مستحضر سريع الاشتعال) وتخدم على الرخامة ، وينعلف بأربعين سندروس مخرمش ، وتأخذ حافر الفرس ، وتبرئده ويعمله ، وتأخذ من برادته مائة وخسين ، وأفيون خمسة وعشرين ، ومن الزرنبيخ خمسين ، ومن البينج الأزرق خمسين ، وتعلف الكل في اللزاقات ، على الرخامات ، وتبيض القدر ، وتنزل الكل في القدرة . . . » .

أما قنبلة الجير فيصفها كما يلي :

« يأخذ قدرة مدورة ، ويحط فيه كلس مطفى ، ويسد رأس القدرة ويكسره في الثقب . وأما في الشواقي (فوهات المراقبة في القلاع) يطلع غبار الكلس إلى مناخيرهم ، وإلى أعينهم ، ما يقشعون (لا يميزون) القتال ، فتتنزل وتمسكهم قبض اليد (بدون مقاومة) . » .

وأغرب ما يصفه قنبلة الحيات والثعابين :

« تأخذ القدر الفخار ، أكبر ما يكون ، وتحط فيها حيات (أفاعى) وأحاسها (نوع من الزواحف) ونواشيد (نوع من الأفاعى ذات الصلال) ، وتسقطها في الثقوب في المركب ، فأى من لسعته قتلته ، والله أعلم . . . » .

كانوا يرمون قنابل الأفاعى والعقارب هذه على مراكب العدو ، أو القلاع المحاصرة ، والأماكن المحدودة المساحة ، فإذا قذفت وتمشمت خرجت الأفاعى ، والعقارب ، فتؤذى جنود العدو ، أو تثير فيهم الدعر ، وكان هذا الرمي ، لا يتم إلا على أهداف محاصرة ، أو سفن العدو في عرض البحر ، فأى من لسعته قتلته والله أعلم .

* * *

القسم الأخير من المخطوط مخصص لسقاية السيوف ، أى نقعها في سائل معين بعد تسخينها على النار حتى تكون أشد حدة وأكثر قدرة على القطع ، ويذكر ابن ارنبغا مواد عديدة لسقى السيوف منها دم الفراخ ، وقشر الرمان اليابس ، وأكسيد الحديد ، وعرق الفرس والحمار وقرن الإبل المطحون .

أما صمغ الصنوبر ، والمصطكى واللبن ، وبذر الكتان ، وبرادة الحديد ، فمواد تمنع صدأ السيوف .

أما السقاية الشريفة ، أى المعتبرة ، عالية المستوى ، فمن المواد المستخدمة فيها ، الجير ، وملح البول أى ما يتبقى منه بعد تبخره ، ومواد كيميائية أخرى . وتبل فيها السيوف ، وتترك لمدة ثلاثة أيام ، بعد ذلك :

« اضرب به عمود الحديد ، زنته عشرة أرتال فإنه يقطع إن شاء الله تعالى » .

ولكى يكتسى السيف لوناً أحمر ، يوضع في مواد مستخرجة من كبريتات الحديد ، وتوضع

هذه المواد في جراب من الجلد يُدخل فيه السيف ويوضع تحت التبن ، بعد مدة يخرج أحمر قاطعًا .

ولكى يصبح لونه أصفر تؤخذ مواد من خشب الورس الذى ينبست في اليمن أو الحبشة ، والعصفر ، ويوضع السيف تحت ثقل بعد دهانه .

« ثم يخرج فإنه يكون ما أردت إن شاء الله تعالى ، والله أعلم . . » .
والله أعلم ، هكذا يختتم ابن أرنبغا الزرد كاش مخطوطه أو مؤلفه النادر .

* * *

وضع ابن أرنبغا حوالى مائة رسم توضيحي ، لأدوات المنجنيق ، وطرق استخدامه ، وأنواعه ، وأساليب الحصار ، ولتركيب القنابل ، وسقاية السيوف . قام الدكتور سامى الدهان بشرحها ، وتوضيح غوامضها ، هكذا يلقي هذا المؤلف النادر الضوء على جوانب هامة من أصول الفن الحربى العربى .

النص صعب ، إلا أن التحقيق العلمى الممتاز الذى . قام به المحقق ، إضافة إلى شروحه وتوضيحاته ، جعلته ميسرًا ، متاحًا ، ومقروءًا بسهولة ، ومن أهم ما تضمنه الفهارس ، بخاصة ذلك الجزء الخاص بأهم المؤلفات الحربية والعسكرية في التراث العربى ، معظمها مازال مخطوطًا ، متناثرًا في مكتبات العالم المختلفة .

ويبقى لنا بعد تقديم هذا المخطوط في فن الحرب عند العرب . أن نردد مع مؤلفه في ختام عرضنا ما رده هو في مفتتح مؤلفه :

وضع العبد الفقير المعترف بذنبه ، الراجى عفوره ابن أرنبغا الزرد كاش .

* * *

الأنيق في المنجنيق

لابن أرنبغا الزرد كاش

دراسة وتحقيق : الدكتور إحسان هندی . صدر عن

جامعة حلب (معهد التراث العلمى العربى)

بالتعاون مع معهد المخطوطات العربيه (المنظمة

العربية للتربية والعلوم والثقافة) .

سلسلة مصادر ودراسات في تاريخ التكنولوجيا

العربية - ٤ -

٢٨٨ صفحة - قطع كبير

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب

لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل
الشمالي النيسابوري [٣٥٠ هـ - ٤٣٠ هـ]

للشمالي ركن بأكملة في المكتبة العربية .

عاش عمراً مديداً ، تجاوز الثمانين ، وكما طال عمره ، فقد تعددت مؤلفاته ، إذ تعدت الثمانين مصنفاً ، كلها حول الأدب واللغة والتاريخ ، دون فيها ملامح عصره ، ومعارفه ، ورسم صورة واضحة المعالم لأعلامه وكتابه وشعره ، وصلنا معظمها ، مثل يتيمة الدهر في شعراء العصر ، وفقه اللغة ، وسر العربية ، والتعريض والكناية ، والمبهج ، والتمثيل والمحاضرة ، وخصائص الخاص ، والإعجاز والإيجاز ، والنوادر والتعليقات ، والمطربات المرقصات وغيرها .

ولد في نيسابور سنة خمسين وثلثمائة ، وتوفي بها سنة ثلاثين وأربعمائة ، نُسب إلى الشمالي لأنه عمل في خياطة جلودها ، المعلومات عن حياته شحيحة ، ضئيلة ، وما جاء عنه في كتب التراجم سطور عامة لا تلقى ضربةً كافيةً ، ولا تشفى غليلاً .
يقول ابن خَلِّكان في موسوعة « وفيات الأعيان » .

« كان في وقته داعياً لتلغات العلم ، وجامع أشنات النثر والنظم ، رأس المؤلفين في زمانه ، وإمام المصنفين بحكم أقرانه ، ساد ذكره سير المثل ، وضربت إليه آباط الإبل ، وطلعت دولوبه في المشارق والمغارب . . » .

أما تلميذه وربيه علي بن الحسن البَاخرذِي فلم يزد على أن قال في حقه :

« جاحظ نيسابور ، وزُبدة الأحقَاب والدهور ، لم تر العيون مثله ، ولا أنكرت الأعيان فضله ، وكيف يُنكر وهو المزن يُحمد بكل لسان ، أو يُسْتَر وهو الشمس لا تخفى بكل مكان ، وكنت وأنا بعد فرخ أزغب ، في الاستضاءة بنوره أرغب . . » .

أما المصري صاحب كتاب زهر الآداب ، فقال عنه :

« وأبو منصور هذا يعيش إلى وقتنا هذا ، وهو فريد دهره وفريع عصره ، ونسيج وحده .
وله مصنفات في العلم والأدب ، تشهد له بأعلى الرتب .

هكذا ، مجرد أوصاف عامة ، لكن ما من تفاصيل عن أطوار حياته ، أو الأعمال التي مارسها ، أو البلاد التي رحل إليها ، كان نائراً فذاً ، وشاعراً رقيقاً ومن كتبه التي وصلتنا وطبعت أكثر من مرة ، كتاب « ثمار القلوب في المصاف والمنسوب » حققه محمد أبو الفضل إبراهيم ، وصدر في سلسلة ذخائر العرب عن دار المعارف بمصر ، كتاب ضخيم يقع في ثمانمائة صفحة ، خصصه لذكر أشياء مضافة ومنسوبة إلى أشياء مختلفة يُتمثل بها ، ويكثر استخدامها في اللغة ، مثل القول ، غراب نوح ، ونار إبراهيم ، وذئب يوسف ، ومثل قولهم ، قرطاً مارية ، وتفاح الشام ، وورد جُور . . ، قسم الكتاب إلى واحد وستين باباً ، الأبواب الخمسة الأولى يمكن اعتبارها مفتوحاً ذا طابع ديني . الأول يذكر فيه ما يُضاف إلى اسم الله تعالى ، مثل القول « بيت الله » ، والمقصود الكعبة بيت الله الذي جعله الله مشابة للناس ، وقبلة لسيد ولد آدم وخاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكعبة لأمته ، ويقول إن العرب في الجاهلية كانت لا تبني بناياتاً مرتبعا تعظيماً للكعبة ، ثم يذكر خصائصه ، ومنها أنه بواد غير ذي ذرع ولا شجر ، وينثني فيه الذئب عن يطارده ، ولا ينزله الحمام إلا إذا كان عليلاً ، وإذا حاذاه الطير انقسم إلى فريقين ، ثم يقول الثعالبي « ومن يستطيع الإحاطة بفضائل بيت الله وخصائصه . »

* * *

الأنبياء

يُقال « سفينة نوح » ، تضرب مثلاً للشيء الجامع ، لأن نوحاً حمل فيها من كل زوجين اثنين ، ويُقال أيضاً « غراب نوح » يضرب مثلاً للرسول الذي لا يعود ، وكان أهل البصرة يقولون : فلان لا يرجع حتى يرجع غراب نوح . ويُقال عمر نوح يُضرب مثلاً في الطول ، ويُنسب إلى سيدنا إبراهيم ، « مقام إبراهيم » كناية عن كل مكان شريف ، و « نار إبراهيم » للبرد والسلامة . أما « رؤيا يوسف » فيضرب بها المثل للرؤية الصحيحة ، الصادقة ، و « ذئب يوسف » يُقال لمن يُرْمى بذنب جناه غيره وهو بريء ، ويُقال « عصا موسى » ، يورد الثعالبي قول الجاحظ : « من يستطيع أن يدعى الإحاطة بها في قول موسى « ولي فيها مآرب أخرى » إلا بالتقريب وذكر ما خطر على البال ! ولكنني سأذكر جُملاً تدخل في باب الحاجة إلى العصا ، فمنها ، أنها تحمل للحية والعقرب والذئب والفحل الهائج ويتوكأ عليها الشيخ الدالف ،

والسقيم المدنف ، والأقطع الرجل ، والأعرج ، وتنوب للأعمى عن قائده . . الخ ، وعن ضرب المثل بعصا موسى فأحسن وأبدع ابن الرومي حيث قال :

مديحي عصا موسى وذلك أنسى	ضربت به بحر الندى فتضحضحا
فياليت شعري إن ضربت به الصفا	أيئمت لى منه جداول سبيحا
كتلك التي أندت ثرى الأرض يابسا	وأبدت عيوننا في الحجارة سفحا
سأمدح بعض الباخرين لعله	أن أطرد المقياس أن يتسححا

ويقول الثعالبي إن ابن الرومي أبدع إذ شبه مديحه بعصا موسى التي ضرب بها البحر فييس ، ذلك أنه مدح جوادا فبخل ، فقال ، سأمدح بخيلاً لعله يجود . ويقال «خليفة الخضر» إذا كان الرجل جواداً ، جواباً للأفاق ، كما قال أبو تمام عن نفسه :

خليفة الخضر من يأوى إلى وطن	في بلدة فظهور العيسين أو طاني
-----------------------------	-------------------------------

ثم قال :

بالشام قومي وبغداد الهوى وأنا	بالتقتين وبالفسطاط إخواني
وما أظن النوى ترضى بها صنعت	حتى تسافر بي أقصى خراسان

ومما ينسب إلى الأنبياء « صبر أيوب » . و « حوت يونس » و « نعمة داود » و « خاتم سليمان » و « طب عيسى » . و « بردة النبي » التي يضرب بها المثل في الليل ، وهي التي خلعها الرسول الكريم وكساها كعب بن زهير بعد أن أنشده قصيدته المشهورة .

* * *

القررون الأولى

والمقصود بها الأزمنة النائية ، المنقرضة ، يقال « أحلام عاد » ، كانت العرب تتصور أن قوم عاد عمالقة الأجسام ، وبالتالي كانت أحلامهم ضخمة كأجسادهم أما « ربح عاد » فتضرب مثلاً للإهلاك والإخفاء ، أما « صاعقة ثمود » فتضرب أيضاً مثلاً في الإبادة ، ويقال « صرح هامان » للأبنية الشاهقة ، و « كنوز قارون » للأموال والثروات النفيسة ، و « نوم أصحاب الكهف » للنوم الطويل ، ومن أقوال العرب « جوف حمار » كان رجلاً من عاد ، يقال له حمار بن مؤيلع ، وجوفه وإد له طويل عريض ، لم يكن هناك انخصب منه وفيه من كل الثمار ، فخرج بنوه يتصيدون ، فأصابتهم صاعقة فهلكوا ، فكفر ، وقال : لا أعبد من فعل هذا بيني ودعا قومه إلى الكفر فمن عصاه قتله ، فأهلكه الله ، وخرب واديه فُضرب به المثل في الخراب والخلاء .

ومما يضرب به المثل « ذكاء إياس » . كان قاضياً شديداً الذكاء ، كان في صغره ضعيفاً ، ضئيلاً ، وكان له أخ أشد منه حركة وأقوى ، وكان أبوهما يقدمه على إياس ، فقال له إياس يوماً : يا أبت ، أنت تقدم أخى علىّ وسأضرب لك مثله ومثلي ، فهو مثل الفروج حين تنفلق عنه البيضة يخرج كاسياً كافياً نفسه فيلقط ويستخفه الناس ، فكلها كبر انتقص حتى إذا تم وصار دجاجة لم يصلح إلا للذبح ، وأنا مثل فرخ الحمام تنفلق عنه البيضة عن شيء ساقط لا يقدر على حركة وأبواه يُغذّيانه حتى يقوى ويثبت ريشه ثم يحسن بعد ذلك ويظير ، ويتخذ الناس ويرسلونه من المواضع البعيدة ، فيجىء فيصان لذلك ويكرم . فقال أبوه : أحسنت المثل ، وقدمه على أخيه . وحجج إياس يوماً فسمع نباح كلب ، فقال : هذا كلب مشدود . ثم سمع نباحه فقال : لقد أرسل ، فلما انتهوا من الماء سألوا أهله ، فكان كما قال ، عندئذ سأله : كيف عرفت ؟ . فقال : كان نباحه وهو موثق يُسمع من مكان واحد ، فلما أطلق سمعته يقرب مرة ويبعد مرة . وهو ذات ليلة بناحية ، فقال : أسمع نباح كلب غريب ، فقيل له : كيف عرفت ؟ قال : بخضوع صوته ، وشدة نباح الآخر . ورأى يوماً أثر رعى بعير : فقال : هذا بعير أعور . فقيل له : من أين علمت ؟ فقال : لأنى وجدت رعيه من جهة واحدة .

* * *

الرجال

ومما يضرب وينسب إلى رجالات العرب ، « شية الحمد » ، كأن يقال ذلك لعبد المطلب بن هاشم لسور وجهه ، ذلك أنه كانت في ذؤابته شعرة بيضاء حين وُلِد . أما (حاتم الطائي) فكان من أكرم العرب ، وقيل « دُعَيْمِص الرَّمْل » لرجل كان من أمهر أدلة الطرق ، ضرب به المثل فقيل « أهدي من دعيميص الرمل » ويُقال انه دخل وَبَار ، وهي بلدة تزعم العرب أنها بلدة الجن ولم يدخلها إنسى غيره ، فرمته الجن بالرمل حتى عمى ، أما « وافد البراجم » فيضرب به المثل في الشقاء والجبن ، ذلك أن أسعد بن المنذر أخا عمرو بن هند انصرف ذات ليلة من مجلس صفاته وهو تَمِيل . فرمى رجلاً من بني دارم بسهم فقتله فوثب عليه بنو دارم فقتلوه ، فغزاهم عمرو بن هند ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ثم أقسم ليحرقن منهم مائة فبذلك سمى محرقاً ، وأخذ منهم تسعة وتسعين رجلاً فقدمهم في النار ، وأراد أن يبر قسمه بمن تكمل به العدة فمرَّ رجل يقال له عمار ، من بني مالك ، فتشمم رائحة اللحم . فظن أن الملك قد اتخذ طعاماً للأضياف ، فعرج إليه ، فأتى به ، فقال له : من أنت ؟ فقال : أبيت اللعن ، أنا وافد البراجم . فقال عمرو : إن الشقى وافد البراجم ، فصار مثلاً للشقى يسعى

بقدمه إلى مرق دم ، ثم أمر به فقتل به في النار ليتحقق قسمه . ويقال « حق هبنقة » ، وهو يزيد بن ثروان أو هبنقة ذو الوداعات ، من حُقه أنه جعل في عنقه قلادةً من ودع وعظّم وخزفٍ وهو ذو لحية طويلة ، فسئل عنها فقال : لأعرف بها نفسي ، فبات ذات ليلة وأخذ أخوه قلادته فتقلدها فلما أصبح هبنقة رأى القلادة في عنق أخيه ، فقال له : يا أخى ، إن كنت أنت أنا ، فمن أنا ؟

ويقال أيضًا حديث خرافة ، وخرافة كان رجلاً من بنى عدرة ، استهوتته الجنّ فلما خلت عنه رجع إلى قومه ، وجعل يحدثهم بالأعاجيب من أحاديث الجنّ ، فكانت العرب إذا سمعت حديثاً لا أصل له ، قالت : حديث خرافة .

* * *

العسرب

ومما يضاف أو ينسب قولهم « أغربة العرب » ، وهم أربعة سود شجعان عنزة العبسي ، وخفاف السلمى ، كان شاعراً شجاعاً ، شهد مع الرسول فتح مكة ، ومنهم السليك بن السلكة ، وأيضاً عبد الله بن خازم السلمى وإلى خراسان ، ومن عجيب أمره أنه كان في غاية الشجاعة ، لكنه يخاف الفأر خوفاً شديداً ، فبينما هو ذات يوم عند عبيد الله بن زياد إذ أدخل عليه جُرُذاً أبيض فتعجب منه ، فقال لعبد الله : يا أبا صالح هل رأيت أعجب من هذا ؟ وإذا بعبد الله يتضاءل كأنه فرخ ، فقال عبيد الله : أبو صالح يقبض على الثعبان ، ويلقى الرماح والسيوف بيده ، وقد اعتراه من جُرُذ ما تزوّن ! إن الله على كل شيء قدير ! .

ومما يضاف أو ينسب إلى الشعراء « حُلة امرئ القيس » تضرب مثلاً للشيء الحسن يكون له أثر قبيح ، ذلك أنه لجأ إلى قيصر الروم يستعين به على قتلة أبيه ، ويستنجده ، وبعد أن ساعده أوقع الوشاة به عند قيصر ، فأرسل في أثره بحلة مسمومة ، فلما لبسها تقرح جلده ، وتساقط لحمه ، يقول في ذلك :

وَبُدِّلْتُ قُرْجًا دَامِيًا بَعْدَ صَحْبَةٍ وَبُدِّلْتُ بِالنَّعْمَاءِ وَالْخَيْرِ ابْوَسًا
ومات بأنقره .

ومما يضاف إلى البلدان ، قولهم « عزيز مصر » ، ذُكر في القرآن الكريم ، ويقال « اسقف نجران » وهو قس بن ساعدة ، أحد حكماء العرب وبلغاتهم ، ويقال « سحرة الهند » إذ يضرب المثل بهم لأن للهند السحر والرقى والتدخين والشطرنج وخرط التماثيل .

ومما ينسب إلى أهل الصناعات قولهم (كلب القصاب) يُضرب مثلاً للفقير يجاور الغنى ،

فيرى من نعيم جاره وبؤس نفسه ما ينغص عيشته ، والعامّة تقول : كلاب القصابين أسرع عمىً من غيرها بعشرين سنة لأنها لا تزال ترى من اللحوم ما لا تصل إليه . فكأن رؤية ما تشتهيه وتمنح منه يورثها العمى .

* * *

أبو .. وأم

يخصّص الثعالبي الفصل الثامن عشر لما يضاف أو ينسب إلى الآباء والأمهات الذين لم يلدوا ، والأبناء الذين لم يولدوا ، يُقال مثلاً ، (أبو يحيى) لقابض الأرواح ، كما يُقال للأسود (أبو البيضاء) ولالأعمى (أبو البصير) . ويُقال (أبو براقش) لطائر منقش بألوان النقوش يتلون في اليوم بعدة ألوان ، ويُضرب به المثل للمتلون ، أما (أبو مالك) فيعنى الجوع ، والعرب تسمى الخبز جابراً وعاصماً وعامراً ، ثم يورد الثعالبي قائمة بالعديد من الكنى التي يتداولها العرب ، فمنها :

الفرس : أبو المضاء ، والفيل : أبو الحجاج ، والأسد : أبو الحارث والشعلب : أبو الحصين ، والقزذ : أبو ذنّة وأبو قيس ، والفهد : أبو الوثاب . والأزنب : أبو نيهان ، والسنور : أبو خدّاش ، والديك : أبو اليقظان ، والماء : أبو غياث ، والثريد : أبو رزين . والحقل : أبو نافع . والجبن أبو مسافر ، واللحم : أبو الحصيب ، والتمر : أبو عون ، والحلوى : أبو ناجع والغناء : أبو شائق ، والنوم : أبو راحة ، والشيع : أبو الأمن ، والحمام أبو نظيف .

ثم ينتقل الثعالبي إلى الأمهات ، (أم الكتاب) هي فاتحة الكتاب لأنها المقدمة التي تقرأ أمام كل سورة في الصلاة ، (أم القرى) هي مكة ، إنها أم كل أرض (أم النجوم) هي المجرة ، (أم المؤمنين) هي عائشة رضی الله عنها . (أم دقّر) كنية الدنيا ، كما يقال لها أيضاً (أم خنّور) ، ولما قال عبد الملك بن مروان :

وقد تمكّنا من أمّ خنّور - يعنى الدنيا - ونعمتها وغضارتها ، لم يعيش بعد قوله هذا إلا أسبوعاً ، (أم عامر) هي الضبع ، (أم عوف) هي الجرادة (أم طلحة) هي القملة . (أم قشعم) هي المنية والحرب والداهية الكبيرة ، ويقال للحرب أيضاً (أم قسطل) و(أم شملة) هي الشمس .

وعن البنين يقول الثعالبي ، (ابن الليالى يعنى القمر ، والعرب تقول لمن يعيش في الصحارى (ابن الليل) ومازال الناس في صعيد مصر يطلقون نفس الكنية على المجرمين والخارجين عن المجتمع ، وهناك فيلم سينمائي مشهور يحمل الاسم . ويُقال (ابن ذكاء)

يعنى الصبح ، و (ابن الغمام) أى البركة ، ويُقال (ابن الغمد) للسيف ، وذلك لطول ملازمته إتياءه ، أما النهار فيقال له (ابن الدهر) أما (بنو الأيام) هم أهل العصر ، و (بنو الدنيا) هم الناس .

وعن البنات يقول الثعالبي إن (ابنة الجبل) تعنى الصدى الذى يجيب المتكلم بين الجبال ، و (بنت الفكر) هى الرأى والشعر . وابنة الكرم هى الخمر ، أما بنات الليل فهى الأحلام .

* * *

من الأذواء إلى .. أصابع زينب ..

أما ما يضاف إلى الأذواء والذوات فكثير . من ذلك (ذو الأوتاد) وقد جاء ذكره فى القرآن الكريم . و (ذو القرنين) ويُقال إنه الإسكندر الأكبر ، و (ذو النورين) وهو عثمان بن عفان رضى الله عنه ، سُمى بذلك لأن الرسول الكريم زوجه ابنته رقية ، فكانا أحسن زوجين فى الإسلام ، ولما تُوفيت زوجه عليه السلام أم كلثوم ، ولما تُوفيت قال : لو كانت لنا ثالثة لزوجناكها ، فهو ذو النورين لهذه القصة . ويقال (ذو الرياستين) وهو الفضل بن سهل ، سباه الخليفة المأمون بذلك لأنه دبر أمر السيف والقلم ، وولى رياضة الجيوش والدواوين . و (ذات النطاقين) أمرها معروف وهى أسماء بنت أبى بكر الصديق ، أما (ذات الخمار) فهى هُنيدة بنت صعصعة عمة الفرزدق ، وكانت هناك شجرة اسمها (ذات الأنواط) كانت قريش ومن سواهم من الكفار من العرب يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ويدبحون عندها ويقومون عندها يوماً .

أما النساء المضافات ، المنسوبات فمنهن (زرقاء اليمامة) ويضرب بها المثل فى دقة البصر وحدة النظر ، كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام ، وقد أخبرت قومها برؤيتها لأشجار تتحرك فلم يصدقوها ، ولم تكن الأشجار إلا جيشاً معادياً تخفى بالأشجار ، تمكن من مباغتته قومها ، وأسروها وشقوا عينيها ، ويُقال (خضراء الدمن) وتلك من جوامع كَلِم الرسول صلى الله عليه وسلم ، القليلة الألفاظ الكثيرة المعانى التى لم تسبقه العرب إليها . ولما قال : إياكم وخضراء الدمن ، قيل « يا رسول الله وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء فى منبت السوء .

أما ما يُضاف إلى النساء فمنهن (كيد النساء) و (نخلة مريم) قيل فى القرآن الكريم ، « وَهُزَى إِلَيْكَ بِجُدْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا » ، و (عرش بلقيس) و (شوم البسوس) هى بنت منقذ التميمية . زادت أختها أم جساس بن مرة ومع البسوس جاز لها من جرم يقال

له سعد بن شمس ومعه ناقة ، فرماها كليب وائل ، فأقبلت على صاحبها وضرعها ينزف دماً ، فانطلق إلى البسوس فأخبرها بالقصة ، فقالت ، واذلآه ، واغربتاه ، وسمعتها ابن أختها جساس فركب ومضى إلى كليب حيث طعنه طعنة أثقلته فبات منها ، وهكذا بدأت الحرب بين بكر وتغلب فدامت أربعين سنة ، ويقال (مرآة الغريبة) لأن المرأة الغريبة تتعهد مرآتها من الجلاء بما لا يتعهد غيرها ، وتتفقد دائماً محاسن وجهها ، لذلك ضرب بها المثل ، فيقال أنقى من مرآة الغريبة ، ويذكر الثعالبي (أصابع زينب) ويقول إنه ضرب من الحلوى ببغداد يُدعى أصابع زينب ، وما يزال هذا النوع من الحلوى موجوداً في مصر والشام وبنفس الاسم .

* * *

من الرأس إلى .. الكلبة

ومما يُنسب إلى الأعضاء عند العرب بكثرة (الرأس) ، فتقول : رأس المال ، ورأس الليل ، ورأس الجبل ، ورأس الزمان ، ورأس القوم ، ورأس الجريدة ، ورأس الأمر ، ورأس العقل ، ورأس الدين ، وهكذا . . . ويُخصص الثعالبي فصلاً كاملاً لما يضاف أو يُنسب إلى الإبل ، فيقال مثلاً (حنين الإبل) تقول العرب ما أفعل ذلك ما حنَّت الإبل وما أطَّت الإبل ، وتقول (ركبتا البعير) في الشيء المتساوي بغيره . وتقول (ضبط عشواء) لمن يصيب مرة ويخطئ مرة ، والعشواء هي الناقة التي لا تُبصر ليلاً ، قال زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء من تُصِبْ تُثِثُه ومن تُخطئ يُعمَّرُ فيهرم

في الفصل الذي يخصصه للحمير ، تستوقفنا ملاحظة خاصة بالمؤلف ، ربما لم ترد في أي من كتبه الأخرى ، إذ يقول في الفقرة المعنونة (خاصى العبر) ويضرب مثلاً لمن يرجع خائباً من مهمته ، يقول الثعالبي .

« وقد ضرب أبو خراش مثلاً في شعر له لست أستحضره » يفلت الثعالبي هنا من صرامة البحث ، ويعترف للقارئ أنه لا يذكر الشعر الذي أراد أن يستشهد به .

وفي الفصل المخصص للأسد ، يذكر الثعالبي عشر خصال مستعارة من الحيوان يجب أن تتسم بها القيادة ، فمن ذلك : جُراة الأسد ، وحنث الذئب ، وروغان الثعلب ، وحملة الخنزير ، وصبر الكلب على الجراحة ، وحنن الدجاجة وسخاء الديك وحذر الغراب وحراسة الكركي وهداية الحمام . ويُقال للذئب (نوم الذئب) ذلك أنه يغمض إحدى عينيه ويفتح الأخرى أثناء نومه قال الشاعر يصفه :

ينام باحدى مقلتيه ويتقسي بأخرى المنايا فهو يقظان هاجع

وتقول العرب (كلبة حَوْمَل) يضرب بها المثل فيقال : أجوع من كلبة حومل ، وحومل امرأة كانت تربي كلبة للحراسة ، وتجميعها وتطردها بالنهار ، فرأت ليلة القمر طالعا فنبحت عليه تظنه رغيقا لاستدارته ، ولما طالت الشدة عليها أكلت ذنبها من شدة الجوع .

* * *

فسى الطيسور

يُقَال (عِتَاق الطير) أى أحرارها ، وهى تصيد ولا تُصَاد ، مثل العقبان والبزاة ، والصقور، والشواهين ، ويُقال أيضا (عِتَاق الخيل) هى التى لا يمكن إدراكها . ولكنها تُدرك إذا طلبت وكثيرا ما يتردد (عِتَاق مُغْرَب) ، ويضرب مثلا للشئ الذى يُسْمَع به ولا يُرى . وإذا أرادت العرب الأخبار عن هلاك شئ وبُطْلانهِ قالت : حَلَقْتُ به فى الجَوْ عِتَاقِ مغْرِب . أما (طير النار) فالمقصود به طائر السمندل ، وهو يدخل النار فيعود شابا ، ويُقال (غُرَاب البين) كان القوم يتشاءمون منه ، ومن اسمه اشتقت الغربية ، ويُضرب المثل بحمام الحرم مثلا على الأمن والصيانة ، كما يُقال (طوق الحمامة) مثلا لما يلزم وما لا يبرح ويقيم ويستديم ، ويُقال (كمد الحبارى) يضرب مثلا لمن يموت كمدًا ، فيقال ، مات فلان كمد الحبارى ، ذلك أن الحبارى إذا تحسرت فترت همتها ، وألقت ريشها كله مرة واحدة ، حتى إذا رأت صويحباتها يطرن ولا نهوض لها فزُربا ماتت كمدًا . ويضرب المثل (ببيضة الديك) ، للشئ النادر يحدث مرة واحدة ولا يتكرر ، إذ يُقال إن الديك يبيض مرة واحدة فى حياته . .

* * *

الأرض .. الدور .. البلدان

تقول العرب (سمعُ الأرض وبصرها) ، عندما يلتقى اثنان ولا ثالث لهما إلا طول الأرض وعرضها ، وتقول أيضًا (أمانة الأرض) و (كتمان الأرض) لأنها تحفظ ما يودع فيها .

ويضرب المثل بدار أبى سفيان فى الأمن ، ذلك أن الرسول الكريم لما فتح مكة ودخل دار أبى سفيان قال « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » . أما قصر غمدان ، فأحد أبنية العرب المتينة ، الشهيرة ، كان بصنعاء ، تسكنه ملوك حِمْير ، ثم تنقلت به أحوال أدت إلى خرابه ، وما يزال موضعه معروفًا فى صنعاء حتى يومنا هذا . ومما ضرب به المثل أيضًا (أهرام مصر) فى الثبات والقدم والحصانة وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : عجائب الدنيا أربع ، منارة الإسكندرية وكنيسة الرها ومسجد دمشق ، وفتنة سنجة .

وضرب المثل بخراج مصر في الكثرة ، وكتان مصر ، وقطن خراسان ، وتفاح الشام ، قال الشاعر .

من كف ظبي غزلي	تفاحة شامية
لغير تلك القبيل	ما خلقت مد خلقت
حمرة خسد خجيل	كأنما حمرتها

ويقال أيضًا (زجاج الشام) يضرب به المثل في الدقة ، و (زيت الشام) للجودة والنظافة ، ويقال (عود الهند) مثلاً على طيب الرائحة ، و (سيوف الهند) للجودة . و (سيوف اليمن) لحدتها ، و (ثياب الروم) لحسنها ، و (سكر الأهواز) لجودته ، و (ورد جور) لطيبه ، و (سجاد أرمينية) لفخامته ، و (طرائف الصين) لندرتها . و (مسك التبت) لجودته . كما يُضرب المثل بطرب الزنج ، وهم محبوبون للغناء والرقص ، ويُقال (حمى الأهواز) لشدة فتكها . و (هواء جوجان) لنقاوته وسرعة تغيره ، و (برد همذان) لوعورته .

* * *

هكذا . . يمضى الشعالي ليذكر لنا ما يضاف وينسب إلى النار ، والماء ، والشجر ، واللباس والثياب ، والطعام والشراب ، والسلاح ، والحلج ، والليالي ، والأزمان والأوقات ، والأدب وما يتعلق به ، ثم يخصص الباب الستين للأقوال التي يستشهدون بها ، مثل (عرق الموت) ويضرب مثلاً لأشد الشدة و (غضب العاشق) ويشبه سحابة صيف لأنه لا يدوم ، و (لذة الخلسة) وهو ما يُمتنع أكثر ، ويُقال (ينبوع الأحران) ، أنشد عبيد الله ابن طاهر :

لم تَرَ أنَّ الدهرَ يهدم ما بنى	ويأخذ ما أعطى ويفسد ما أسدى
فمن سرّه ألا يسرى ما يسوءه	فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدًا

ويصل الشعالي بنا إلى خاتمة الأبواب ، ويخصصه للجنان كأن يُقال (جنة الدنيا) ويقول إن المقصود بها الشام ، ولما أخرج هرقل عن بلاد الشام وفر هاربًا إلى بلاد الروم بكى وعُشى عليه ، فلما أفاق قال : السلام عليك يا سوريا يا جنة الدنيا ، سلام غير ملاقي . ويُقال (باب الجنة) و (روضة الجنة) و (كنوز الجنة) ، كان يُقال : أربعة من كنوز الجنة : كتان المصيبة وكتان المرض ، وكتان الفاقة ، وكتان الصدقة .

هكذا يختتم أبو منصور الشعالي النيسابوري كتابه الفريد ، والذي حفظ لنا فيه ما كان يمكن أن يتبدد نثارًا فلا تدركه الأفتدة ، وبصرنا ببعض ما يشيع على ألسنتنا حتى الآن ، ونحن نجهل أصله . غفر الله له ورحمه .

سرور النفس بمدارك الحواس الخمس

تأليف : أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي
هذبه : محمد بن جلال الدين المكرم (ابن منظور)
حقله : الدكتور إحسان عباس

يُروى أن أحمد بن يوسف التيفاشي ، كان يتمتع بروح علمية دقيقة . محبًا للتجربة . .
وتحمل المشاق في سبيل المعايينة الذاتية ، وأثناء إعداده لكتابه الشهير عن الأحجار الكريمة
«أزهار الأفكار في جواهر الأحجار» . سمع عن أن الزمرد الذبابي إذا عرض للحيات انفقأت
عيونها ، وكان عنده فص زمرد ذبابي خالص فاستأجر حواء ليصيده له أفعى ، ففعل ،
وجعلها في طشت ، ثم قرب الفص من عينيها ، فما لبث أن سمع فرقة خفيفة ، ثم برزت
عيونها بروزًا ظاهرًا ، وبقيت الحية حائرة في الطشت لا تدرى أين تتوجه .

كان التيفاشي عالمًا ، أديبًا ، ذا معرفة موسوعية في عصره - القرنين السادس والسابع
الهجريين - كان متنوع الثقافة ، طبيبًا بين الأطباء ، فلكيًا بين الفلكيين موسيقارًا بين
الموسيقين ، كما كان شاعرًا ونائرًا ، كثير الترحال في طلب العلم ، يطالع ، يسمع ، يدون
مشاهداته . من هنا تنوعت تنوعًا كبيرًا ، نذكر بعضها تفسير التيفاشي للقرآن
الكريم ، لم يصلنا للأسف ، ذكره القلقشندي صاحب كتاب صبح الأعشى ، وقال إنه يغلب
عليه الطابع القصصي وكتاب «مشكاة أنوار الخلفاء وعيون أخبار الظرفاء» وكتاب «سجع
الهديل في أخبار النيل» وكتاب «المنقذ من التهلكة في دفع مضار السمائم المهلكة» وكتاب
«العدة الفائقة في محاسن الأفارقة» ، كما وضع عدة مؤلفات في الجنس ، ومن أغرب الكتب
التي نسبت إليه . «نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب» ويصور الحياة الخفية من المجتمع ،
حيث جمع المؤلف ورصد نماذج عديدة من الحياة السرية للمجتمعات في تونس ومصر ودمشق
وبغداد ، ومن الكتب التي وصلتنا «فصل الخطاب» . وكان يقع في حوالي عشرة مجلدات ،
وجاء محمد بن منظور ليختصره ويرتب أبوابه ، وسماه «سرور النفس بمدارك الحواس
الخمس» . وهذا وصل إلى عصرنا ، وأخرجه الدكتور إحسان عباس من مجاهل المخطوطات

المنسية ، وحققه تحقيقًا علميًا رائعًا . وقدم له ، وأصدره منذ سنوات في بيروت . . وهذا ما نتوقف عنده .

* * *

فصل الخطاب

العنوان الأصلي لموسوعة التيفاشي « فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب » وطبقًا لماورد في المصادر القديمة فيبدو أن الكتاب كان يقع في أربعين جزءًا ، لا يقل الواحد عن مائتي صفحة ، يتناول مظاهر الطبيعة كالليل والنهار والشمس والقمر والسماء والكواكب ، والعالم الحيواني بما فيه من أصناف المخلوقات ، وعالم الأحجار والمعادن ، والطب ، والموسيقى ، وتاريخ الأمم .

من هذه الموسوعة الضخمة وصلنا جزء سماه المؤلف « نثار الأزهار في الليل والنهار » وجزء آخر عنوانه « ظل الأسحار على الجلنار في الهواء والنار » أما البقية فلم تصلنا ، ربما ضاعت إلى الأبد ، وربما ما تزال في مكتبة ما ، أو في زاوية بعيدة في الصحراء ، أو في مكتبة مسجد عتيق . . . ربما .

ما تبقى من الكتاب الذي اختصره ابن منظور إذن يحوى مادة علمية وأدبية فريدة ، يقول الدكتور إحسان عباس :

« لست أظن في ما لسرور النفس من قيمة ، فهو صورة لاجتماع ثقافتين ، الثقافة العربية الإسلامية والثقافة المستمدة من اليونان ، وهو كذلك صورة للقاء على المستوى الأدبي بين المشرق العربي والمغرب العربي ، كان أمثال التيفاشي وابن سعيد وابن دحية الكلبي وغيرهم من المغاربة المهاجرين يمثلون حلقة وصل بين المشرق والمغرب فيؤلفون للمشاركة وللمغاربة على السواء .
ولنلج عالم الكتاب .

* * *

الليل والنهار

يقول ابن منظور الذي اختصر الكتاب في مقدمة قصيرة ، جميلة ، دقيقة الشر ، إنه بذل جهدًا كبيرًا في العثور على نسخة من الكتاب حتى نجح بالفعل في الحصول عليها :

« ورأيت قد جمع فيها أشياء لم يقصد بها سوى تكثير حجم الكتاب ، ولم يراع فيه التكرار ، ولا ما تمجده أسماح ذوى الألباب فاستخرت الله في تعليق ما يُختار منه ، ورغبت في إبرازه إلى

الوجود ، فإنه مادام بخطه لا يفهم أحد شيئاً عنه ، فأخذت ذُبْدَه ورميت زَبْدَه . وأوردت تكرره تركت مكرره . .

ثم يختتم مقدمته بتلك الجملة الجميلة .

« وإلى الله الرغبة في الصفح عن مصنفه وعنى ، والعفو عما اثبتناه بقلمينا ، فإن العفو غاية التمنى » . .

* * *

الليل والنهار هما موضوع الباب الأول . منهج المؤلف أن يذكر الآيات القرآنية التي ذكرت الموضوع الذي يتناوله ، والأحاديث النبوية ، ثم أقوال المحدثين وقصائد الشعراء ، السؤال الأول الذي يواجهنا ، لماذا سُمي النهار نهاراً ، والليل ليلاً ؟ . سُمي النهار نهاراً لظهور ضوء الفجر يجرى كالنهر من المشرق إلى المغرب معترضاً حتى يأتى على الظلام ، وسُمي الليل ليلاً لأنه يلاى بالأشخاص حتى يتشكك الناظر في الشيء ، فيقول : هو هو . ثم يقول لا ، لا فقد لا لا بها ، والنهار ضد الليل ولا يجمع كما لا يجمع العذاب والسراب ، فان جمع قُلْتُ في قليله أنهر .

أما السؤال الثانى ، أيها أسبق ، الليل أو النهار ؟ . بعد استعراض آراء الفلاسفة والمتكلمين . يقول المؤلف إن مذاهب العرب متفقة على تقديم الليل على النهار ، وعلى هذا يؤرخون ، فيقولون ، لخمسة بقين ولست بقين من الشهر ، والعلة في ذلك أن الشهر تعلم بدايته بالهلال ، فيكون أوله على ذلك الليل .

يقول الرسول الكريم « الليل والنهار مطيطان يقربان كل بعيد ويأتیان بكل موعود » ، وفي كليله ودمنة تمثل أيام العمر بغصنين نابتين على فسم بئر وإنسان قائم عليهما ، والليل والنهار كجردين أبيض وأسود مجذبين في قطع الغصنين وهولاء عنهما :

ومن أجهل الأشعار التي يوردها المؤلف في وصف الليل والنهار ما قاله ابن الدمينة .

ويجمنى والهَمَّ بالليلِ جامعُ

أقضى نهارى بالحديثِ وبالمنى

وقول النابغة الذبياني في طول الليل :

وليلٍ أقاسيه بطىء الكواكبِ

كلينى لهم يا أميمة ناصبِ

وليس الذى يرعى النجوم بأيبِ

تقاعس حتى قلت ليس بمنجلِ

أما الأصل في وصف الليل بالطول ، فهو بيت الحارث بن خالد وهو :

على كل عينٍ لا تنامُ طويلاً

تعالوا أعينونى على الليل إنه

الهلال .. والقمر

من الليل إلى النهار ، من الغبوق إلى الاصطباح ، ينتقل المؤلف بين الشعر والنثر ، يورد الحكايات ، وما قاله أهل المغرب ، وما جادت به قريحة أهل المغرب . حتى يصل إلى الباب الرابع الذى يخصصه للهلال وأطواره .

فى اللغة يقال ، أهللنا بشهر كذا ، ويقال لأول ليلة : النخيرة ، وغرة الشهر أول ليلة منه ، لأن الهلال يظهر فيها كالغرة فى وجه الفرس .

وللقمر من أول طلوعه إلى اختفائه أسماء ، فمنها : الهلال . الطالع ، الرمد ، النمير ، الزبرقان ، الباهر ، الزمهرير ، القاسق ، ذريق ، البدر ، عفراء ، الساهور ، السهر .

والعرب تسمى الشمس والقمر القمرين ، فيغلبون القمر - والشمس أفضل منه - لعنتين : إحداهما التذكير والأخرى أنهم أنسوا بالقمر لأنهم يجلسون فيه للسمر . ويهديم السبل فى سرى الليل فى السفر ويزيل عنهم وحشة الغاسق . وينم على المؤذى والطارق .

قيل لأعرابي : الشمس أحسن أم القمر ؟ قال : القمر أحسن والشمس أجهر . قيل ، وكيف صار القمر أحسن ، قال : لأن العيون عليه أجسر ، وتقول العرب : سافروا فى يمته الليالى فإن أنس القمر يذهب وحشة السفر .

والعرب تسمى كل ثلاث ليال من الشهر باسم ، فيقولون : ثلاث غرر ، وثلاث نفل ، وثلاث تسع ، وثلاث عشر ، وثلاث بيض ، وثلاث درع وثلاث ظلم ، وثلاث حنادس ، وثلاث دأدى ، وثلاث محاق . ومن أوصاف الشعراء ، ما قاله الدأواء الدمشقى :

ولربَّ ليلٍ فيك ضلَّ صباحُهُ	فكأنها هو حيرة المتفكّر
والبدرُ أولُ ما بدا مثلثاً	يبسدى الضياء لنا بخدِّ مسفر
فكأنها هو خسوذة من فضة	قد ركبّت فى هامة من عنبر

والعرب تقول فى ذم الهلال : لا مرحباً بحجين ، مُجَلِّ السدّين ، ومُعَدَّب الحين ، قالوا وفى القمر عيوب عدة ، لونه لون الأبرص ، وجهه وجه المجدوم ، يجل الدين ، ويعجل كراء السكن ، وينهك الأبدان ، ويُخلِّق الكتان وينمُّ على العاشق ، ويقضح السارق .

* * *

الفجر

أما الفجر فاسمه مأخوذ من انفجار الماء ، لأنه ينفجر كالماء شيئاً بعد شيء ، ويليه
السحر ، أما السدفة فظلمة يخالطها ضوءه يكون من أول الليل ومن آخره يذهب إلى بقايا
الشفق ، لأن الشفق في أول الليل كالفجر في آخره .
ومن دقيق الشعر ، ما قاله الأمير تميم بن المعز .

شربنا على نوح المطوقة السورق	وأوديسة السروض المفوفة البلقي
معتقة أفنى الزمان وجودها	فجاءت كقوت اللحظ أو رقة العشق
كان السحاب الغر أصبحن كؤوسا	لنا وكان السراح فيها سنا البرق
فبتنا نحث الكأس فينا وإننا	لنشرها بالساح صرفا ونستقسي
إلى أن رأيت النجم وهو مغرب	وأقبل رايات الصباح من الشرق
كان سواء الليل والفجر طالع	بقية لطح الكحل في الأعين الزرق

ومن الأصوات التي تتردد مع قرب شروق الشمس ، صياح الديك . وهديل الحمام ،
وللديوك والحمام يفرد المؤلف فصلاً طويلاً ، كذلك للشمس وحركتها النهارية عبر السماء ،
حتى يصل إلى الليل مرة أخرى ، ولكنه في هذه المرة يتحدث عن الكواكب ، وللكواكب في
الزمن القديم شأن عظيم .

* * *

النجوم

« الثريا » من أشهر نجوم السماء عند العرب ، يعظمونها ، ويكثر ذكرها في شعرهم ، وإذا
طلعت في السماء شتاءً اشتد البرد . قال شاعر :

خليلي إنى للثريا لحاسد	ولانى على ريب الزمان لواجد
أجمع منها شملها وهى سبعة	وأفقد من أحبته وهو واحد

أما نجم الجوزاء فمن أحسن ما قيل فيه شعر أبي بكر الخالدي :

وتمايل الجوزاء يحكى في الدجى	ميلان شارب قهوة لم تمزج
وتنقبث بخفيف غيم أبيض	هى فيه بين تخفى وتبرج
كتنفس الحسناء في المرأة إذ	كملت محاسنها ولم تزوج

وهكذا ينتقل المؤلف بين نجوم السماء ، الشعري ، وسهيل ، والنسر والفرقدان ، وبنات
نعش ، ثم . . نهر المجرة ، ثم ينتقل إلى الكواكب السيارة ، ومنها زحل والمشتري . والمريخ ،

وعطارد ، والزهرة ، وفي الباب الثامن يذكر آراء المنجمين والفلاسفة القدماء في الفلك والبروج والكواكب ، وعلاقة الكواكب بعناصر العالم ، مثلاً ، علاقة الكواكب بالأمكنة :

زحل : له الجبال اليابسة التي لا تنبت .
 المشتري : له الأرضون السهلة .
 المريخ : له الأرضون الخشنة .
 الشمس : لها الجبال ذوات المعادن
 الزهرة : لها الأرضون الكبيرة والأنهار والمياه .
 عطارد : له الرمال .
 القمر : له كل قاع وأرض مستوية .

وهذا الجزء يعد موسوعة علمية مصغرة لعلم الفلك ، وهكذا ينتهى الجزء الأول من الكتاب .

* * *

طل الأسحار

عنوان الجزء الثانى « طل الأسحار على الجنار فى الهواء والنار ، وجميع ما يحدث بين السماء والأرض من الآثار » ويعتبر امتداداً للجزء الأول ، إلا أن موضوعاته يغلب عليها الطابع العلمى أكثر ، ينقسم هذا الجزء إلى عشرة أبواب ، الأول مخصص للفصول الأربعة ، وما قيل فى الربيع ، أبيات ابن الرومى :

ونسرجس كالثغور مبتسم له دموع المحسّدق الشاكى
 أبكاه قَطْرُ الندى وأضحكُه فهو من القَطْرِ ضاحكُ باكى

وما يذكره المؤلف عن الصيف أصناف المراوح ، فمنها مراوح الخوص ، ومراوح الأديم ومراوح الخيش ، أما الخريف فقد سُمى خريفاً لأن الثمار تُحَرَفُ فيه أى تجنى وتقطع ومنه اشتق الحَرَفُ للشيخ ، وهو ذهاب العقل ، وما قيل فى الخريف ، ما أنشده ابن المعتز:

هات كأس المدام فى أيلول بَرَدَ الظلُّ فى الضحى والمقيسُ
 وَخَبَثَ جَمْرَةُ الهواجرِ عَنَّا واسترحنا من النهارِ الطويلِ
 وخرجنا من السموم إلى دو- ح شمالٍ وطيبِ ظلِّ ظليلِ
 ونسيم ييشر الأرض بالقط- ر كذيل الغلالة الملبولِ
 وكأنا نزداد قرناً من الجن- ة فى كل سارقٍ وأصيلِ
 ووجوه البلاد تنتظر الغيب- س انتظارَ المحبِّ رجوع الرسولِ

ويمدح أبوهلال العسكري الشتاء فيقول :

لست أنسى منه دماثة دَجْنٍ ثمَّ من بعده نضارة صَحْوِ
وجنوسًا تبشرُ الأرضُ بالقطر كما بُشِّرُ العليُّ ببرد

وقال الأصمعي إن العرب كانت تسمى الشتاء «الفاضح» ، وقيل لأعرابي وقد هجم البرد : ما أعددت لهذا الفصل الضارب بجزرائه ؟ قال « أعددت له عُزَى المتنين . وحفاه القدمين ، وقلقلة الفكين . ودمع العينين ، وسيلان المنخرين ، مع شدة الرعدة ، وقرفصاء القعدة وذرب المعدة وكسوف البال ، وفرط البلبال ، وقلة المال ، وكثرة العيال وقيل لأعرابي ، ما أشدُّ البرد ؟ قال : إذا أصبحت الأرض ندية والسماء نقية . والريح شامية .
وزئى أعرابي يرتعد يوم قر فليل له : تحول إلى الشمس . فقال : الشمس اليوم تحتاج إلى قطيفة .

* * *

البرق وحنين العرب به إلى أوطانهم ، والغيم ، وقوس قزح ، والمطر وآراء الفلاسفة في الثلج والمطر والبرد والجليد ، كل هذه الظواهر يتوقف أمامها المؤلف طويلاً ، ويذكر ما يختص بها في النصوص الدينية ، والأدبية ، والعلمية ، طبقاً لمنهج الكتاب ، كذلك يفرد الباب السابع للرياح أنواعها ، ومواعيد هبوبها ، وأسماؤها ، وما قيل في كل منها شعراً ونثراً ، أما الباب الثامن فيتناول فيه النار ، ونار النفط ، والصاعقة ونار الفحم والكوانين .

قال العلماء : ليس في العالم جسم صِرْفٌ غيرٌ مزوج ، ومرشَلٌ غيرٌ مركَّب ، ومطلَقٌ القوي غيرٌ محبوس ، أحسن من النار ، ويقال شرابٌ كأنه النار ، وامرأةٌ حسناء كأنَّ لونها وجهها لونُ النار ، وقالت أعرابية : هذا والله وأنا أحسنُ من النار ، ويقال لمن يُوصفُ بالذكاء : ما هُوَ إلا نارٌ موقدة .

قال بعض الحكماء ، النيران أربعة نارٌ تأكل وتشربُ وهي نارُ المعدة ، ونارٌ تأكلُ ولا تشربُ وهي النار الموقدة ، ونارٌ تشرب ولا تأكل وهي نار الشجر ، ونارٌ لا تأكل ولا تشرب وهي نار الحجر ، يتوقف المؤلف طويلاً أمام ألوان النيران وارتباطها بمصادرها وأنواع الدخان ، وألوانه ، ثم ينتقل إلى أوصاف الشموع والفوانيس والقناديل والثريات والسراج ، وبمناسبة السراج يروي المؤلف حكاية لقاء النبي باليكي يقول :

« كان أبو جعفر أحمد بن البتّي ، معاصراً لليكي ، وكلاهما علم في زمانه في الأدب ، وكان كل منهما يتمنى لقاء صاحبه ، فرحل كلُّ منهما للقاء صاحبه ، فاتفق أن وصل النبي في ليلة مطيرة ذات برد وريح إلى الجزيرة الخضراء بعدوة الأندلس ، وقد أمسى ، فقصد خاناً وقد

أغلق الخانى بابه ، ففزع الباب فلم يُفتح له ، ولم يكن قدومه متوقعًا فى ذلك الوقت على تلك الحال من المطرو الظلام . وألح فى طلب البيات ، وسأله التجار أن يفتح له ففتح له ، فدخل فلم يجد موضعًا سوى بيت لا عهد له بساكن مدة طويلة ، فكنس له فيه موضعًا وأغلق بابه عليه ونام ، ثم دق الباب على الخانى ، وإذا بآخر فى مثل حاله قد قذف به الليل والليل إلى الخان ، فضج الخانى ، وأقسم ألا يفتح ، وضج الوارد من السيل والمطر وألح ورحه التجار ورغبوا إليه أن يفتح له ، فدخل ، فأرشده إلى البيت الذى فيه الوارد الأول ، فدخل عليه وسلم وهما فى الظلام ، فقام له الأول وآثره بموضعه الذى كنسه لنفسه ، وهيسأله غيره ، فعندما أخذوا مضجعيهما اجتاز بهما الخانى والسراج فى يده يطوف به زوايا الخان فدخل عليهما ضوء السراج ، فتحركت القوة الشعرية للبنى فقال بديهية :

ومصباح كأن النور فيه محيا من أحب وقد تجلى

فبادر الآخر وقال مجيزاً له :

أشار إلى ألدجى بلسان أفعى فشمس ذيله جزعاً وولئ

فنهض البنى وقال : تكون اليكى ؟ . فتبسم اليكى وقال : تكون البنى ؟ وتعانقا وتعارفا ، وعرفهما التجار ، فلم يصبحا إلا على حالة رفاهية من المال والقياش مما جعل لهما التجار ، وسمع بهما ولئى المدينة ، فأوسع لهما وأحسن إليهما ، وأقاما مدة مجتمعين وافترقا على أحسن حال .

* * *

هذا ما وصلنا من الملخص الذى قام به ابن منظور لموسوعة التيفاشى ، مجرد جزأين صغيرين لكنهما عامران بالأدب ، بالنثر ، بالشعر ، بالمعارف القديمة ، تُرى فى أى مجاهل ترقد المجلدات العشرة التى تكون مختصر ابن منظور . أم أنها اندثرت إلى الأبد ؟

مقامات يمنية

يوماً بعد يوم ، يزداد إيماني ويقيني بخصوصية القصة العربية بتفرد أشكال الحكى ، وما وما موقعنا الآن من هذا التراث الخصب لإكسواقف على شاطئ بحر ممتد ، مجهول ، لم يكتشف بعد . لم ندرك بعد كل دُرّه ونفائسه .

أقول هذا بعد طول ممارسة ، وطول اطلاع وسبر مجاهل طال انقطاعنا عنها ، منذ أسابيع لزممت كتاباً جديداً ، نفيساً ، صدر منذ عامين في صنعاء اليمن ، واستغرق هذه المسافة الزمنية الممتدة حتى وصل إلى القاهرة بشكل استثنائي خلال معرض القاهرة السنوي ، وسُقيا لأيام خوالٍ بعيدة جداً ، لم تكن فيها طائرات ، ولا وسائل نقل الكترونية ، كان المخطوط ينسخ في الأزهر أو الزيتونة ، أو القرويين ، أو دمشق ، أو بسوق الوراقين في بغداد ، فيصل أطراف العالم العربي أو الإسلامى بعد أوقات جد قصار ، الأوقات التي تستلزمها حركة الجمال والقوافل لا غير ، لم تكن هناك رقابة ، أو معاملة للكتاب على أساس أمنى ، هكذا وصل بنا الحال في عصر التقدم ، لكن هذا موضوع آخر ، التفصيل فيه يطول ، والخوض فيه ذو محاذير ، فلنرجئه . . لعل وعسى ، ولنتوقف لحظات عند هذا الكتاب .

* * *

« مجموع المقامات اليمنية » ، جمع وتحقيق ، عبد الله محمد الحبشى ، يضم ثمانياً وثلاثين مقامة فريدة ، تختلف تماماً عن مقامات بديع الزمان الهمداني والحريرى والزخشرى ، وما وصلنا من مقامات أندلسية ، اختلاف لا يقتصر على الشكل فقط ، ولكن في المضمون أيضاً ، واليمن بلد غنى ، ثرى بالتراث ، منه جاء كتاب « التيجان » لعبيد بن رية الجهمى ، الذى اعتبره عملاً فنياً ، روائياً ، شديد الخصوصية ، وما يزال التراث القديم حيّاً يُروى في القرى التى تقف عند الحد الفاصل بين القمة والهوة ، بين المادة والفراغ ، أو على سفوح الجبال ، راقد في بطون المخطوطات القابعة في خزانة الجامع الكبير بصنعاء ، أو هذا المسجد العتيق المدثر بالزمن في بلدة « مُشلا » ، والذى ما زال لون الضوء في فراغه الرخيم يتراءى أمامى ،

سواء وليت شرقاً أو غرباً ، أولزمت مكانى ، كل ما أرجوه أن تتواصل جهود جمع التراث اليمنى التى يقودها واحد من خيرة المثقفين العرب ، الدكتور عبد العزيز المقالح ، قبل أن تطمر بوسائل التحديث ، التليفزيون ، السينما ، وما شابه أ
كان لأهل اليمن تقدير كبير لمقامات الحريرى ، وفى كتبهم الأدبية تتناثر الإشارات إليها ، يقول من ترجم للعلامة أحمد بن عمر المزجد المتوفى ٩٣٠ هجرية .
« كان إذا سئم من القراءة والمطالعة استدعى بمقامات الحريرى فيطالع فيها ويسميها طبق الحلوى . . » .

ونمضى مع شروح أدباء اليمن لمقامات الحريرى ، فنجدها تقرر فى دروسهم العلمية وبرغم تأثرهم وإعجابهم بها ، فلم يقلدوها عندما شرعوا فى إنشاء مقاماتهم هم ، فى المقامات اليمنية لا يوجد بطل واحد محورى ، مثل « أبو » الفتح السكندرى وعيسى ابن هشام عند الهمداني ، أو الحارث بن همام « وأبو » زيد السروجى عند الحريرى ، فى اليمن نفاجاً بنوعية جديدة ، بطلها فريد ، ليس فى الأدب العربى وإنما فى إطار الأدب العالمى ، مرة يكون البطل إنساناً عاقلاً ، ومرة يكون حيواناً ، ومرة يكون جماداً ، أو عنصراً من عناصر الطبيعة كالهواء أو البحر أو عنصراً معمارياً كالمسجد والبناء ، أو مكانياً كالمضاحية والمقاطعة ، ويضفى المؤلف على هذه العناصر أحاسيس إنسانية ، ويُنطقها بمشاعر شتى ، وهذا أمر فريد ، ولتوضيحه يجب استعراض موضوعات المقامات .



المقامة الأولى بعنوان « المفاخرة بين الشمعدان والقنديل » . ويغلب عليها الطابع اللغوى ذو الطابع الدينى ، وتنتهى بالمصالحة بين الطرفين المتنازعين بعد أن يستعرض كل منهما مزاياه وينتقد عيوب الآخر ، يرجع تاريخها إلى القرن السابع الهجرى ، أما مقامة « كاشف الغمة فى المفاخرة بين النخلة والكرمة » فيدور الحوار فيها حاداً ، ويستعين كل طرف بالأحاديث النبوية ، والآيات القرآنية ، ويتنصر المؤلف محمد بن أبى القاسم النجدى (٨٢٥ هـ - ٨٧٤ هـ) للكرمة .

« فلما قرع النخلة ما خرس لسانها عن الجواب وعلمت أنه ذهب بها عن منهاج الصواب ، أخذت تلوم نفسها حيث لا ينفع الملام والباحث عن حفته بظلفه جدير بأن يلام . . » .
وفى « المقامة المنظرية » لإبراهيم بن محمد الوزير (توفى ١٠١٣ هـ) ، وفى مقامة « أقراط الذهب فى المفاخرة بين الروضة وبئر العزب » للأديب عبد الله بن على الوزير ، نجد طرفى المقامة مكانين ، فالروضة وبئر العزب ضاحيتان لصنعاء ، وهناك مقامة أخرى حول نفس

الموضوع للأديب الحفنجي (توفي ١١٨٠ هـ) ، أما مقامة «الطراز المذهب» لابن أبي الرجال (توفي سنة ١١٣٥ هـ) ، فأبطالها مساجد تشكو أحوالها بعد نضوب أموال الأوقاف ، والصياغة على مستوى فني عال ، يعتمد على الحكمة الفنية والحوار الأدبي رفيع المستوى ، وفي المضمون قدر هائل من الجرأة في نقد الأوضاع نشك في أنه يمكن تحقيقه في أدبنا المعاصر خشية ردود الأفعال والمصادرة وضيق الأفق الذي استشرى في حياتنا الأدبية والفكرية .

* * *

«فقصد مسجد (جناح) وأوضح له الشكية غاية الإيضاح ، وطلب منه أن يواسيه أو يشير عليه بالنصيحة أو يؤسبه ، فأطرق (جناح) إطراق الأفصوان ، ثم رفع إليه رأسه بعد زمان وقال : قد عرفت ضعف حالك وركة مسعاك وخيبة آمالك ، وأنا وأنت من زمن الأتراك ، ولا يريد لنا الناظر غير الهلاك ، فنزل نفسك منزلة الغريب وسيأتك الفرج عن قريب ، فكم كربة في غربة ، ومنية في أمنية ، وهكذا حال الغريب إذا ظعن عن الوطن والحبيب . . .»

يشكو مسجد آخر ولكن شعراً في مقامة نظمها عبد الله الشامي ، وتشكو مساجد الحديدية شعراً في مقامة أخرى نظمها صائم الدهر الأهدل ، ونلاحظ هنا جرأة أدباء اليمن في النقد الاجتماعي والسياسي ، ويضفي الحوار بين أطراف متعددة حيوية وطرافة على النص الأدبي . ومن أغرب المقامات تلك التي جرت على ألسنة الحيوانات .

* * *

كتب الأديب يحيى بن إبراهيم جحاف (توفي ١١١٧ هـ) مقامة على لسان بقرة ، وسأها بقرة السيد إسماعيل بن محمد زين العابدين ، يقول :

«وكانت من المتوكلات على رب العالمين ، جوابة ، طوافة ، كثيرة التنقل من حافة إلى حافة ، قالت : خرجت في بعض الأيام من السافل لا لتقاط فضلات المآكل ، والتعرض لما يسره الله من الغساول ، فما زلت أطلب المعيشة وانتقل من ريشة إلى ريشة ، حتى شاعت في المقالة وعرفت بالبقرة الجلالة .

وتمضى البقرة تقص لقاءها ببقرة أخرى ، ويدور حوار جاف بينهما ، وتختمه بقرة السيد إسماعيل قائلة .

«وخرجت من عندها وقد يبس ريقى وجهلت طريقي ، ورأيت عدوى في ثياب صديقي ، وجرت من عيني دمعة ، وفعلت لي في العالم سمعة ، وليتها قربت لي قليلاً من

الرقعة . ونويت أنى لا أوجه إليها الكلام ولا أسلم عليها ما حيتت السلام ، ولا أعود إليها
ولا أعود عليها . . . » .

وللأديب نفسه مقامة أخرى في الكتاب ، بعنوان « مقاومة في انقراض الدولة المتوكلية ،
وفيها نجد درجة رفيعة من الشتر العربى ، أما مقامة إحراق الكتب فمن النصوص الجميلة
الفريدة ، لذا اتوقف عندها قليلاً . . .

* * *

كتبها محمد بن إسماعيل الأمير (١٠٩٩ هـ - ١١٨٢ هـ) ، يبدو أنه كتبها بعد حادثة
تعرضت فيها الكتب الأدبية للاضطهاد ، يقول في مفتحتها :

« الحمد لله المؤدب بأحسن الآداب ، والصلاة والسلام على من قال « إنه لا يعذب بالنار
الأدب الأدباب » وعلى آله الذين آدابهم ألطف من « نسمة السحر » في الروضة النندية
ومفاكتههم ألد من الحدائق الوردية . وبعد فإنه ورد إلينا سؤال دامع العين لاطمًا للخذود .
قائلًا « يتيمة الدهر » قد أوردت النار وبئس الورد المورود . طالبًا للجواب فيما يلزم من ارتكب
هذه العظيمة وما جزاء من عدب بالنار تلك اليتيمة . فأقول : إن صح ما قاله من تحريق تلك
العدراء التى من (الحور العين) ومن إلقائها في النار كأنها من قسراء الشباطين ، فأقسم
ب(دمية القصر) مقلدة (بقلائد العقيان) و(سلافة العصر) ، يديرها الفتح بن خاقان ، لقد
ذوى (ريحانة الأدب) و (روضة المشتاق) بما ارتكب من عظيم التمزيق والتحريف
والإحراق ، وأقلعت سحب (الغيث السدى انسجم) . وصاح ديوان الأدب : يا الله
للمسلمين ، أيهان فيما بينكم الأدب ويهتضم ؟

ويمضى الحوار على السنة أشهر كتب الأدب العربى ، لى أن يقول المؤلف فى النهاية :

« إن هذه الجناية تقصر عن جواب السائل عنها علماء الرواية والدراية ، وأنه لجدير بأن
تسفك فيه دماء المحابر وتراق ، وأن تقوم الحرب بين ذوى الآداب منهم على ساق ، فلينبصل
السائل المقال ، وليوضح من أى الطرفين وقع السؤال ، بعد أن يصلى ويسلم على محمد وآله
خير آل . . . » .

* * *

ونمضى مع المقامات اليمينية ، « براهين الاحتجاج والمناظر فيما وقع بين البندق والقوس
من المفاخرة » لإبراهيم الهندى ، و « المفاخرة بين الشمعة والسراج » لحسين بن صالح ابن

محمد أبى الرجال ، « والمفاخرة بين العجائز والبنات » لعلى الخفنجى و « المفاخرة بين العنب
والخل » لمحمد الأمير ، و « المفاخرة بين القرط والعقد » لمحسن بن عبد الكريم اسحاق .
« مسامرة السرفاق فى مناظرة القات والتباق » للفقيه عفيف بن هبة القاضى ، و « المفاخرة بين
الثور والحيار » لعمر بن عبد الله المعلمى ، هكذا تنطق كل عناصر الوجود ، المتكلم منها
والأعجم ، عناصر البر والبحر وهذا الشكل من الإبداع ليس منبت الصلة بالأدب العربى .
فى الأقطار الأخرى ، نجد ملامح قريبة فى مقامات السيوطى ، وفى التراث العربى الأندلسى
نجد نصًا لابن الخطيب يتضمن مفاخرة بين بلدتى مالقة وسلا ، وثمة نص آخر لابن عبد
الظاهر يتضمن مفاخرة بين دمشق والقاهرة ، ويشير عبد الله الحبشى جامع المقامات اليمانية
أن هذه النماذج السابقة لم تصغ فى شكل قصصى ، إنما كتبت مباشرة على هيئة حوار ، أما
المقامات اليمانية فتتضمن صيغا أدبية قصصية فريدة ، ومتكاملة ، ولكم نتمنى الاهتمام بها ،
وإعادة اكتشافها ، أم . . لا بد من الانتظار، حتى يقع عليها أحد الباحثين فى الغرب ،
عندئذ تبدل النظرة ، وتتضح القيمة التى تغيب عن الكثيرين الآن ؟

زخرفة .. الف ليلة

مدينة فاس ، ١٩٧٩ . .

أحد أيام ديسمبر ، أى منذ خمس عشرة تقريبًا ، وقفت في فناء مدرسة العطارين ، أتأمل النقوش التى تغطى الجدران ، قطع الزليج الدقيقة . المختلفة ، التى تشكل وحدات زخرفية رائعة ، متصلة ، منفصلة ، لا نهائية ، تبقى الناظر إليها فى تأمل دائم ، أما المقرنصات الجصية ، والخشبية ، فتتراكم فى تجاور بديع ، لا يلغى خصوصية كل منها .

يومها انبثق داخلى الخاطر ، لو أننى أقدر على تحقيق ذلك فى النثر ، أكون حقًا أنجزت أمرًا فريدًا ، على مستوى اللغة ، أو على مستوى التكوين ، وبالأخص ، المعمار الروائى ، ولأننى أؤمن أن الرواية هى فن كل الفنون ، لم يزل هذا دأبى ، وجوهر جهدى ، يدفعنى إلى ذلك الرغبة فى تحقيق الخصوصية ، من خلال عناصر مختلفة ، متصلة أوثق الصلة بالمضمون ، بمشاعرى ، برؤيتى للحياة والكون ، ومحاولتى النفاذ إلى كنه الصيرورة . صيرورة الزمن ، والوقت .

ومع معايشتى لألف ليلة وليلة ، اكتشفت أن القصص القديم حقق هذا بالفعل ، وأن الرؤية التى كانت تحكم الفنان العربى المسلم ، سواء كان خطاطا ، أو رسامًا ، هى نفس الرؤية التى كمننت فى عمل الراوى القديم المجهول الذى صاغ هذه الحكايات . أو تلك الملاحم الكبرى ، مثل الهلالية ، وسيرة سيف بن ذى يزن ، وذات الهمة . وعنتره . واستمر فى التوقف عند ألف ليلة وليلة التى اعتبرها ذروة فن القص العربى ، وعندما أقول العربى ، فإننى أعنى التراث الثقافى والفنى الداخلى فى عناصر تكوين الثقافة العربية . والمنتضى إلى حقب تاريخيه مختلفة ، وديانات متعددة ، وحضارات متعاقبة ، متجاورة . ومؤثرات . . وافدة ، متفاعلة من ثقافات أخرى .

* * *

يقول الباحث التونسى الأستاذ على اللواتى ، إن التجريد الزخرفى ، بدأ من تبسيط

الأشكال النباتية ، بدأ هذا الفن انطلاقه في العصر العباسي ، وتحول الفن الإسلامي في جزء كبير منه إلى فن نقشى يجسد كلام الله . ناشراً آياته فوق كل شيء يصنعه الإنسان ، كما أصبح فناً للزخرفة النباتية والهندسية ، زخرفة مطلوبة لذاتها ، لا لمجرد التزيين . وهو أيضًا فن خصب ومتنوع بشكل مذهل ، ويرمى هذا التزيين بتنوعه الخارق ، وإيقاعه المتواصل « ذهنيًا » خارج المادة التي تحملها ، إلى إيجاد متعة منقطعة النظير ، تتصل بالتأمل في الله ، المقتدر غير المحدود الذي يعجز الإنسان عن وصفه ، وذلك بعيدًا عن أي شكل طبيعي معروف ومحدد ، يمكن أن يلهي الإنسان عن وجهه الكريم .

لقد أدت النصوص المقدسة والقائلة بتحريم التشبيه إلى إيجاد فن بالغ الخصوصية قائم بذاته ، ولا يتعارض مع أحاديث النهي عن التصوير ، لقد لجأ الفنان المسلم إلى عدد من الأساليب التشكيلية التي ترمي إلى الابتعاد عن نقل الواقع كما هو إلى الصورة .

ويرى الباحث الأوروبي الكسندر بابا دبولو ، أن الفنان المسلم تكيف مع مطالب النهي الديني ، وأدى هذا إلى تصور خاص جدًا للعمل الفني في الحضارة الإسلامية وهو أن هذا العمل ينبغي ألا يكون مرآة أمينة للعالم المرئي ، بل عالمًا خاصًا من الأشكال والألوان يحكمه منطق تشكيلي داخلي . ويؤكد بابا دبولو في بحثه الذي ناقشه في جامعة السوربون وترجم مقدمته على اللواتي « أن الفنان المسلم قد اخترع جمالية الفن الحديث قبل ستة أو سبعة قرون وأن « جوهر كل فن وقانونه الأسمى هو أن يكون عالمًا مستقلًا وألا يخضع إلا لمنطقه الخاص » .



عندما صاغ الفنان التشكيلي المسلم رؤيته تلك ، كان يستمد عناصرها من التراث الإنساني القديم ، وإذا نظرنا إلى الأشكال الرئيسية في فن الزخرفة العربي سنجد أصولها في ثقافات العالم القديم .

المربع ، أصله يوناني ، ويرمز إلى العناصر الأساسية الأربعة التراب ، الماء ، الهواء ، والنيران .

أما المثلث فينحدر من العصر الفرعوني ، يعبر عن الصلة بين السماء والأرض . بين البداية والنهاية التي تتلاشى في نقطة من الفراغ ، نقطة اتصال المادة بالروح ، اليس هذا ما يوحى به بناء مثل الأهرام . واعتقد أن المثلث الفرعوني هو الأصل التاريخي للمنجمة السداسية التي أخذها الإسرائيليون واعتبروها رمزًا لهم .

أما الدائرة فأصلها مصري وهندي ، ترمز إلى الشمس ، إلى أفق السماء ، إلى الوحدة ، إلى البداية والنهاية ، إلى الاتصال والانفصال ، في كل نقطة من محيطها تبدأ وتنتهي أيضًا . تمامًا

كدورة الحياة ، كالحياة التي تتضمن الموت والموت الذى تنبعث منه الحياة . إنها المحيط الذى يدور حول المركز . .

فلنعتبر أن الحكاية التي تبدأ منها قصة شهرزاد نفسها هي مركز الدائرة ، وهي منطلق الخط المستمر ، اللانهائى ، الذى يحيط ويتخلل أيضًا ما تحويه الليالى من حكايات .

داخل السدائرة يمكن أن يتم في فراغه تشكيل المربع ، والمثلث ، وشبه المنحرف ، والمستطيل ، ثم تتجزأ المساحات الناشئة إلى مالا نهاية ، أما شكل اللولب ، المستوحى من كرمة العنب فأصله سومرى ويونانى ، أما المخمس فيونانى ، والمثلث فينسب إلى الخاتم السليمانى .

ثم تقابلنا بقية الأشكال من عقد ، ووضائف ، وأطباق نجمية ، وشبكات ، وتختلط المؤثرات المنحدرة من فنون العالم القديم ، منصهرة في رؤية الفنان المسلم الجديدة ، التي حققت بالفعل الخصوصية . .

* * *

لا يعنى ثبات هذه الأشكال جهود الفن الإسلامى الزخرفى ، ومضيه وفقًا لقواعد محددة ، إنها كان همُّ الفنان وشغله الشاغل البحث عن تكوين جديد مبتكر يتولد عن تماس قواطع الزوايا ومزاوجة الأشكال الهندسية لتتوالد باستمرار في حيوية وتدفق لانهايين . ويقابل هذا في ألف ليلة الوحدة والتنوع ، فالعمل يحفل بمئات القصص التي تختلف شكلًا ومضمونًا . عوالم متتابعة ، تبدو متصلة ، لكنها مستقلة .

في الرسم الزخرفى الإسلامى ، تتأمل الوحدة ، وفي اللحظة التي يخيل إليك أنها انتهت ، تفاجأ عند نقطة معينة في الفراغ أن الوحدة التالية تبدأ . تمامًا كقصص ألف ليلة وليلة . إذ توشك الحكاية على التمام ، على الاكتمال ، تبدو جهة وكأنها عارضة ، يضرب مثل وكأنه قيل مصادفة ، كلمات قليلة لكنها تؤدي إلى بداية حكاية جديدة ، والدافع يكون غالبًا الحكى من أجل النجاة .

شهرزاد تقص كل ليلة ما يقرب من ثلاث سنوات متصلة حتى تنقذ نفسها ، وبنات جنسها .

التجار الثلاثة يحكى كل منهم ما جرى له ، مع الغزالة ، والكلبتين ، والبغلة ليعفو الجنى عن صاحبهم . هكذا الأمر في قصة الحيال والبنات الثلاثة . هذه القصة التي أدعو المتخصصين إلى دراستها . وتحليل عناصرها ، ومقارنتها بالأشكال الزخرفية العربية ، مبدئيًا .

سنجد أنها تحتوي على اثني عشرة حكاية متداخلة ، تشبه النجمة الزخرفية الأثني عشرية . لكن هذا التقسيم ليس نهائيًا ، فلو أمعنا النظر سنجد أنه من الممكن تجزئ هذه القصص المتداخلة إلى أخرى . وعندما توشك القصة المركزية المحيطة على الانتهاء ، تبدأ قصة التفاحات الثلاث ، ومنها تتفرع حكاية المرأة التي قتلت ظليًا ، وحكاية الوزيرين نور الدين المصري ، وبدر الدين البصرى ، ومن ثم حكاية حسن البصرى ، ثم حكاية ابنه . وحكاية زوجته ، ثم تبدأ قصة الأحذب الذى يتهم بأربعة الواحد تلو الآخر ، لكل منهم حكايته ، آخرهم المزين الذى يقص سبع قصص ، كل واحدة تتعلق بأحد . أخوته ، وهكذا إلى مالا نهاية ، حتى وإن بدأ ثمة خاتمة فإنها تتضمن بداية جديدة . .

* * *

تمضى الخطوط في فن الزخرفة العربى وفقاً لنظام خفى ، صارم ، لكنه تلقائى أيضًا ، يتقاطع الخط بالخط عند نقطة معينة فكأنه تقابل المصائر ، وفي اللحظة التى تلتحم فيها النقطة بالنقطة ، يقع الفراق ، فتتخذ الخطوط وجهاً شتى .

وخلال هذا التلاقى والتفرق تتوالد الأشكال المختلفة . من مربعة ومخمسة ومسدسة ، من هندسية وأخرى مورقة . إن الغاية من التكوين هنا هى التعبير عن الكل . وليس إبراز شكل معين لذاته . لكن هذا الكل أيضًا يحتوى على الموجودات ، والتفاصيل الصغيرة ، الدقيقة ، وربما يفسر هذا المنظور الإسلامى فى المنمنمات التى تزين المخطوطات القديمة ، حيث تتجاور المستويات ، ويتفرع كل منها عن الآخر ، فترى الواقع فى جملة ، وليس فى محدوديته ، وإن لم يغيب عن الناظر أدق التفاصيل .

* * *

من خلال معايشتى لألف ليلة وليلة ، أقول بوجود صلة وثيقة بين فن العمارة الإسلامية ، وفن الزخرفة العربى ، صلة نتاج تكوين خاص ورؤية لعل إدراكها والوعى بها يسهلمان فى فهم عناصر القص العربى واستيعابها من أجل الوصول إلى أشكال خاصة تسهم فى إتاحة فرصة أكبر ومساحة أوسع للتعبير .

ما طرحته يمثل الخطوط العامة لاجتهادات شديدة الخصوصية تبلورت عندى أثناء معايشتى لهذا العمل الفذ الذى أزعج أن أسراره لم تتكشف بعد . ربما أصبت ، وربما أخطأت ، لكننى فى كل الأحوال أشير وأحاول لفت النظر . .

مدينة ألف ليلة وليلة

منذ فترة ليست بالقصيرة ، أعيش ألف ليلة وليلة . .

لا أقول قراءة ، وإنما معايشة . هذا دأبي مع القصص الأدبية العظيمة . إن في أدبنا العربي . أو الآداب الأخرى ، عرف معظمنا ألف ليلة وليلة منذ الطفولة ، سفر حكايات وأعاجيب . ومع بدايات المراهقة كنا نطالع سطورا قليلة تحوى إشارات جنسية ، سطور جعلت الكتاب منبوذاً إلى حد ما حتى بعد حذفها من الطباعات الحديثة . بدأت فوضعت أمامي طبعات ثلاثا رئيسية اجتهدت زمناً حتى اقتنيتها ، طبعة كلكتا ، طبعة بولاق ، وأخيراً . . طبعة الدكتور محسن مهدي ، بدأت من الأخيرة مع أنها صدرت منذ سنوات قليلة ، وأين . . في بريد ، دار النشر الهولندية العتيقة التي أصدرت عددًا من أهم المصاحف العربية . هذه الطبعة تحوى أقدم نصوص مكتوبة ، عن مخطوطات محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس ، وأخرى توزعت على العديد من البلدان ، وفي حدود علمي فمحاولة الدكتور محسن مهدي الأولى من نوعها لضبط وتحقيق أصول النص . أما طبعة كلكتا فهي أقدم طبعة للكتاب (١٨١٤) . أما طبعة بولاق (١٨٣٥) فهي أشهرها ، لأنها اعتمدت أصلاً خطيا واحدًا ، ولست هنا في مجال تقييم الطباعات الثلاث ، أو تقييم الجهد العلمي الرائع الذي قام به الدكتور محسن مهدي ، إنما أشير فقط إلى بعض الانطباعات الخاصة المتولدة نتيجة معايشتي لهذا النص العالمي ، الذي تأثر به الأجانب أكثر مما تأثرنا نحن به ، والنقطة التي تعينني الآن ، هي انعكاس الفنون العربية والإسلامية على تصميم الكتاب وبنائه الداخلية . بالتحديد ، العلاقة بين تصميم المدن العربية وفن الزخرفة العربي . وبين تصميم ألف ليلة وليلة .

* * *

القاهرة القديمة ، فاس البالية بالمغرب ، مراكش ، صنعاء العتيقة ، البصرة مدن عربية عرفتھا ، وعاشتھا ، في الأولى أمضيت جل عمري ، وفي الأخرى تجولت وشاهدت وعانيت ، في عام خمسة وثلاثين وتسعمائة وألف ولجت قصبة تونس ، شارع رئيسي مؤدى ،

عريض ، تمامًا مثل قصبة القاهرة التي كانت تصل بين بوابتها الرئيسية وقلعة الجبل ، هذه الطرق الفسيحة ، يتفرع منها خطط ، جمع خط ، أى طرق طويلة تحيط بناحية متكاملة ، وهذه الخطط تؤدي إلى بوابات ، كل مدخل إلى حارة ، والحارة داخلها مجموعة من الدروب ، والدروب تتفرع إلى أزقة ، أو زنقات كما تعرف في المغرب ، وأحيانًا تحتوى على عطفة ، هكذا يتولى تصميم المدينة العربية القديمة من الأفسح ، إلى الضيق فالأضيق ، طبعًا هناك مركز ديني وهو المسجد الجامع ، ومركز ديني هو قصر الحاكم أو القلعة . هذا تصميم لم يأت من فراغ ، إنما هو نتاج ظروف اجتماعية ، ومناخية ، ومعمارية ، وعسكرية ، ألم تؤد متاهات قصبة الجزائر إلى جعلها مقرًا للمقاومة ، صعب على الجند الغرباء اختراقها ، نفس الوضع واجهه نابليون في القاهرة القديمة مما دفعه إلى محاولة إزالة أبواب الحارات . في الطرق الكبرى تنتظم الأسواق ، هنا يجتمع المجمع ، يجتمع الناس حاجاتهم ، ولكن بيوتهم هناك في داخل الحارات والأزقة والدروب ، حيث الحيوانات الخاصة ، حيث يتجزأ العالم الكبير إلى عوالم صغيرة ، أما هذا التصميم فيؤدي إلى حجب الرياح المثيرة للأتربة ، الحارة ، إلى كسر حدتها ، إلى ميل الظل على الظل ، إلى الرحمة بالمارة ، والحد من التيارات الباردة في الشتاء ، تصميم يبدأ من الكلى ، ويتجزأ ، حتى يدق ويخيل إليك أنه سيتلاشى فيبدأ عندئذ من جديد .

إذن . . كيف يبدو الأمر في مدينة ألف ليلة وليلة التي تحوى البلاد والمحيطات والمعائب والغرائب ، والمصائر والحيوات . .



المركز . أو البؤرة هنا ، حكاية الأخوان الملكان ، الأول يرى امرأته تخونه مع عبد أسود . يبيع يخرج قاصدًا أخاه ، يسمى إلى إيجاد تفسير ما جرى له ، وهناك يرى الجوارى العشر ومعهن امرأة أخيه مع العبيد السود ، ومن يرى مصيبة غيره تهون عليه مصيبته ، يحكى لشقيقه ما جرى ، فيخرجان هائمين ، وفي البر الفسيح تبدأ حكاية العفريت الذي وضع معشوقته في صندوق محكم ، والتي تنتهز فرصة نومه لتجبر شهريار على موافقتها . وبعد أن رأى شهريار ما رأى يعود إلى ملكه كارها النساء ، مقررًا الزواج من المرأة ليلة واحدة فقط ، حتى تتطوع شهرزاد للزواج منه ، مضمرة الخطة والنية على إنقاذ بنات جنسها ، وإزاء إصرارها يحكى لها والدها حكاية الحمار والشور ، تصر على قرارها ، فيحكى لها حكاية أخرى ، يريد إنقاذها بالحكاية وهي تضم النية نفسها أيضًا ، تريد إنقاذ نفسها وبنات جنسها بالحكاية أيضًا ، فهي تحكى لكى لا تموت . وهنا سر توالى الليالي ، وليست هي فقط التي تفعل ذلك ، ولكن معظم الشخصيات التي تروى سيرتها يقدمون أيضًا على الحكى حتى لا يموتوا ويتزوج شهريار

من شهرزاد ، وتطلب هي من أختها دنيا زاد أن تطلب منها قصص بعض ما تعرفه ، هكذا تبدأ الليالي ، وهكذا تتم الحكاية المركز ، والتي هي أيضًا بمثابة المدخل ، البوابة الرئيسية المؤدية ، أو السور المحيط ، الملتصق ، وهذه البوابة ، أو هذا السور ، ليس كلا واحدًا ، إنها يضم أجزاء عدة أيضًا . ولكنها أدق ، تؤدي في مجموعها إلى الجزئي أيضًا . .

* * *

تبدأ الليالي في أقدم نصوصها الخطية بحكاية التاجر الذي رمى نواة البلح فقتل جنيا بدون أن يقصد ، وظهور والد الجنى الذي يتوعده بالقتل ، فيطلب التاجر مهلة سنة حتى يعود إلى أهله ويسدد ديونه للناس ، وبعد سنة يرجع فعلاً إلى نفس الموضع ويجلس منتظرًا وهنا يقدم عليه ثلاثة شيوخ لكل منهم حكاية غريبة ، يرجو كل منهم الجنى أن يصنعى إلى ما جرى له ، فإذا وجدته غريبًا يهب له ثلث دم التاجر ، وتتفرع أمامنا ثلاث حكايات ، حكاية الشيخ الأول وامرأته التى سحرته إلى غزالة ، والثانى وأخويه المسحورين كليين ، والثالث وابنة عمه المسحورة إلى بغلة ، تؤدي الحكايات الثلاث المتفرعة إلى إنقاذ التاجر .

هكذا . تنتهى خطة أو حارة ، لكنها ليست سداً ، إنها تؤدي إلى حارة أخرى ، ونقطة الأصل عبارة تردد على لسان شهرزاد « وليس هذا بأعجب من قصة الصياد والعفريت » ، أو « أين هذا مما سأحدثكم به الليلة المقبلة » ؟ .

تبدأ الحارة التى تضم حكاية الصياد الذى أخرج العفريت من القمقم ، فقرر العفريت أن يكافئه باختيار طريقة لموته ، يتحايل عليه الصياد حتى يعيده إلى القمقم . ويرجوه العفريت الإفراج عنه ، وهنا يتفرع درب من الحارة الرئيسية ، يحوى حكاية يرويها الصياد عن الملك يونان ، ولكن هذا الدرب يتفرع إلى آخر ، فيه حكاية التاجر والبيغاء التى يرويها الملك يونان نفسه . وهذا الدرب يؤدي إلى رحبة صغيرة يخرج فيها العفريت من القمقم ، بعد أن يقرر مكافأة الصياد ، ثم تتفرع الرحبة إلى عدة دروب وأزقة متداخلة ، فالعفريت يقود الصياد إلى بركة السمك الملون ، « ومنها يأخذ الصياد أربع سمكات إلى السلطان ، لكل سمكة حكاية ، هذا يقود إلى حكاية الشاب المسحور ، ثم إلى حكايته مع زوجته التى خانتها ، ثم حكاية المدينة المسحورة التى تقع على بعد نصف نهار . . عند ذهاب الصياد بمفرده إليها ، ولكن عندما يصاحب السلطان ويقف على ما جرى فيها ، يكون الركب كله فى حاجة إلى سنة كاملة للعودة . (لننظر هنا إلى تخطيط الزمن والمسافات المكانية ، ولكن هذا موضوع آخر) .

ينتهى الخط الذى يحوى حكاية الصياد العفريت ، هذا الخط الذى تفرعت منه حكايات شتى ، كل منها بمثابة حارة ، درب ، زقاق ، عطفة ، رحبة ، لتبدأ حكاية أخرى من أجل وأعقد حكايات ألف ليلة ، وهى حكاية الحمال والثلاث بنات .

يلتقى الحمال بإحدى البنات في السوق ، تقوده إلى البيت حيث شقيقتها ، يشترطن عليه إلا يتكلم عما يشاهده ، ثم يصل القرنديان ، ثم يصل الخليفة هارون الرشيد ووزيره ، وهارون الرشيد شخصية تتكرر كثيراً في حكايات ألف ليلة ، إن ظهورها يمثل أحد عوامل الوحدة في هذه المدينة الهائلة ، أو النغم الذي يتكرر على مسافات معينة ليؤكد وحدة العمل ، وتماسكه .

البنات يصرخن ، يضرين بعضهن ، ويجلدن الكلبتين السوداوين ، الخليفة لا يطبق صبراً يريد أن يعرف حكايتهن يدفع بالحمال كي يسأل ، البنات يغضبن ، يستدعين العبيد السود السبع ، يأمرهم بقطع رقاب الضيوف ، ولكنهن يستفسرن عن سبب عور القرنديلة ، فتبدأ حكاية القرندي الأولى ، كيف فقد عينه على يد الوزير ؟ ومنها تتفرع حكاية أخرى ، عن ابن عم القرندي ، ثم تتوالى حكايات القرندي الثاني ، ثم الثالث والتي يرد فيها ذكر جبل المغاطيس ، والقصر المعلق في الهواء ، والجواري الأربعين ، والباب التاسع والتسعين . بعد انتهاء حكايات القرنديلة الثلاث ، تقص البنات الثلاث ما جرى لهن ، وتنتهي حكاية الحمال والثلاث بنات . ولكنها لا تؤدي إلى جدار مسدود ، إنها تبدأ منها حكاية التفاحات الثلاث .

هكذا تتوالى الحكايات ، منها الرئيس ، والفرعى ، كل حكاية تؤدي إلى الأخرى يبدو الأمر تلقائياً ، وكأنه بدون ترتيب ، أو يخضع لتداعٍ تلقائي ، ولكننا إذا أمعنا النظر سنجد نظاماً محكمًا . صارمًا ، ربما لا يفصح عن هندسة البناء وحركته . واتجاهات القارئ المتعجل ، أو الذي لا يقرأ ألف ليلة وليلة قراءة عميقة جادة ، متعمقة ، غير متأهبة بنفس القدر الذي يتم به التأهب للتعامل مع نص أدبي نقل إلى لغتنا مما تعارفنا على تسميته بالأدب العالمي ١١

* * *

. . في النص الذي حققه الدكتور محسن مهدي قصتان مستقلتان ، لا يتفرعان من حكايات فرعية ، إنها يتصلان بالحكاية الإطار ، الحكاية الكبرى التي محورها شهر زاد نفسها ، إنها حكاية ابن بطار والجارية شمس النهار ، وحكاية أنيس الجليس ، ونور الدين ابن خاقان . أنني اعتبرهما بمثابة ضاحيتين لمدينة ألف ليلة وليلة الكبرى ، ضاحيتان منفصلتان لكنها متصلتان .

« ولكن علاقة النص الأدبي بالمدينة العتيقة . لا يمثل الوجه الوحيد للتفاعل والتشابه بين الفنون العربية المختلفة ، هناك فن الزخرفة ، وتكويناته ، ووحداته المتشعبة المنفصلة ، المتصلة ، ولهذا حديث آخر ، أبسط فيه بعضاً من انطباعاتي المتولدة نتيجة معايشة نص أدبي رفيع ، أتصور أنه ذروة ما قدمته الإنسانية من فن الحكى والقص . . . » .

حق الطريق في الإسلام

الفوائد النفيسة الباهرة
في بيان حكم شوارع القاهرة

يقول أبو حامد المقدسى الشافعى في مقدمة رسالته الصغيرة ما نصه :

« وبعد ، فقد وقع أوائل سنة اثنتين وثمانين بالقاهرة المحروسة حوادث عجيبة ونوادير غريبة كلها بإدارة الملك القهار ، العزيز الجبار ، مكور الليل على النهار ، والعالم بخفايا الأسرار ، فمنها قطع الطريق بالشوارع والأسواق وهدم الحوانيت والبيوت الحارثة بحريم المدارس والجوامع والمساجد البارزة في الشوارع المانعة للناس من تمام الارتفاق ، فانصلح بذلك قصبة بين القصرين من القاهرة وغيرها من الشوارع بالاتفاق فانسعت أقطارها وأضاءت ، وانكشف عنها السواد والظلمة وأشرقت وأنارت ، وزال عنها الغم والحصر والغبن . . . » .

وسبب ذلك أنه في سنة ٨٨٢ هجرية ، بلغت الأوضاع المعمارية حدًا مزعجًا في مدينة القاهرة . إذ سدت الطرق والشوارع نتيجة قيام عدد كبير من الناس ببناء بيوتهم أو منشآتهم بشكل لم يراعوا فيه ما يعرف في الإسلام بحق الطريق ، عندئذ قام الأمير يشيك بهدم ما يعترض مسالك الطرق ، وبالتالي ثار بعض الناس الذين لحقهم الضرر ، وهنا أقدم أبو حامد المقدسى على تأليف هذه الرسالة لتوضيح حق الطريق ، الذى يجب أن يتبع كيلا يحدث غبن أو هضم ، فأشار إلى أحكام الفقهاء وآرائهم في هذا الموضوع ، وتعرض لأنواع الطرق ونشأتها ، كما أوضح الأحكام المتعلقة بذلك .

الرسالة ظلت مخطوطة في المكتبة السليمانية باستانبول ، إلى أن أقدمت الدكتورة آمال العمرى على تحقيقها ودراستها ، وإصدارها في سلسلة المائة كتاب التى بدأها طيب الذكر الدكتور أحمد قدرى رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب ، والتى طبع فيها عددًا من الدراسات التاريخية الهامة ، ولكن استمرارها توقف بعد تنحيته عن الهيئة .

هذه الرسالة الفريدة الصغيرة تكشف جانبًا هامًا من جوانب الحضارة العربية والإسلامية .
وبعدًا يضحى إنسانيتها .

حقوق الطريق

للتأكيد وإضفاء الطابع الإنساني على المدينة . أشارت تعاليم الإسلام إلى « حق الطريق » وحثت على مراعاة ذلك الحق ، ومن ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أشار بهدم ما يعترض الطريق حتى ولو كان مسجدًا . راعى حكام المسلمين هذه القاعدة في مختلف العصور ، عند بناء مدينة البصرة سنة ١٤ هـ - ٦٣٥ م ، أشار الخليفة عمر بن الخطاب بالقدر الذي ترتفع إليه المباني ، ولا شك أن هناك علاقة وثيقة بين المباني والطرق المطلة عليها خاصة وأن المباني لا تنشأ في الفراغ اللانهائي ، لكنها ترتبط بالشوارع المطلة عليها . وتقول الدكتورة آمال العمري في مقدمتها ، إن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور عند إنشاء مدينة بغداد سنة ١٤٥ هـ - ٧٦٢ م ، شكل شوارعها واتساع طرقاتها بما يتناسب وعاصمته الجديدة التي نمت بعد ذلك وأصبحت من أعظم المدن الإسلامية . كان تخطيط المدينة الإسلامية يقوم على أسس مدروسة . وقواعد معتبرة تعكسها تلك الشروط التي حددها الفكر الإسلامي ، ومن بين هذه الشروط ما يتعلق بالطرق ، فيذكر شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع في كتابه « سلوك المالك في تدبير الممالك على التيام والكمال » الذي ألفه للخليفة المعتصم العباسي (٢٢٧ هـ - ٨٤٢ م) ، ضمن أحد فصوله شروطاً ثمانية يجب أن يتبناها من يريد إنشاء مدينة ، كان منها « أن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق ، وأن يبنى فيها جامعاً للصلاة في وسطها ليقترب على جميع أهلها وأن يقدر أسواقها بحسب كفايتها لينال سكانها حوائجهم من قرب » .

ولعل هذه الشروط كانت أساس تخطيط شوارع المدينة لديهم ، مضافة إلى تأثير التخطيط العام على شوارعها . وتكشف العلاقة بين المباني في المدينة وبين شوارعها عن مدى التزام المعمار الإسلامي بحق الطريق . ومن الأمثلة الحية القائمة حتى عصرنا هذا ما نراه في مقاسات بوابات المدن مثل بغداد والقاهرة ، فرغم الحرص على تحصين المدينة والارتفاع بأسوارها وتقليل بواباتها قدر المستطاع ، يلاحظ اتساع هذه البوابات وارتفاعها . ويذكر المؤرخ اليعقوبي عند وصفه لبوابات مدينة بغداد أنها كانت مرتفعة :

« بحيث كان يدخل الفارس بالعلم والرامح بالرمح الطويل من غير أن يميل العلم ولا يثنى الرمح . . . » .

نفس الشيء نلاحظه في بوابات القاهرة الباقية حتى الآن والتي أنشأها بدر الجمالي ، إن اتساع بوابات الزويلة والفتوح والنصر . إن هذا الارتفاع تطبيق عملي لأحكام الفقهاء . والتي تقول طبقاً لتعاليم الإسلام إن الطريق النافذ مباح فيه المرور لكل إنسان لأنه حق للمسلمين .

فليس لأحد أن يبنى فيه أو يخالف خط جاره ، وهذا ما حرص السلاطين المماليك على تطبيقه بحزم في القاهرة ، والرسالة التي حققتها الدكتوراة آمال العمري تلقى أضواء هامة على تلك المبادئ الهامة في الإسلام .

* * *

الفوائد الباهرة

يقول أبو حامد المقدسى بعد مقدمته . وبعد ذكره تاريخ القاهرة منذ أن اختطها الفاطميون . وبعد استعراض مفصل لما كانت عليه أوضاع المدينة خاصة شارع المعز لدين الله ، يقول :

« وأما حكم الشوارع والطرق بالقاهرة وغيرها من مدن الإسلام فيقول مذهب الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه في ذلك وقد ذكر أصحابه تبعاً له رضى الله تعالى عنهم وعنه وعن جميع العلماء أجمعين ، المسألة في كتاب الصلح في التراحم في الحقوق المشتركة كالشوارع ونحوها ، فقالوا الطريق قسيان نافذ وغير نافذ . أما النافذ وهو المراد بالذكر وهو الشارع المنفك عن الاختصاص فالناس كلهم فيه سواء يستحقون الدور فيه ولا اختصاص فيه لأحد ، بل هو مشترك عام . » .

ثم يذكر مؤلف الرسالة ما قاله الإمام مالك ، والإمام أحمد بن حنبل والإمام أبو حنيفة ، وكلهم يؤكدون حق الإنسان في الطريق العام ، ثم يذكر ما أجمع عليه الأئمة والفقهاء ، إذ يجوز لكل إنسان أن يفتح الأبواب من ملكه إلى الشارع كيف شاء . أما بناء الدكة أو المصطبة وغرس الشجرة . فإن كان يضيق الطريق ويضر بالمارة منع منه بل إذا قامت منشأة أو إضافة إلى البناء نتج عنها إقلال الضوء في الشارع فيمنع ذلك .

* * *

العلاقة المتبادلة

تحدد الأحكام الفقهية أيضاً العلاقة الوثيقة بين المباني والشوارع المطللة عليها ، والمعروف أن عناصر الاتصال والحركة للمبنى لا تقتصر على داخل المبنى ذاته ، بل تمتد أيضاً إلى ما يحيط به من شوارع وحارات وأزقة ، وبخاصة إذا كان للمبنى ملحقات أو امتداد في الجهة الأخرى من الشارع ، لذلك كانت السلام الخارجية للمباني تأخذ الوضع الجانبي ، وهذا ما نراه بوضوح في جميع المساجد المملوكية العظمى التي أنشئت داخل القاهرة . . وهناك نموذج فريد

في القاهرة للحفاظ على حق الطريق . يتمثل في ذلك البناء العلوي الذي يربط جامع قجاس الإسحاقى بالميضأة ويعبره المصلون من أعلى تفادياً لإغلاق أو إعاقة الطريق ، ويعرض هذا الجزء من البناء باسم الساباط . ويقع على ارتفاع ستة أمتار .

وفي مكان آخر نجد نموذجاً مختلفاً للحفاظ على حق الطريق ، يتمثل في قبور قمرز الشهرير ، والذي ذكره الروائي الكبير نجيب محفوظ في أعماله كثيراً ، إنه نفق يمتد تحت مسجد الأمير مثقال ، ويضمن استمرارية درب قمرز الذي يبدأ من ميدان بيت القاضي ويستمر حتى شارع المعز لدين الله .

تقول الدكتورة آمال العمري ، إن الاهتمام بحق الطريق لم يكن قاصراً فقط على داخل المدن ، إنما كان يشمل الطرق الموصلة بين البلدان . فأنشئت عليها الخانات ، ومراكز البريد ، وحفرت الآبار . وكانت قوة الدول تقاس بسلامة طرقها ، ودرجة تأمينها .

* * *

يقول أبو حامد المقدسى الشافعى نقلاً عن الإمام الغزالي إنه من المنكر في الشوارع وضع الأساطين ، وبناء الدكك ، ووضع الأخشاب وأحمال الحبوب والأطعمة ونحوها على الطرقات . ويذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى حد أنه إذا ضاق الطريق على المارة وبه مسجد ، هدم المسجد أو بعضه لتوسيعه أى لتوسيع الطريق .

وبعد أن يستعرض المؤلف أحكام سائر الأئمة والفقهاء ، يختم رسالته الهامة بقوله :

« وأقول هذا إذا اقتصروا على هدم ما وصفناه ولم يتجاوزوا الحد الذي ذكرناه ، وأما إذا تعدوا ذلك وهدموا ما لا يستحق الهدم شرعاً بل لمجرد التشهى وهوى الأنفس ليضىء المكان أو يتسع عن القدر الجائز ، فلاشك أن فعل ذلك والأمر به حرام مطلقاً ، ولا يجوز لأحد الإقدام عليه ولا الأمر به ولا الإعانة عليه لما فيه من حصول الضرر للمسلمين من هدم مساكنهم ومحل أوطانهم وإضاعة أموالهم سفهاً وباطلاً وخصوصاً هدم أوقاف الضعفاء من الأيتام والفقراء والمحتاجين من الفقهاء وقطع أرزاقهم من ذلك أو ضعفها التي قد أجزاها الله تعالى لهم على يد من اختاره من عباده » .

هكذا تكشف هذه الرسالة الصغيرة عن أحد أوجه تحضر وإنسانية الإسلام .

عميد المؤرخين المصريين

عبد الرحمن بن عبد الحكم

في ٦٤٠ هـ ، دخل العرب مصر ، ومن قبل عرفت مصر أقواما كثيرين جاءوا إليها فاتحين ، واستقروا فيها مدداً متفاوتة ، ولكن لم ينجح أحدهم في فرض لغته ، أو ثقافته كان هناك الرومان ، وقبلهم اليونان ومن قبل الفرس ، ولكن مصر بقيت هي مصر ، لقد كان تأثير المصريين أحياناً في الغزاة والفاتحين أشد من تأثيرهم هم ، كانت مصر كالبوتقة تنصهر ولا تنصهر ومع مجيء العرب إلى مصر بدت ظاهرة جديدة في التاريخ المصري ، لقد استقرت القبائل العربية في مختلف الأقاليم المصرية ، واختلط العرب بالمصريين ، وكانت الثمرة ، هي تعريب مصر ، وتمصير العرب ، ذابا معاً ، وانتشر الإسلام ، وبعد قرنين ونصف من الزمان كانت الملامح العربية لمصر قد ترسخت واتضح ، بل إن مصر أصبحت القاعدة الكبرى التي تخدم الثقافتين العربية والإسلامية في اندفاعها تجاه الغرب والأندلس ، والجنوب في اتجاه بلاد النوبة وبقية الأقطار الإفريقية . .

في هذه المرحلة الزمنية عاش عبد الرحمن بن عبد الحكم ، أقدم المؤرخين المصريين ، وأول من دون ملامح مصر العربية ، وبدايات العصر العربي الذي كان قريباً نسبياً منه ، من المصادر التاريخية نعرف أنه توفي سنة ٢٥٧ هـ بالفسطاط ، ودفن إلى جوار الإمام الشافعي ، كان عمره عند وفاته حوالي سبعين عاماً ، أي أن مولده كان في سنة ١٨٧ هـ تقريباً .

كانت أسرة بنى عبد الحكم على حظ وافر من الثراء ، لكن الأهم من ذلك هو اشتهارها بالعلم ، خاصة رواية الحديث وتحقيقه ، ورواية الحديث كانت تقتضى توفر شروط معينة في صاحبها ، إذ لا بد أن يكون ملماً بكافة الأسانيد ، ومعرفة الرواة الذين ينقل عنهم ، والقدرة على المقارنة ، بشكل عام كانت رواية الحديث هي المدخل الطبيعي الذي بدا منه المؤرخون الإسلاميون ، كان والده مؤرخاً وإخوته من كبار المحدثين ، وبالطبع نشأ عبد الرحمن بن عبد الحكم في هذه البيئة العلمية ، وتأثر برواية الحديث وانتقل بسهولة إلى رواية الأخبار ، وهكذا

كان أول مؤرخ في مدرسة التاريخ العربي لمصر ، ولكن هذا لا يعنى أن الظروف كانت سهلة ممهدة أمامه ، لقد نزلت محنة قاسية على الأسرة بعد وفاة والده أثناء الفتنة التي تسبب فيها الخليفة العباسي الواثق بالله فتنة خلق القرآن ، لقد رفض الأبناء الاعتراف بمذهب خلق القرآن كما رفضه غيرهم المتمسكون بالأصول وبسبب ذلك عانوا عذاب السجن ، ومات أحد الأخوة في سجن يزيد التركي معذبًا بالسوط ، والشوى بالنار ، كما أصيبت الأسرة بمحنة مالية واجتماعية عندما عهد إليها أن تكون حارسة على أموال أحد الولاة الذين صادرت الدولة أموالهم ، وعندما أرسلت الدولة من يحاسبهم لم تستطع الأسرة تسديد حساباتها فزج بهم في السجون ، وصادرت أملاكهم ، في ظل تلك الظروف الوعرة نشأ مؤرخنا ، اتجه في مسيرة دراسته إلى التاريخ ، ولا شك أن المضمون التاريخي لمصر ، سواء المتناقل ، أو المتمثل في الآثار القديمة كان مصدر وحى له على الإحساس بالتاريخ وتدوينه وهكذا يفتح كتابه بوصية الرسول صلى الله عليه وسلم بالقبض أهل مصر ، ثم يذكر بعض فضائل مصر ، ومحاسنها ، والآيات القرآنية التي ذكرت مصر ، أو الأحاديث النبوية ، ولأول مرة يقدم مؤرخ على تدوين تاريخ البلاد كتاريخ وطن محلي ، ليس جزءًا من تاريخ بلدان أخرى ، أو ليس مذكورًا عرضًا ، ومن خلال هذا الوطن العربي الجديد ، يرصد ابن عبد الحكم تاريخ الوطن الأشمل الممتد غربًا حتى المحيط وشرقًا حتى فارس والصين ، ولأول مرة تصبح مصر العربية هي بؤرة كتاب مستقل لمؤرخ دقيق ، يدون ، ويسجل ، وهنا نجد شكلاً جديدًا للتدوين التاريخي ، لقد سائر المحدثين في روايتهم الأسانيد ، وخالف المؤرخين فيما اتبعوه من تصنيف ، مثل البلاذري المتوفى سنة ٢٦٩هـ ، أو الطبري المتوفى سنة ٢١٠هـ ، والدينوري المتوفى سنة ٢٨٢هـ ، فقد نهج منهجًا فريدًا في كتابة التاريخ المفصل للإسلام والعرب في مصر من مصادره الشفوية والتحريرية ، وتتمثل الأخيرة في مخطوطات المؤرخين الذين سبقوه ، مثل يحيى بن عبدالله بن بكير ، وابن لهيعة ، والليث بن سعد ، ويزيد بن حبيب ، كان ابن عبد الحكم دقيقًا إلى حد أنه كان يهتم بمصدر الحدث أكثر من اهتمامه بالمضمون نفسه وبالإضافة إلى ذلك تبدو رؤيته الشخصية وملاحظاته والروايات المتناقلة ، ومعاينته للأماكن وهذا ما اعتمد عليه بشكل أساسي في الجزء الخاص بمخطوط الفسطاط ، لقد كان ابن عبد الحكم أول من سجل تفاصيل الخطط التي ازدهرت فيما بعد على أيدي القضاة ، والمسيحي ، وبلغت قمتها على يدي المقرئزي ، ومن المتأخرين على مبارك ، يقول ابن خلكان في وفيات الأعيان ، إن ابن عبد الحكم كان من أهل الحديث والتاريخ ، وكان أول من انفرد من مؤرخي جميع الأقطار الإسلامية بكتابة التاريخ المحلي لبلد معين ، إن المادة التي جمعها ساعدت على إظهار دور مصر في فجر تاريخها العربي ، ودورها في خدمة العروبة والإسلام .

ماذا في تاريخ ابن عبد الحكم ؟؟

يتكون « فتوح مصر والمغرب » من سبعة أقسام ، نلاحظ الرقم سبعة السحري هنا الجزء الأول يختص بفضائل مصر ، إنه الرحيل مع الأسطورة كان التاريخ القديم لمصر قد أصبح موعلاً في البعد ، نائياً غامضاً تقوم الآثار أو « البرابي » كما كانوا يسمونها ، ولا يدرى أحد سر القلم الغريب الذي كتب هذه النقوش ، ويذكر المقرئ أن الأهرام كان مغطى بأكمله بالكتابة ، لقد انمحست فيما بعد ، ولنا أن نتصور مدى ما كان سيكشف لنا من أسرار لو وصلت إلينا هذه الكتابة الهيروغليفية ، لكن نفس هذه اللغة كانت تحير المؤرخين القدامى ، من هنا أوجدوا تاريخاً بديلاً ، تاريخاً أسطورياً كبديل للتاريخ الواقعي ، ويعد هذا التاريخ هو الأساس الذي نقل عنه المؤرخون الذين جاءوا بعد ابن عبد الحكم ولا توجد أى علاقة بين التاريخ الأسطوري لمصر ، والتاريخ المدون الذي عرف بعد اكتشاف أسرار اللغات الفرعونية ، فيما عدا بعض النقاط المحددة ، كذكر الصراع بين الفرس والروم .

في الجزء الثاني من الكتاب يتنقل ابن عبد الحكم إلى الفتح الإسلامي لمصر بقيادة عمرو بن العاص ، وهنا يعتبر ابن عبد الحكم من أقدم المؤرخين الذين وصلتنا كتاباتهم عن تاريخ مصر في العصر العربي الأول ، وهو أقربهم إلى عصر الفتح يورد حركة الجيش العربي في مصر حتى فتح الفسطاط ، ثم فتح الإسكندرية ، وعند حديثه عن تاريخ الإسكندرية يقول إن الذي أسسها هو ذو القرنين الرومي واسمه الإسكندر ، وبه سميت الإسكندرية ، ولكن سرعان ما يورد أساطير حول الإسكندرية ، ويذكر معلومات دقيقة حول عدد السكان ، ويحصى عدد السكان بمصر ويقدرهم بستة ملايين نفس ، وكانت الجزية المقررة على كل منهم دينارين ، وتؤيد المراجع العلمية الحديثة تقديره لعدد سكان مصر ، ولكنها تختلف من حيث تقديره للمبالغ المتحصلة من الجزية ، ويذكر أنه عندما خرج الولي ابن رفاعة إلى الريف ، أحصى حوالي عشرة آلاف قرية ، ويستمر في رسم صورة دقيقة للإدارة العربية ، من حيث جباية الخراج ، ونظام الضرائب ، والإدارة ، ومن خلال الأحداث يروي ترحيب المصريين بالفتح العربي .

« إنه كان بالإسكندرية أسقف يقال له أبو ميامين « بنيامين » فلما بلغه قدوم عمرو ابن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقى عمرو ، فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يؤمئذ أعواناً لعمرو .
« جماعة من رؤساء القبط ، وقد أصلحوا الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصارت لهم القبط أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم » .

ويذكر أن عمرو بن العاص اهتم بالاستفسار من أهالي البلاد أنفسهم عن أفضل سبيل للإدارة ، وقد أجابه الأسقف بنيامين قائلاً :

« تأتي عمارتها وخرابها من خمسة وجوه ، أن يستخرج خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم ، ويرفع خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم ، وتحفر في كل سنة خلجها وتسد ترعها ، ولا يقبل محل أهلها يريد البنى ، فإذا فعل هذا فيها عمرت ، وأن عمل فيها بخلافه خربت » .

وقد نفذ عمرو بن العاص وصية الأسقف بنيامين بحذافيرها ، واستطاع بذلك تقليص حد المظالم ، وتطهير الأجهزة الإدارية من الفساد ، وانتقلت العاصمة الإدارية من الإسكندرية إلى القسطنطينية وعندما استقر عمرو بن العاص في القسطنطينية بنى داراً للإمارة وأرسل إلى عمرو بن الخطاب يعلمه بذلك ، فكتب إليه عمرو بن الخطاب قائلاً : « إني لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر » ، وأمره بأن يجعلها سوقاً للمسلمين ، وكان ذلك يتفق مع حرص عمرو بن الخطاب على البساطة ، ثم أنشأ « الديوان » الذي يضبط الأموال ويقرر العطاء المفروض للجنود وأسرهم ، طبقاً للأسس التي وضعها عمرو بن الخطاب ، ويذكر ابن عبد الحكم جهود عمرو بن الخطاب من أجل التنسيق بين الإدارة الإسلامية الجديدة ، وأشكال الإدارة القديمة ، ويذكر أن عمرو بن العاص كان حريصاً على شرح التنظيمات الإدارية الجديدة ، للناس عن طريق الخطب العامة ويورد نصاً لخطاب مطول ألقاه عمرو بن العاص في يوم الجمعة من أيام عيد الفصح سنة ٦٤٤ م ، ويعد من أقدم الوثائق التي توضح أسس التشريع الإسلامي في مصر ، وركز على اهتمام عمرو بن العاص بتعمير مصر حتى أنه كان لا يرسل الخراج إلى الخليفة إلا بعد اقتطاع كل ما تحتاج إليه البلاد من أجل « حفر خلجانها وإقامة جسورها ، وبناء قناطرها وقطع جزائرها » وذلك عملاً بنصيحة بنيامين ، ويفرد ابن عبد الحكم فصلاً كاملاً يورد فيه المكاتبات التي تم تبادلها بين الخليفة عمرو بن الخطاب ، وحاكم مصر عمرو بن العاص بسبب تأخر وصول الخراج ، وعنوان الفصل « ذكر استبطاء عمرو بن الخطاب عمرو بن العاص في الخراج » .

أما الجزء الثالث فيضم الخطط ، وعرض فيه ابن عبد الحكم للخطط والأرباع التي أقامها العرب في القسطنطينية والجزيرة . لقد أوضح خطط مصر الأولى ونزول القبائل بالقسطنطينية والمساجد والمنازل الأولى ، كذلك خطط الإسكندرية وتتبع نموها في عهد حكامها العرب ، وفي هذا القسم يعتبر ابن عبد الحكم هو الواضع الأول لأسس الخطط المصرية ، ومنه استفاد كافة المؤرخين الذين جاءوا بعده . .

في الجزء الرابع يصف إدارة مصر تحت إمارة عمرو بن العاص ، وعبد الله بن سعد ، ويذكر فتح الفيوم ، وبرقه ، طرابلس ، بقيادة عمرو بن العاص ، ويذكر فتح النوبة وشمال أفريقيا بقيادة عبد الله بن سعد ، وثورة الإسكندرية وفتحها الثاني ، وينتهي هذا الجزء بوفاة فاتح مصر عمرو بن العاص .

أما الجزء الخامس فيخصصه لفتح شمال أفريقيا وإسبانيا ، حتى سنة ١٣٠ هـ تقريباً ، وتبدو فتوح المغرب هنا وكأنها تكملة طبيعية لفتح مصر ، وسوف نلاحظ فيما بعد أن مؤرخي مصر العربية نظروا إلى الغرب على أساس أنه امتداد جغرافي طبيعي لمصر ، وتكمن أهمية ابن عبد الحكم كمصدر في تاريخ الفتوحات العربية في المغرب إلى أنه مصري ، وأن القوات العربية كانت تخرج من مصر ، وإليها كانت تعود بالغانم ، وتصدر روايته أقدم وأكمل رواية في هذا الموضوع وحتى القرن الثالث الهجري ، والملاحظ أن رواية ابن عبد الحكم تستند إلى مصادر محددة ولم تخلط الواقع بالأسطورة ، ويحوى الجزء السادس تاريخاً مختصراً لقضاء مصر حتى سنة ٢٤٦ هـ، أي قبل وفاة المؤلف بعشر سنوات . . ويضم الجزء السابع مختارات من الأحاديث والروايات المنسوبة لأصحاب رسول الله الذين وفدوا على مصر ، وقد ذكر ابن عبد الحكم اثنين وخمسين صاحبياً .

عرف كتاب « فتوح مصر والغرب » بدءاً من القرن الخامس الهجري ، حين بدأ بعض المؤرخين يروون عن ابن عبد الحكم ، ثم بقيت نسخ الكتاب مخطوطة يتناقلها الرواة والمؤرخون ، وعرف الكتاب طريقه إلى المطبعة في القرن التاسع عشر سنة ١٨٥٦ م ، عندما نشر جزء من الكتاب ، ثم نشر جزء آخر سنة ١٨٥٨ ، ثم نشر جزء ثالث عام ١٩١٤ ، وتم نشره كاملاً لأول مرة على يد المستشرق الإنجليزي شارل توري عام ١٩٢٠ وطبع في جامعة « بيل » ، ثم نشر الجزء الخامس عام ١٩٤١ في الجزائر ، وهو الخاص بفتوح المغرب والأندلس ، وفي سنة ١٩٦١ نشر الأستاذ عبد المنعم عامر جزءاً من الكتاب وضع له عنواناً « القسم التاريخي » ، ولكن لم ينشر القسم الثاني ، أي أن الكتاب لم يطبع كاملاً حتى الآن باللغة العربية ، غير أن أهم ما تم بخصوص ابن عبد الحكم تلك الندوة التي عقدتها الجمعية المصرية التاريخية سنة ١٩٧١ وخصصتها لدراسة « ابن عبد الحكم » ثم صدرت مجموعة الدراسات في كتاب عن الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة عام ١٩٧٥ ، ليتنا نقرأ عن تحقيق ونشر الكتاب كاملاً ، ذلك الكتاب الذي يحفظ للزمن نضارة وجه مصر العربي في زمانه الأول .

* * *

النجوم الزاهرة

لابن تغرى بردى

« تتولى السنون كالنجوم الزواهر أمام ابن تغرى بردى المؤرخ المصرى الكبير ، لم تتلاش ولم ينطفىء بريقها ، لأنه أمسك بأحداثها ونبضها بين دفتى كتابه الضخم « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » الذى ألفه « ليقتنى كل ملك يأتى بعدهم بجميل الخصال ويتجنب ما صدر منهم من اقتراف المظالم وقبيح الفعال » .

إنه يبدأ كتابه بتلخيص ما تضمنه :

« استفتحه بفتح مصر ، وعلى أى وجه فتحت ، وجمع فى ذلك أقوال من اختلف من المؤرخين وأهل الأخبار ، ثم ذكر من وليها من يوم فتحت ، وما وقع فى دولته من العجب ، ثم ذكر أيضًا ما أحدث صاحبها أيام ولايته من الأمور ، وما جرده ، من القواعد والولايات فى مدى الدهور . . . » .

إلى ركن هادئ من داره الكبيرة التى كانت من أجل دور القاهرة وأوسعها وأكثرها حسنا ، كان ابن تغرى يقبع يوميًا لينظم النجوم الزاهرة ويضيف الأيام تلو الأيام ، مبتدئًا كتابه من الفتح العربى لمصر وليس من بدء الخليقة كما جرت عليه سنة المؤرخين الآخرين الكبار ، وعلى الرغم من أصل ابن تغرى بردى المملوكى الرومى « اليونانى » فإننا نجد فى النجوم الزاهرة مجملًا ثريًا للثقافة العربية التى حصلها المؤلف ، ويعكس هذا قوة الثقافة العربية وعمق تأثيرها فى هؤلاء المالك الغرباء أصلًا عن المجتمع الذى جاءوا إليه من بلادهم ، والذى صهرهم فيه ولم ينصهر فيهم ، تبدو ثقافة مؤرخنا فى اطلاعه الواسع على مصادر التاريخ الذى يكتب عنه خاصة الحقب التى لم يشاهدها ولم يدركها ، إنه لا يكتفى بالنقل عن مؤرخ واحد ، إنها يورد أكثر من نص لأكثر من مؤرخ ، وعلى سبيل المثال فإنه عندما يدون أحداث عصر كافور الإخشيدي يستند إلى أكثر من رواية لأكثر من مؤلف الحافظ « أبو » عبد الله الذهبى فى تاريخ الإسلام ، و « أبو » المظفر فى تاريخه مرآة الزمان ، و « أبو » جعفر مسلم بن عبيد الله بن طاهر

العلوى النسابة ، وابن زولاق ، وعندما يورد أخبار المتنبي مع كافور يبدوها على لسانه «قلت :
ونتذكر حيثند أحوال المتنبي . . . » (١) .

وعبر النجوم الزاهرة تتناثر مقتطفات شعرية عديدة أكثر من أى كتاب آخر من مصادر
التاريخ الأخرى ، هذه المقتطفات تعكس ثقافة المؤرخ العربية ، وتعكس أيضًا حسًا مرهفًا
بالتاريخ وانقضاء الزمن وتغير الأحوال .

بعد موت كافور الإخشيدي يورد ما كتب على قبره :

ما بال قبرك يا كافور منفردًا بالصحيح المر (٢) بمسند العسكر اللجسب
يسدوس قبرك أحاد الرجال وقد كانت أسود الشرى تخشاك فى الكتب
وعندما يذكر وفاة محمد بن الحسين بن على الأنبارى الشاعر يأتى بمقتطف من شعره :

أبكى وتبكى الحيام لكن شتان ما بينها وبينى
تبكى بعين ، بغير دمع وأبكى بدمع بغير عين

ولا يكتفى بذلك إنما يورد نصوصًا أخرى مماثلة ويقارن فيها بينها ويقول «أعجبنى فى
هذا . . . » أو «ربما يجيش فى بالى أيضًا بهذا المعنى قول القائل . . . » وعند ذكره لوفاة محمد
بن عتيق القيروانى (٣) يذكر إنشاده لبيتين من أبى العلاء :

ضحكتنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
وتحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لايعاد لنا سبك
وعند وفاة عبد الكريم بن حمزة بن الخضر الدمشقى يذكر أبياتًا من الشعر (٤) :
الضيق مر تحمل والمسال عارية وإنما الناس فى الدنيا أحاديث
فلا تغرنك الدنيا وزهرتها فإنها بعد أيام سوارىث
وفى نفس السنة يورد شعرًا على لسان أحد الذين رحلوا . .

إن الليالى للأنام مناهل تطوى وتبسط بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة وطواهن مع السرور قصار
وعندما نجيء الأخبار بموت الأمير جان بك الصوفى يذكر . .
إذا تم أمر بدأ نقصه توق زوالها إذا قيل تم (٥)

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧ .

(٢) المر : المفازة التى لا نبات فيها .

(٣) الجزء الخامس أحداث سنة ٥١٢ ص ٢١٧ .

(٤) الجزء الخامس أحداث سنة ٥٢٦ ص ٢٤٩ .

(٥) النجوم الزاهرة الجزء الخامس عشر ص ٨٧ .

ويذكر قول القائل في معرض الحديث عن تقلب أحوال أمير . .
 ويوم سمين ويوم هزيل
 ويوم أمر من الخنظلة
 وليل أبيت جليس الملوك
 وليل أبيت على مزبلة

* * *

كان ابن تغرى بردى الواسع الثقافة ملماً بالموسيقى ، وعلم النجوم ، وانعكس ذلك في كتابه عند وصفه الدقيق للظواهر الطبيعية كالخسوف والكسوف ، أو ظهور المذنبات ، وتبدو معرفته بالموسيقى عند ما نقرأ ترجمته لوفاة مغني مصري . . « وتوفي الأستاذ المادح المغني ناصر الدين محمد المازوني الأصل ، المصري ، أحد الأفراد في إنشاد القصيد وعمل السماع ، في ليلة الجمعة ثامن من جمادى الأولى بعد أن ابتلى بمرض الفالج ، وبطل نصفه ، وسكت حسه ، وكان من عجائب الدنيا في فنونه ، كان صوته كاملاً ، مع شجاعة وندارة وحلاوة ، كان رأساً في إنشاد القصيد على الضروب والحدود ، سافر غير مرة إلى الحجاز حادياً في خدمة الأكابر ، وكان له تسييح هائل على المآذن ، ففي هذه الثلاثة كان إليه المنتهى ، وكان يشارك في الموسيقى جيداً . . » (١)

وكان ابن تغرى بردى ملماً بفنون القتال والفروسية إلى جانب ثقافته العريضة وذلك بحكم نشأته بين المماليك ، لقد كان لهذه النشأة تأثير كبير عليه ، وبالتالي على ما كتب ، ولد ابن تغرى بردى من أب مملوكي ، كان أبوه رومي الأصل أي يونانياً جاء به تجار الرقيق إلى الملك الظاهر برقوق ثم سلمه إلى معلم لقنه مبادئ الإسلام واللغة العربية ، وعندما بلغ مرحلة الشباب اعتقه الملك الظاهر وظل يتدرج في المناصب حتى تولى نيابة الشام سنة ٨٠٣ هـ ، وكانت من أجل وظائف الدولة وترشح صاحبها لولاية السلطنة ، غير أن القيادات السياسية أدركته عند قيام الدولة المملوكية الجركسية فعزل عن وظيفته مرات ، واضطر إلى الفرار من مصر إلى الشام وأثناء غيبته تزوج السلطان الناصر من ابنته فاطمة أخت المؤرخ ، ثم عفا السلطان عنه وأولاه أحد المناصب الحربية الرفيعة ، في بداية سنة ٨١٥ هـ توفي الأمير تغردى بردى وكان ابنه أبو المحاسن « مؤرخاً » لم يبلغ بعد الثانية من العمر ، عنى بتربيته زوج أخته الثانية قاضى القضاة ، نصر الدين بن العديم ، ثم زوجها الثاني ، قاضى القضاة جلال الدين البلقيني ، درس ابن تغرى بردى علوم الكلام والنحو والبيان على جماعة من أعلام العصر ، ومنذ صغره ، أحب التاريخ ، ودفعه هذا إلى حضور مجلس المقرئى أعظم مؤرخى العصر ، درس عليه ، وصاحبه ، كما استفاد أيضاً من بدر الدين العيني أحد المؤرخين الكبار في ذلك العصر ،

(١) النجوم الزاهرة الجزء ١٦ ص ١٩٢ أحداث سنة ٨٦٢ .

بالإضافة إلى ذلك فقد تعلم على يد أكابر عماليك والده أنواع الفروسية وفنون القتال ، وبهذا يكون قد جمع بين النشاطين الأدبية والدينية والنشأة العسكرية ، بالإضافة إلى حياة هادئة يكفلها إقطاع كبير يدر عليه دخلاً وفيراً . وحقق له ذلك نوعاً من التفرغ بعيداً عن مشاغل المناصب ، أو تقلبات السياسة ، ولم يكن هذا يعنى أنه يعيش على هامش المجتمع المملوكى ، إنما كان باعتباره أحد كبار أولاد الناس قريباً من بلاط السلاطين ، يطلع في كل أسبوع إلى القلعة ليحضر مجلس العلماء الذى يعقد بين يدي السلطان ، تربطه صداقات وطيدة بكبار الأمراء ، وفي بداية الجزء الخامس عشر من النجوم الزاهرة « ٨٢٦ هـ » نجد وصفاً دقيقاً لحملة السلطان الأشرف برسبای على مدينة آمد ، وكان ابن تغرى بردى من المماليك الذين توجهوا لمفاوضة قرابلك الذى جردت ضده الحملة ، وفي عهد السلطان جقمق ازدادت صلته بالبلاط المملوكى ، ولم يتغير وضعه أيام الأشرف ابنال ، أو في عهد خشقدم ، حتى عهد السلطان قايتباى الذى لم يدونه كله في نجومه الزاهرة وذلك لوفاته .

لقد أدت صلته الوطيدة بالسلاطين والأمراء باعتباره أحد أفراد المماليك إلى أن يعكس أدق صورة ممكنة للمماليك الذين حكموا مصر ، طبائعهم وعاداتهم ، وأسلوبهم في الحكم ، لقد كان على علم أكثر من غيره بأحوال المماليك ودخائلهم ، كما أن هذا يجعله ثقة في دقة الأخبار التى أوردها خاصة عن الفترة التى عايشها بنفسه والتى انفرد فيها بتدوين الأحداث بعد وفاة المقرئى وحتى عام ٨٧٣ هـ ، وأدى هذا بالتالى إلى توارى أخبار الحياة اليومية للشعب المصرى واقتزارها في النجوم الزاهرة .

إن أخبار الشعب لا نجد لها في النجوم الزاهرة إلا كصدى بعيد لكيفية انعكاسها على المماليك والسلطة الحاكمة ، فكأنها إشارات باهتة ترسلها الأرض إلى النجوم الزاهرة غير أننا نستطيع أن نرصد حركة الشعب المصرى بشكل عام خلال الفتن التى أثارها المماليك ، ويمكن القول إن الشعب لم يكن يقف متفرجاً أو ساكناً إنما كان ينحاز أحياناً إلى بعض أطراف الصراع ، وكان لهذا الانحياز تأثيره في الغالب . .

* * *

عندما يقتل الأمير علم الدين سنجر ابن عبد الله الشجاعى المنصورى ، أحد عماليك السلطان قلاوون وكان سئم السيرة غليظ القلب ، فرح أهل مصر بقتله فرحاً زائداً ، وعندما طاف المشاعلية برأسه كان الناس يتزاحمون ليلطموا رأسه أو ليبولوا عليه ، ولشدة الزحام بلغ سعر اللطمة نصف درهم والبولة درهما كاملاً .

وعندما يضيق السلطان الناصر قلاوون بتحكم بعض أمرائه فيه ويقرر التخلص منهم ،

فبيادر الأمراء بالركوب عليه ، عندئذ يتجمع العامة أمام القلعة « كان جمعهم قد كثر ، وكان من عادتهم أنهم لا يريدون أن يلى الملك أحد من المماليك ، بل إن كان ولا بد يكون الذى يلى الملك من بنى قلاوون ، وكانوا مع ذلك شديدي المحبة للملك الناصر محمد بن قلاوون » ، « وتكاثر جمعهم وصاروا يدعون للسلطان ويقولون « الله يخون الخائن الله يخون من يخون ابن قلاوون » . واضطر المماليك إزاء تمسك العامة بالملك الناصر إلى التراجع « فبحث الأمراء عند ذلك ثانيًا إلى السلطان بأنهم عماليكه وفي طاعته »^(١) .

وعندما توجه الملك الناصر بن قلاوون من الديار المصرية إلى الكرك متفياً أنشد بعض عوام القاهرة :

أحبة قلبى إننى لوحيد	أريد لقساكم والمزار بعيسد
كفى حزناً أننى مقيم ببلدة	ومن شف قلبى بالفراق فريد
أجول بطرفى فى الديار فلا أرى	وجوه أحبائى السدين أريد

وعندما عزل السلطان برقوق كثر الدعاء من العامة له ، وكثر الأسف على فقدته ، صاروا يقولون « راح برقوق وغزلاته ، وجاء الناصرى وتيرانه » ، وعندما وقعت الفتنة الكبرى بين الأمير الكبير يلغا الناصرى وبين الأمير تمزيغا الأفضلى المدعو بمنكاش « ٧٩٠ هـ » ، فإن العامة ينحازون إلى جانب منكاش ويشتركون فى المعارك الدائرة بالقاهرة ، لكن لا يعنى هذا أن الشعب كان يلعب دوراً رئيسياً فى حسم الصراع الذى يقوم بين المماليك ، نلاحظ أن هذا لم يحدث إلا عند الانحياز إلى جانب حكام يشعر الشعب بحاسته المهفة أنهم عادلون وأقل ظلماً من غيرهم ، ونلاحظ أن موقف الناس بشكل عام كان سلبياً خاصة فى عصر الدولة الجركسية ، لم يكن الصراع الذى يجرى فى القلعة يهمهم إلا بالقدر الذى يهدد الأمن وحيياة الناس ، ويفسح ابن تغرى بردى المجال فى كتابه لحوادث قليلة تعكس ما يجرى بين الناس ، فعندما قرر الأشرف برسباى منع الشحاذين يصف ابن تغرى بردى أحوالهم ويستحسن قرار السلطان ، وفى يوم الجمعة تاسع شوال سنة ٨٤١ هـ يصف ما جرى بين العامة عندما لهج الكثيرون بأن القيامة ستقوم يوم الجمعة ويموت الكل ، تخوف العامة من ذلك ، وتزاحوا على باب الحمامات ليموتوا على طهارة كاملة ، وركب ابن تغرى برى أيضاً ومضى إلى الأزهر ، وتصادف أن الخطيب أغشى عليه فوق المنبر فاضطرب الناس اضطراباً عظيماً .

وفى يوم الخميس خامس عشر جمادى الآخرة سنة ٨٦٠ هـ ، يورد ابن تغرى بردى صورة لما

(١) النجوم الزاهرة أحداث سنة ٦٩٨ هـ ص ١٧٢ - ١٧٣ الجزء الثامن .

يجل بالناس من السرب عند وقوع الفتن بين المماليك ، فأثناء إحدى ثورات المماليك تصادف خروج جهاز عرس لابنة أحد الأمراء ، « وحمل ذلك على رؤوس الجمالين والبغال كما هي عادة المصريين ، وسار الجمالون بالمتاع فوق من فوق رأس بعضهم قطعة نحاس ، فجفل من ذلك فرس بعض الأجناد ، فحنق الجندي من فرسه وضربه ، ثم ساقه ، فلم تشك العامة أن المماليك نزلوا إلى نهب حوائيت القاهرة ، فأغلقت القاهرة في الحال وماجت الناس ، وتعطلت المعاش ، وحصل على الرعية من الانزعاج أمر كبير من غير موجب » .

* * *

يقدم ابن تغرى بردى في نجومه الزاهرة عددًا كبيرًا من تراجم أمراء المماليك ورجال عصره ، إنه يصف لنا دخائل الأمراء وكبار المماليك ، ينقل عن والده أحداث الفتن التي جرت أيام الظاهر بقوق ، وينقل عن عدد من أصدقائه الذين كانوا من كبار رجال الدولة ، أنه يحدنا عن ثورات المماليك ، وأساليبهم في الركوب على القلعة ، ورميهم عليها بالنقوت ، كانت القلعة رمزًا للسلطة في مصر وتعبيرًا عن مركزيتها الشديدة فبمجرد الاستيلاء عليها يتم الاستيلاء على السلطنة كلها ، كما يقدم لنا أساليب المماليك في الصراع ، وكيف يتنحى الواحد منهم بعد بلوغه أعلى المراتب لمجرد وشاية عليه ، أو شك من السلطان يستقر في أعماق نفسه .

وعلى الرغم من انتماء ابن تغرى بردى إلى المماليك ، فإنه كان أحيانًا يسجل ما يحيق بالناس من ظلمهم وجورهم عندما وقع الطاعون بالقاهرة أول شهر رمضان ٨٤١هـ أقنع الفقهاء السلطان بمنع النساء من الخروج إلى الطرقات ، ومال السلطان إلى منعهن من الخروج إلى الطرقات ظنًا منه بأن منعهن سيرفع الطاعون ، وهكذا تعطل البيع بواسطة النساء وصارت المرأة لا تستطيع تشييع جنازة ولدها إذا مات ، ويعلق على ذلك قائلاً « كل ذلك لعدم أهلية الحكام واستحسان الولاة على الخواطين ، وإلا فالخرة معروفة ولو كانت في الخمار ، والفاجرة معروفة ولو كانت في البيت الحرام » . .

وفي ترجمته للأمير تغرى برمش الذي كان على صلة بوالد المؤلف يقول « . . وكان عارفاً بأمور دنياه وأمر معيشته متجملاً في مركبه وملبسه ومماليكه ، إلا أنه كان بخيلاً ، شحيحاً ، حريصاً على جمع المال ، قليل الدين ، لا يحفظ مسألة تامة في دينه ، مع قلة فهم وذوق ، وغلاظة طبع ، على قاعدة أوباش التركمان ، وكان عارياً من سائر العلوم والفنون ، غير ما ذكرنا ، لم أره منذ عمري مسك كتاباً بيده ، ليقراه ، هذا مع الجبن وعدم الثبات في الحروب » (١) .

(١) النجوم الزاهرة الجزء ١٥ ص ٤٧٣ .

وفي ترجمته لصهره يقول عنه :

« وكان عارفاً بأنواع الفروسية كلعب الرمح وضرب الكرة وسوق المحمل والبرجاس ، رأساً في ذلك جميعاً ، إمام عصره في ركوب الخيل ومعرفة تقليبها في أنواع الملاعب المذكورة ، انتهت إليه الرئاسة في ذلك بلا مدافعة ، لا أقول ذلك لكونه صهرى ، بل أقوله على الإنصاف ، مع دين وعفة عن المنكرات والفروج ، وقيام ليل وزيارة الصالحين دوماً ، غير أنه كان مسيقاً وعنده حدة مزاج ، ولم تكن شجاعته في الحروب بقدر معرفته لأنواع الملاعب والفروسية^(١) ، وعلى الرغم من المركز المرموق الذى وصل إليه في عهد الظاهر جقمق إلا أنه يذكر في ترجمته له عجز خزانة الدولة ، ونقص الاستعدادات العسكرية ، وينسب ما جرى بعده من اضطرابات إنها بسبب قلة الأموال ، كما يقدم لنا صورة لما كان يحدث بين المالك والمتعممين ، أو السلطة المدنية والدينية ، فعندما يذكر ترجمة الأمير سيف الدين جارقطلو أتاك العساكر بالديار المصرية الذى توفي عام ٨٣٦ هـ يتحدث عن طبيته ، ويتطرق إلى جلوسه عند السلطان مع قاضى القضاة بدر الدين العيني ، كان القاضى يشد على ضرب الخمر ، فإذا زاد على الحد يقول جارقطلو « يا قاضى ما تذكر إلا شربة الخمر وتبالغ في حقهم بأنواع العذاب ، ليس ما تذكر القضاة وأخذهم الرشوة والبراطيل وأموال الأيتام » ، ولقد تطور الصراع بين هاتين السلطتين ، المدنية والدينية حتى اتخذ طابع العنف في أعوام ٨٥٤ هـ - ٨٥٧ هـ حتى ٨٦٠ هـ ، إذ يحدثنا ابن تغرى بردى عما قام به المالك الجلبان من تعد على المتعممين ، وإلحاحهم على السلطان في طلب إقطاعات الفقهاء .

كما قدم لنا أيضاً صورة للمصريين الذين كانوا يصلون إلى مراكز الإدارة العليا في الدولة ، وما كان يجرى عندما تنقلب الأحوال عليهم ، أو يتغير خاطر السلطان عليهم ، ويبدو ذلك واضحاً فيما جرى للقاضى زين الدين عبد الباسط ، الذى وصل إلى منصب ناظر الجيوش المصرية ، وهو دمشقى الأصل ، مصرى النشأة ، جاء إلى مصر فقيراً فلما تسلطن الملك المؤيد شيخ قره وأدناه وولاه نظر الخزانة ، ولما عظم أمره سألتنا في السكن بعض دورنا ، فأجبتنا إلى ذلك^(٢) ، وبعد أن وصل إلى منصب ناظر الجيش ، واستمر به سنينا بدأ نجهه بأقل ، حتى قبض عليه في عهد السلطان الظاهر جقمق ، وسجن ، وصودر .

وفي عهد الملك المظفر حاجى ، وفي يوم الثلاثاء أول المحرم سنة ٧٤٨ هـ ، قبض على نديم الملك وكان اسمه الشيخ على بن الكسيح ، وضرب بالمقارع ضرباً عظيماً ، وقلعت أسنانه

(١) النجوم الزاهرة الجزء ١٥ ، ٤٧٦ .

(٢) النجوم الزاهرة الجزء الحادى عشر ص ٢٤٨ .

وأضراره ، ونوع له العذاب تنويحًا ، كان الشيخ على له حذبة في ظهره ، كسيحًا لا يستطيع القيام ، إنها يحمل على ظهر غلامه ، تعرف بأحد الأمراء وصار يضحكه ، وعرفه الأمير بالملك المظفر ، فصاحبه الملك ، وعاقره الشراب ، ثم زوجه بإحدى حظاياها ، وصار يسأله عن الناس فنقل له أخبارهم على ما يريد ، وداخله في قضاء الأشغال ، فخافه الأمراء وغيرهم خشية لسانه ، وراحوا يغدقون عليه الأموال ، وعندما مضت دولة السلطان المظفر حاجي ، تنبه إليه الأمراء ، فأمسكوه وسلموه إلى الوالي ، فعاقبه حتى هلك . .

أما الشيخ ناصر الدين ابن بنت الملق فقد استدعاه السلطان الملك الظاهر برقوق سنة ٧٨٤ هـ ، وولاه قضاء الشافعية ، وفي البداية أظهر ابن ملىق تمنعًا زائدًا عن قبول القضاء وصلى ركعتي الاستخارة حتى أذعن ، وألبسه السلطان تشرىف القضاء بيده وأخذ طيلسانه يتبرك به ، وهنا شعر كبار رجال الدولة بالخوف ، وظنوا أنه يحمل الناس على محض الحق وأنه يسير على طريق السلف من القضاة ، كان معروفًا عنه زهده ، وارتداؤه الثياب الخشنة ، والتجاهر بقول الحق ، وكان أول ما بدا به أن عزل قضاة مصر كلهم من العرش إلى أسوان ، وبعد يومين تكلم أحد كبار الموظفين في إعادة بعض المعزولين ، فاستجاب ، وهنا انكسرت هيئته ، ولم يقف الأمر عند ذلك إنما فوجئ الناس بأنه خلع الملابس الخشنة ، ولبس الشاش الكبير الغالى الثمن ، وبدا يترفع في أحواله وأفعاله ، وبدأ يجمع حوله جماعة مكروهة من الناس ، فانطلقت السنة الجميع بالوقية في عرضه وسخطوا عليه . .

* * *

ينفرد ابن تغرى بردى بين كل مؤرخى عصره والسابقين واللاحقين عليه بأنه اهتم بفيضان النيل اهتمامًا خاصًا ، في نهاية أحداث كل سنة يقول « أمر النيل في هذه السنه الماء القديم كذا ذراع ، مبلغ الزيادة كذا ذراع » ، لقد سجل تقلبات النيل منذ الفتح الإسلامى حتى عام ٨٧٢ هـ الذى يهتم به النجوم الزاهرة ، يرصد في كل سنة أدنى مستوى وصلت إليه المياه أيام التحاريق ، وأعلى زيادة وصلت إليه أثناء الفيضان ، وكان متوسط انخفاض مياه النهار أيام التحاريق ما بين أربعة أذرع إلى سبعة أذرع فيما عدا بعض السنين التى انخفض فيها الماء إلى أقل من هذا المستوى ، مثل سنتى ٢٥ هـ ، ٥٠ هـ ، وكان هذا الانخفاض يهدد المزروعات والأشخاص والحياة عندئذ تشح الغلال ، وتبدأ المجاعة وفي أثرها الوباء . كان النيل هو ترمومتر الحياة في مصر ، في أيام الفيضان يبلغ أعلى مستوى له ستة عشر ذراعًا إلى تسعة عشر ذراعًا ، والمستوى الأخير يهدد القرى والجسور بالغرق ، وكثيرًا ما وصل فيضان النيل إلى درجة الخطورة مثلها حدث في سنة ٢٠ هـ وسنة ١٠٠ هـ ، وفي سنة ٥٤٣ هـ ، وفي سنة ٧٧٦ هـ ، وفي سنة ٨٠٠ هـ .

ويصف لنا ابن تغرى بردى مقياس النيل المختلفة ، منذ أول مقياس أنشأه عمرو ابن العاص بأسوان ، ثم مقياس الجزيرة الذى أنشأه أسامة بن زيد التنوخى فى عهد سليمان بن عبد الملك ثم المقياس الكبير الذى أمر به الخليفة المتوكل العباسى فى سنة ٢٤٧ هـ . وهو الذى استخدم فيما تلا ذلك من سنوات فى قياس مياه النيل ، ومن عصره يسجل لنا المؤرخ مشهدًا كان يتكرر كثيرًا فى مصر كلما توقف النيل عن الزيادة أيام الفيضان ، إنه مشهد الاستسقاء ، فى يوم الأحد الرابع عشر من رجب سنة ٨٥٤ هـ ، أمر السلطان أن يدور المحتسب على الناس ويعلمهم بأنه سيتم غدًا الامتسقاء فى الصحراء وفى اليوم التالى ، « خرج قاضى القضاة شرف الدين يحيى الميماوى ، إلى الصحراء ماشيا من داره بين الخلائق من الفقهاء والفقراء والصوفية ، إلى أن وقف بين تربة الملك الظاهر برقوق وبين قبة النصر قريبًا من الجبل ، ونصب له هناك منبر ، وحضر الخليفة وبقية القضاة ، وصاروا فى جمع موفور من العالم من سائر الطوائف ، وخرجت اليهود والنصارى بكتبهم ، وصلى قاضى القضاة المذكور بجماعة من الناس ركعتين خفيفتين ، ودعا الله سبحانه وتعالى بإجراء النيل ، وأمن الناس على دعائه وعظم ضجيج الخلائق من البكاء والنحيب والتضرع إلى الله تعالى ودام ذلك من بعد طلوع الشمس إلى آخر الساعة الثانية من النهار المذكور ، ثم انصرفوا على ما هم عليه من الدعاء والابتهاال إلى الله تعالى ، فكان هذا اليوم من الأيام التى لم نعهد بمثلها . . . » .



لابن تغرى بردى كتب أخرى ، منها « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » وقد ترجم فيه لأعيان عصره ، وهذا أول كتبه ، ثم أتبعه بكتاب مختصر فى التاريخ يعد تكملة لكتاب السلوك للمقرئزى ، وتتبع فيه بالتسجيل أحداث مصر فى فترة زمنية قدرها اثنتا عشرة سنة تلى السنة التى توقف عندها المقرئزى ، ثم بدأ فى تدوين كتابه الموسوعى الضخم « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » والفضل الأول فى بدء الاهتمام بنشر هذا الكتاب يرجع إلى المستشرقين الهولنديين جيورجىل وماتس ، نشر منه القسم الأول بين سنتى ١٨٥٢ و ١٨٥٣ ثم نشر منه القسم الثانى فى سنة ١٨٥٧ ، وتضمن القسمان تاريخ مصر حتى سنة ٣٦٥ هـ ، وفى سنة ١٩٠٨ قرر قسم اللغات السامية بجامعة كاليفورنيا نشر النجوم الزاهرة وتولى مسئولية نشره المستشرق الأمريكى وليم بوبر ، فبدأ عام ١٩٠٩ بنشر الأجزاء التالية للقسمين اللذين تم نشرهما ، واستمر فى هذا العمل حتى ١٩٣٠ حيث أتم تلك المهمة العلمية الضخمة .

وفى سنة ١٩٢٨ بدأت دار الكتب المصرية فى طبع الكتاب ، وتم نشر اثنى عشر مجلدًا على مدى أربعين عامًا صدر آخر مجلد منها سنة ١٩٥٦ ، وتضمنت أحداث التاريخ المصرى حتى

سنة ٨٠٨ هـ ، وتضمنت هذه الأجزاء تعليقات قيمة لمحمد رمزي المفتش بوزارة المالية ومؤلف القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ، وهذه التعليقات التي يتم من خلالها شرح الوظائف المملوكية والآثار والمنشآت التي يرد ذكرها ، وتحديد أماكنها الحالية في قاهرة القرن العشرين سواء الباقي منها أو المندثر ، تعتبر جهداً علمياً ضخماً في حد ذاته قد يغيب عن أعين الباحثين في الهوامش والملاحظات .

ثم صدرت الأجزاء الأربعة الباقية ، الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، والسادس عشر ، وكان صدور الجزء الأخير منها عام ١٩٧٢ ، وهكذا يكون الكتاب بأكمله قد تم تحقيقه وطبعه ، وبين دفتيه تستقر النجوم الزاهرة متاحة لكل من يهتم بالترحال في تاريخ مصر العربية ، أو دراسته . .

ابن إياس صاحب بدائع الزهور في وقائع الدهور

« اليوم سبت ، سادس عشر من شعبان ، عام اثنين وعشرين وتسعمائة ، في المساء والليل مسدل فوق قاهرة ذلك الزمان المضطرب ، مضى الشيخ محمد أحمد بن إياس الحنفى المصرى ، إلى بيته مرتجف الروح ، مضطرب الفكر ، فتسح صفحات كتابه «بدائع الزهور في وقائع الدهور» تاريخه الكبير الذى بدأ يدون فيه تاريخ مصر منذ بدء الخليقة ، كان يستعد ليضيف إلى أحداثه أخطر ما سيدونه ، كان يشهد هذه الأيام غير العادية التى تنقر في مصائر كبيرة ، ويلتوى مجرى أمم وتتحول حياة شعوب .

« اليوم أشيعت هذه الكاينة العظيمة التى طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار ، وما ذلك إلا أن أخبار السلطان والعسكر انقطعت مدة طويلة ، ثم حضر كتاب على يد ساع مطرد من عند الأمير علان ، الدوادار الثانى أحد الأمراء المقدمين فذكر أن السلطان كان يكذب في أمر سليم شاه بن عثمان ويصدق ، إلى أن حضر مغلباى دوادار سكين وهو في حال النحس بزمت أقرع على رأسه ، وهو لابس كبر عتيق دنس ، وراكب على أكديش هزيل ، وقد نهب بركة وأخذت خيوله وقماشه ، وأخبر أن ابن عثمان أبى من الصلح وقاله له : قل لاستاذك يلاقينى عند مرج دابق . . . (١) .

لقد جاءت الأخبار بعد انقطاعها مدة طويلة تلبلت فيها الخواطر ، وحارت النفوس ، بما جرى في مرج دابق شمال حلب ، حيث دارت الدائرة على جنود السلطان الأشرف قنصوة الغورى ، قتل من قتل ، وفر من فر ، ومات السلطان شهيداً بعد أن ببح صوته «وطلق في رأسه فرخ جمر ، وهو ينادى عساكره ، (يا أغوات . . . يا أمراء . . . هذا وقت المروعة » ، غير أن ما كان مقدراً جرى . . .

(١) بدائع الزهور . الجزء الخامس ص ٦٨ .

وتصل تفاصيل الأحداث إلى ابن إياس ، ويسرد الوقائع كما تحقق منها كيف اصطف الجيشان ، كيف كان العسكر من المماليك المصرية مقومًا بألف إنسان من بنى عثمان ، وكيف هزم « العثمانية » أول الأمر ، غير أن الخيانة أطلت برأسها فقد خامر خاير بك أو (خاين بك) على السلطان في الباطن ، مما جعل الدائرة تسدور على جيش السلطان الغورى ، وينهى ابن إياس أخبار الموقعة المشنومة : « لم يقع لمصر من قبل مثل هذه الكاينة العظمى ، والحادثة المهولة » .

وبصبر المؤرخ ، وبأناة الشيوخ ينتظر مجئ الأخبار ، وقد ظلت هذه الأحداث وما جرى لمصر مادة ما تبقى من عمر ابن إياس وكتابه ، حتى عام ٩٢٨ هـ ، وليبقى الكتاب الضخم الذى تزيد صفحاته على الثلاث آلاف صفحة نابضًا بحسب عريق لمصر ومنقذًا لفترة زمنية كاملة تزيد على الثلاثين عامًا شاهدها المؤلف يومًا بيوم ، تنبض الصفحات التى تدون سنوات الاحتلال العثماني بأرقى آيات حب المؤلف للبلد الذى عاش فيه ، لقد كانت أصول ابن إياس غير مصرية ، لكن كتابه يفيض بوطنية صادقة ولكى نتبع أصول عائلة ابن إياس يجب أن نعود مائة وخمسين سنة قبل الغزو العثماني .

في زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون اشترى مجموعة من بينهم مملوك اسمه أزدمر العمري الناصري أبو الدقن ، أصبح أحد ممالك السلطان الناصر ، تدرج في مراتب الوظائف حتى صار من كبار الأمراء زمن السلطانين حسن وشعبان ابنى الناصر بن قلاوون ، في أيامها تولى إمرة السلاح ، ويمكن أن نجد بعض أخباره في كتاب « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » لابن تغرى بردى ، ثم تقلد نيابة صغد ، وطرابلس ، وحلب ، وأخيرًا اختاره السلطان شعبان نيابة دمشق عاصمة الشام ، لكن الموت لم يمهله فتوفى في الطريق إليها سنة ١٣٦٦ م .

كان أزدمر العمري جد ابن إياس لأمه ، أما جده لأبيه فهو الأمير إياس الفخرى ، أحد ممالك السلطان برقوق ، وكان دوا دارا ثانيًا ، لكنه عزل عن وظيفته ، وأصبح هو وابنه أحمد ينتميان إلى فئة أولاد الناس ، وهذه الفئة كان لها موقع خاص ، فهى أبناء الأمراء الذين ماتوا وشغلت وظائفهم ، وكان المتبع أن يمنح الواحد منهم عددًا من الفدادين « إقطاع » يعيش منه ، بشرط اندماجه في الجيش السلطاني عند نشوب الحرب ، ويكون صالحًا للمخدمة في إحدى الوظائف المدنية أيام السلم .

وبرغم ضخامة ما كتبه محمد أحمد بن إياس فنلاحظ أنه تحاشى الكتابة عن أسرته ، أو عن نفسه ، وبرغم ذلك يمكن التعرف من خلال كتابه الكبير على بعض المعلومات عن أبيه ،

كان أحمد بن إياس من أشهر فئمة أولاد الناس ، وعلى اتصال دائم بمشاهير الدولة من الأمراء والكبار ، عاش حوالي أربع وثمانين سنة أنجب خلالها عددًا كبيرًا من الأبناء ، بلغ عددهم خمسة وعشرين ذكرًا وأنثى ، لم يوضح لنا ابن إياس ترتيبه في هذه الذرية الضخمة ، إنه يذكر مولده في سطر عابر من تاريخه الضخم .

« وفي ربيع الآخر من هذه السنة ، كان مولد الناصري محمد أحمد بن إياس مؤلف هذا التاريخ ، وذلك في يوم السبت سادس الشهر بعد طلوع الشمس وسماه والده محمد أبي البركات » (١) .

ويخبرنا أيضًا أنه لم يبق من أخوته بعد وفاة والده غير بنت واحدة ، وصبيين اثنين هما : مؤرخنا نفسه ، وأخوه يوسف . في هذه الفئمة « أولاد الناس » نشأ ابن إياس ، وكان لنشوته فيها عاملان ، أولهما أنه بانتباهه إلى هذه الفئمة جعله بعيدًا عن تناول مؤرخي العصر ، ومؤلفي السير والتراجم ، فتناوت عنا أخباره وسيره ، مما جعل المادة التي تصلنا عن حياته قليلة جدًا ، خاصة وأن ابن إياس لم يخصص في كتابه الكبير إلا ما مجموعه نصف صفحة للحديث عن نفسه أو عن عائلته .

أما العامل الثاني ، والبالغ الأهمية فإن نشوئه في هذه الفئمة جعله قريبًا من الحياة اليومية للشعب ، مما أفسح المكان في تاريخه لأخبار لا نجدها في كتب التاريخ الأخرى التي كان مؤلفوها أعضاء في السلطة المملوكية مثل ابن تغرى بردى الذى كان وزيرًا . لقد كان أولاد الناس بعيدين عن صراع السلطة ، ويمكن القول إنهم كانوا يعيشون على هامش المجتمع المملوكى الحاكم ، لهذا كانوا قريبين إلى المجتمع المصرى بطبقاته المتوسطة والفقيرة ، أصبح ابن إياس من خلال هذا الوضع قريبًا من الهموم اليومية لرجل الشارع ، معاشًا لها ، وحياة الشعب تبرز لنا حية ، متدفقة من خلال أدق الأخبار التي أوردها ابن إياس جنبًا إلى جنب مع أخبار السلاطين والحروب والصراعات .

* * *

« وفي ذى الحجة ، جاءت الأخبار بوقوع فتنة عظيمة بين أولاد ابن عثمان ملك الروم ، وفيه عز وجود الفلفل من مصر ، حتى بيع كل حل فلفل بمائة دينار . . » (٢) .

« ومن الحوادث في غيبة السلطان ، في شهر رمضان ، وجد إنسان سكران ، فقبض

(١) بدائع الزهور الجزء الثانى ص ٢٦٣ .

(٢) بدائع الزهور الجزء الثانى ص ٥ أحداث ذى الحجة ٨١٥ .

عليه وضرب الحد ، ثم طيف به القاهرة ، فلما وصل إلى الصليبية ، ثارت عليه العوام فقتلوه وأحرقوه بالنار . . . » (١) .

« وفي شوال ، جلس السلطان للحكم بين الناس في الاصطبل ، وضرب في ذلك اليوم ابن الطبلاوى وإلى القاهرة بالمقارع ، وكان لذلك سبب ، وذلك أن شخصاً غرق له ولد ، فلما شاؤروا السولى في دفن الميت ، فلم يمكن أباه من دفنه حتى يحضر له خمسة دنانير، وكان أبو الغريق فقيراً ، فلم يقو على ذلك القدر الذى قرر عليه ، فما وسعه إلا أنه ترك ولده ملقى على شط الخليج وهرب ، فبات الغريق ليلتين حتى أكل الكلاب رجليه فلما بلغ السلطان تغير خاطره على ابن الطبلاوى وضربه بالمقارع . . . » (٢) .

« وفي شعبان وقعت نادرة غريبة وهو أن شخصاً من المماليك الجراكسة كشف رأسه بين يدي السلطان فوجده أقرع ، فضحك عليه السلطان فقال له ذلك المملوك «اجعلنى وإلى القرعان يا مولانا السلطان ، فأجابه السلطان إلى ذلك ، وأخرج له مرسوما سلطانياً بذلك ، وأن يكون شيخ القرعان ، وأخلع عليه خلعة ، فصار يدور في الأسواق والحارات ويكشف رؤوس الناس ، فمن وجده أقرع فيأخذ منه ديناراً حتى أعيان الناس فضج منه أهل القاهرة وشكوه إلى السلطان فضحك ونادى في القاهرة للقرعان بالأمان والاطمئنان وأن كل شىء على حاله . . . » (٣) .

« وفيه ثار جماعة من العوام على المحتسب على بن القيس ورجوه . . . » (٤) .

« وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهو أن السلطان أعاد إلى جماعة ما كان أخذه منهم من مال لما صار الناس في التجريدة الأولى . . . فتعجبوا الناس نفسه من ذلك ، لكونه فعل هذا من تلقاء نفسه ، وأشيع بين الناس أنه رأى في المنام ما أوجب رد هذا المال على أربابه ، فكان حال الناس معه كما قال القائل في المعنى .

كنا نسؤمل أن ننال بجاهكم
والآن نقنع بالسلامة منكم
خييراً يكون على الزمان معيناً
لا تاخذوا منا ولا تعطونا (٥)

-
- (١) بدائع الزهور الجزء الثانى ص ٢٤ أحداث رمضان ٨١٨ هـ .
(٢) بدائع الزهور الجزء الثانى ص ٤٠ أحداث شوال ٨٢١ هـ .
(٣) بدائع الزهور الجزء الثانى ص ١١٤ أحداث شعبان ٨٣٠ هـ .
(٤) بدائع الزهور الجزء الثانى ص ٢٧٥ أحداث رجب ٨٥٣ هـ .
(٥) بدائع الزهور الجزء الثالث ص ٥٦ أحداث شعبان ٨٧٥ هـ .

« وفيه نودى من قبل السلطان بأن أحدًا لا يشكو أحدًا للسلطان إلا بعد أن يرفع أمره لاحد من الحكام ، وكان قد كثرت شكاوى الناس بين يدي السلطان حتى أن امرأة شكّت زوجها للسلطان لأجل أنه وطئ جارية في ملكه ، فما طاقت زوجته الغيرة فشكته إلى السلطان » (١) .

« وفيه ولدت امرأة أربعة من الأولاد في بطن واحد ، وهم صبيان وبتان وكان أبوهم فقيرًا فحملهم إلى السلطان ، فلما وضعوا بين يديه تعجب منهم ورسم لأبيهم بعشرة دنانير وخسة أرادب قمح (٢) .

ولكن شنعت عليه الناس أن مصروف عمارة المدرسة كان من وجوه المظالم ومصادرات الناس ، وأخذ أغلب رخامها من أماكن شتى بأبخس الأثمان ، وأخرب قاعة شمواً اليهودي الصيرفي وأخذ أبوابها ، وفعل مثل ذلك بعدة قاعات ، وقد سمى بعض اللطفاء هذه المدرسة المسجد الحرام لما وقع فيها من غصوبة الأرض ومصروف العمارة من مال فيه شبهات ، وقد شنعوا الناس قبله على المؤيد شيخ لما بنى جامعته الذي بجوار باب زويلة أكثر ما شنعوا على الملك الأشرف قنصوة الغوري ، وأهل مصر ما يطاقون من ألسنتهم إذا أطلقوها في حق الناس (٣) .

« وفيه وقعت نادرة غريبة وهو أن شخصًا من أبناء التجار يقال له عمر بن عبد اللطيف ، وكان والده من أعيان التجار ، فأشيع عنه أنه قد قتل زوجته في بيته خشب وأحرقها بالنار لأمر وقع منها . . . » (٤) .

« وفيه رسم السلطان بشنق شخص زغلي (٥) فشنق على باب زويلة ومن الحوادث أن شخصًا شابًا يقال له سكيكر أشيع عنه أنه قد قتل أباه ، فلما عرض على السلطان لم يقر بشيء فمسجن بالقشرة حتى يكون من أمره ما يكون » (٦) .

« ومن الحوادث في ذلك اليوم أن امرأة خرجت تتفرج على السلطان وكانت حاملاً ، فجاءتها ضربة على بطنها فنزل الولد من بطنها في الحال » (٧) .

-
- (١) بدائع الزهور الجزء الثالث ص ٦٣ أحداث ربيع الأول ٨٧٦ هـ .
 (٢) بدائع الزهور الجزء الثالث ص ٧٢ أحداث ذي الحجة ٨٧٧ هـ .
 (٣) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ٥٣ أحداث ذي الحجة ٩٠٨ هـ .
 (٤) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ١٠٠ أحداث جمادى الآخرة ٩١٢ هـ .
 (٥) زغلي أي مزيف .
 (٦) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ١٦٠ أحداث جمادى الأولى ٩١٥ هـ .
 (٧) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ٣٣٦ أحداث شعبان ٩١٩ هـ .

« ومن الحوادث أن شخصًا خياطًا يقال له نجا بن تمساح زلق صبيًا صغيرًا عمره عشر سنوات ، فزلقه في بيت الجزيرة الوسطى ، فاستغاث الصبي فذبحه ذلك الخياط وأرمه في البئر ، فلما شاع أمره قبضت أم الصبي على الخياط ، وعرضته على السلطان ، فاعترف بقتل الصبي ، فرسم السلطان بشنق ذلك الخياط في المكان الذي قتل فيه الصبي » (١) .

« وفرح كل واحد من الناس بسلطته (٢) ، وكان محببًا للعوام فإنه كان لين الجانب قليل الأذى غير متكبر ولا متجبر ، فلما انتهى أمر المبايعه أخلع السلطان على أمير المؤمنين يعقوب ونزل إلى داره في موكب حافل ، وزالت دولة الغوري كأنها لم تكن (٣) .

« وفي يوم الثلاثاء عاشره وقعت حادثة غريبة ، وهو أن ملك الأمراء خاير بك أشهر النداء في القاهرة بأن كل من رأى كلبًا يقتله ويعلقه على دكانه فبادرت الناس على القبض على الكلاب ، صارت التراكمه يمسون الكلاب من الطرقات ويوسطونهم نصفين بالسيوف فقتلوا في ذلك اليوم ما لا يحصى من الكلاب . . .

« فلما تزايد الأمر في قتل الكلاب ، طلع الزينى بركات بن موسى المحتسب إلى ملك الأمراء خاير بك وشفع في الكلاب من القتل . . . » (٤) .

وفيه حضر شخص من حلب فهلوان ، ونصب في بركة القصر التي بالجينية صواري وحبالاً ، وكان يوم الجمعة فاجتمع الجمل الغفير من الخلائق ، فلما صعد على الحبال أظهر أشياء غريبة في صنعة فهلوانية وهو واقف على الحبال ، منها أنه نصب له أوماج وبتيه وأرمى بالنشاب في البتية وهو واقف على الحبال ومنها أنه مشى على الحبال وهو مقيد وعيناه مربوطتان بخرقة ، ومنها أنه مشى على الحبال وفي رجله قبقاب وتحمته ألواح صابون . . . » (٥) .

« وفيه وقعت حادثة شنيعة وهو أن شخصًا من العوام كان أصله مؤذنًا فدخّل إلى بعض الغيطان وقطع عيدان خيار شنبر ووضعهم في قفة فقبض عليه الخولى وحصل بينهما تشاجر ، فأغلظ عليه الخولى القول وأتى به إلى حيث الوالى وقص عليه أمره فطلع به الوالى وعرضه على ملك الأمراء وهو حامل القفة التي فيها الخيار الشنبر ، فلما علم ملك الأمراء

(١) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ٣٧٨ أحداث ربيع الآخر ٩٢٠ هـ .

(٢) يقصد طوماى باى .

(٣) بدائع الزهور الجزء الخامس ص ١٠٥ أحداث رمضان ٩٢٢ هـ .

(٤) بدائع الزهور الجزء الخامس ص ٢٤٩ أحداث ربيع الآخر ٩٢٤ هـ .

(٥) بدائع الزهور الجزء الخامس ص ٢٥٢ أحداث ربيع الآخر ٩٢٤ هـ .

بذلك ، وكان ملك الأمراء حرج على بيع الخيار الشنبر وصار يشتريه على ذمته ويتجر فيه ، ثم أن ملك الأمراء رسم للوللى بشنق ذلك الرجل الذى سرق الخيار الشنبر « (١) .

« وفي يوم الاثنين ثامن عشر توفيت زوجة المقر الشهابى أحمد بن الجيعان وكانت جركسية الجنس تدعى شهد دار وكانت مبدعة فى الحسن والجمال من أجل النساء حسناً ، فافتتن بها المقر الشهابى أحمد بن الجيعان حتى أشغلته عن أمور أحوال المملكة ، قيل إنها كانت تحسن الضرب بالسبع آلات المطربة وهى : الجنك والعود والسنطور القانون والدرج والكمنجج والصينى . . . » (٢) .

وهكذا تنبض صفحات بدائع الزهور بأحداث الحياة اليومية المصرية خاصة فى الفترة التى عايشها ابن إياس ودون تاريخها يوماً بيوم ، ويمكن أن يحتوى بدائع الزهور من هنا على مرحلتين أساسيتين ، الأولى ينقل فيها ابن إياس عن كتب المؤرخين السابقين ، مع صياغة الأحداث بأسلوبه الخاص ، ثم ينتقل من الاعتماد الكلى على كتب السالفين إلى مرحلة الاعتماد على المعاينة والمشاهدة ويبدو هذا الانتقال واضحاً اعتباراً من سنة ١٤٦٨ م (٨٧٢ هـ) وهى السنة التى بلغ فيها ابن إياس العشرين من العمر ، وخلال تلك الصفحات العديدة . . «أورد أخبار السلاطين والخلفاء والأمراء من سلطنة وولاية وعزل ووفاء وذكر أحوال الفئات المملوكية من ثورة أو ركود ، وكتب فى النظم الإدارية ، والأحوال الاجتماعية والأعياد الدينية وغير الدينية ، ووصف المواكب والأسمطه السلطانية ومواسم لعب الكرة والصيد وسجل مناسيب النيل زمن الفيضان والتحاريق وذكر الأرصاء الجوية مع خسوف القمر وكسوف الشمس وهبوب الرياح وسقوط الأمطار وشرح أحوال العلماء والأدباء والشعراء والمؤرخين والأعيان والتجار ، وترجم للمتوفين منهم ترجمة طويلة أو قصيرة حسب المقام ، وذكر المنشآت والمباني السلطانية والأميرية من مساجد وعمائر ورباع وقباب ومدافن ، وتتبع أخبار الأسعار اليومية وشئون المحاصيل والمسكوكات من الذهب والفضة والنحاس . . . » (٣) .

نلاحظ أن ابن إياس لم يكن يورد الخبر أو الواقعة بروح باردة ، أو يكتفى بالتدوين ، بل كان يبادر بالتعليق ، تعليق إنسان ذى روح مرهفة متألمة ، أقرب إلى الصوفية ، بل إن أسلوب تدوينه للأحداث التى سبق أن كتبها مؤرخون آخرون يختلف ، فهو يضيف الحيوية على

(١) بدائع الزهور الجزء الخامس ص ٢٥٥ أحداث جمادى الآخرة ٩٢٤ هـ .

(٢) بدائع الزهور الجزء الخامس ص ٣٣٩ أحداث جمادى الآخرة ٩٢٦ هـ .

(٣) الدكتور محمد مصطفى زيادة - سلسلة تراث الإنسانية ، المجلد الثالث .

الحدث ، ويبدو هذا واضحًا في حادثة قتل السلطان المؤيد لابنه إبراهيم بالسم ، إذا ما قارنا رواية ابن إياس للواقعة ، ورواية شهاب الدين ابن حجر العسقلاني لها في كتابه « إنباء الغمر بأبناء العمر » .

كان ابن إياس شجاعًا أيضًا ، إذا فرض السلطان ضريبة على الناس هجاه بقصيدة ، أو ذكره بالكلام القاسي ، وبالتأكيد أن هذا كان يصل إلى حكام ذلك الزمان وكثيرًا ما يتحسر ابن إياس على ما جرى في زمانه من جانب الحكام في حق الرعية « حدث أن أصيب السلطان الغورى بارتخاء في جفنيه هدده بالعمى عندئذ راح يرفع المظالم عن الناس وألغى عددًا من الضرائب ، فكثر له الدعاء بالشفاء ، وتمنى ابن إياس النجاة له ، وكلما زاد ارتخاء جفون السلطان كلما زاد عدله في الناس ، وعم الرخاء ، وحدث أن أحد الأطباء داوى له عينيه ، وأصبح يرى كالعادة ، عندئذ عاد الحال إلى ما كان عليه فكثر الدعاء عليه من الناس ، وانتقده ابن إياس بشدة » .

وتبرز روح النقد هذه بشدة بعد غزو العثمانيين لمصر ، لقد اهتزت روح ابن إياس بما جرى في أواخر عمره ، ، وبدأ ينزف أسى في سطور الجزء الأخير من كتابه . لقد سار جنود العثمانيين كالبهائم في الطرقات ، لا قائد لهم ، ولا نظام ، يلوطون بالغلجان ، ويخطفون النساء ويهتكون الأعراض ، وسجل ابن إياس ما فاضت به روحه في قصيدة طويلة ، يرثى فيها ما جرى لمصر ، يبدوها . . .

نسوحسوا على مصر لأمسر قد جرى عمت مصيبة كل السورى
كانت روحه تغلى ، صحيح أن العثمانيين كانوا مسلمين ، وعندما طلب السلطان الغورى من المغاربة الخروج لحربهم قالوا نحن ما نحارب إلا الفرنجة ، لكن سيف العثمانيين لعب في رقاب المصريين ، كانوا همجًا اجتاحوا مصر التى تباهى بملكها الملوك . وتسجل صفحات بدائع الزهور أول صبيحات اليقظة الوطنية المصرية ضد المحتل في تاريخها الحديث ، ولا يكتفى ابن إياس بقصيدته ، إنما يورد قصيدة أخرى لشاعر من عصره اسمه قانصوه بن صادق تدور حول نفس المعنى ، إن ابن إياس يصب سخطه على العثمانيين الغزاة الذين فعلوا بمصر ما لم يفعل بهختنصر البابلى ، وكان أشد ما ألمه الخراب الذى حاق بالفلاحين وجعلهم يهجرون أرضهم ، وتحول مصر من سلطنة تحمى البحرين والحرمين إلى ولاية يعين حاكمها من استامبول ، إن الاحساس المتدفق بالوطنية المصرية لدى ابن إياس في هذا الزمن البعيد ليهز الروح حتى الآن .

ولم يكتف ابن إياس بمهاجمة العثمانيين ، إنما قاطع احتفالاتهم ، وأعيادهم ، ويجب أن

نعلم أن ما كان يكتبه ابن إياس كان يشيع ويعرف ، وقد ظل الكتاب متداولاً فترة طويلة تحت حكم العثمانيين . وهكذا تعتبر صرخات ابن إياس ضد العثمانيين أول احتجاج في التاريخ ضد هذا النوع الفظ من الاحتلال ، وطلبة الروح الوطنية في الشرق العربي .

* * *

يتضح من الكتاب أن المؤلف قرأ الكثير من الكتب التي تدور حول تاريخ مصر ، والموسوعات التاريخية الكبيرة قبل أن يبدأ في تدوين كتابه ، بدأ في تأليف كتابه حوالي عام ١٤٩٣ م « ٨٩٩ هـ » . أي عندما كان يبلغ الخامسة والأربعين من عمره ، وفي هذه الفترة كانت المنطقة تمر بأحداث متلاطمة ، فمنذ أواخر سلطنة قايتباي والعداء أصبح سافراً للدولة العثمانية بسبب انتصار المماليك على العثمانيين في أطراف آسيا الصغرى خمس مرات متتالية ، وفي الشرق ظهر الخطر البرتغالي على التجارة المملوكية في الهند بسبب اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح .

والطريف أن ابن إياس لما ظهر الفرنجة في المحيط الهندي قدم تفسيراً طريفاً وهو «أن الفرنجة قد تحايلا حتى فتحوا السد الذي بناه عليهم فيليب المقدوني وتسربوا منه إلى المحيط الهندي» أما في مصر فقد دب العطب إلى أوصال السلطنة المملوكية ، وإن سادها استقرار نسبي زمن الغوري ، تلك بعض الملامح العامة التي عاشها المؤلف أثناء سنوات نضجه ، وفي خضم هذه الأحداث كان متفرغاً بصبر ودأب في تصميم كتابه والإعداد له وفي سنة ١٥٠٨ م حدث ما عكر عليه صفو حياته وهدده بعدم اتمام الكتاب ، لقد ضاقت أحوال السلطان الغوري المالية ، فلجأ إلى حرمان أولاد الناس من إقطاعاتهم ، وذهب إقطاع ابن إياس إلى أربعة من المماليك الصغار ، وكان ابن إياس قد استطاع بفضل هذا الإقطاع أن يعيش عيشة راضية وأن يتفرغ للكتابة غير أنه لحسن الحظ لم يبق طويلاً بعيداً عن أرضه ، فقد شكّا إلى السلطان ما حاق به ، واستجاب السلطان له ، استمر ابن إياس بعد ذلك في تدوين زمنه حتى عام ١٥٢٢ م ، أي عندما بلغ السادسة والسبعين من عمره .

ويشير ابن إياس ، في الجزء الثالث « ص ١١٨ » إلى كتاب آخر له اسمه « نزهة الأمم في العجائب والحكم » ، ومن مؤلفاته الأخرى كتاب « عقود الجمان في وقائع الأزمان » وهو كتاب صغير في تاريخ مصر لا تربطه رابطة ببداية الزهور ، وكتاب « مرج الزهور في وقائع الدهور » ويدور حول قصص الأنبياء والرسول وكتاب « نشق الأزهار في عجائب الأقطار » ويدور حول الفلك وهيئة تركيب الكون .

* * *

يتميز أسلوب ابن إياس بتلقائية وحرارة ، وإيقاع هادئ في السرد ، مهذب . ساخر ك فكاهة المصريين ، بل إن فيه روحاً مصرية هادئة ، خاصة عندما يتحدث عن الزمان ، أو يسخر من الحكام ، إنه يبدأ فصول كتابه بجملة « رب يسر وأعن » ثم يمضى سرده هادئاً راسخاً كلإيقاع الأيام في زمنه : وإذا ما جرت حادثة ومضت بدون أن تترك أثراً يعلق قاتلاً « ولم تنتطح في ذلك شاتان » .

كما نجد كثيراً من الألفاظ العامية في جملة وهذه الألفاظ تضيف حيوية وحرارة على صياغته للحدث أو الخبر . وعندما يصف المطر تكاد تشعر به « فيها من المحرم في رابعة : أظلم الجو وأمطرت السماء مطراً غزيراً حتى أوحلت منه الأسواق واستمرت تمطر يومين متواليه » ، وعندما يظلم فقير ولا تمجد قضيته من ينصفها يقول « وراحت على من راح . . . » .

وعندما يتجاهر الناس بالمعاصي وينادى فيهم السلطان بالكف عن ذلك يقول « فسمعوا من أذن وخرج من أخرى » ، وعندما يموت أمير ظالم يصف قاتلاً « وحصل منه الضرر الشامل لجماعة كثيرة من الناس مصادرات وأخذ بيوت ورزق وحل أوقاف وغير ذلك من مفاسده » .

وعندما يستولى السلطان على ثروة أحد الأمراء يقول « واحتاط على موجودة من صامت وناطق » ، وعندما يقدم أحدهم رشوة يقول « وبرطل عليه برطيلاً كبيراً . . . » وكلمة برطيل لا تزال تستعمل في مصر بمعنى الرشوة ، وهو يلتزم الدقة في تدوينه للأحداث فيقول مثلاً (وقد شاهدت ذلك بعيني)^(١) عند وصف موكب السلطان ، أو يقول بعد سرده لما فرقه السلطان على المهاليك « لم التزم صحة ذلك »^(٢) وعند كسوف الشمس يقول « وكسفت الشمس في ذلك اليوم كسوفاً فاحشاً » ، وعندما تنتهى سنة يقول « وخرجت هذه السنة على خير » وعندما يعم الوباء « تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية وحصل للناس غاية الرعب » .

ويصف أحد الرجال عصره « كان الشيخ عبد الباسط ضنيناً بنفسه وعنده يحتل البعض مكاناً لا يتفق مع إمكانياته « فتلاعبت به الدنيا لكثرة هرجه ، وركب فيها في غير سرجه » وعندما يتحدث عن السلطان كان حكمه مستقراً « كانت الناس في أيامه في لهو وفرح ومخلعة » .

إن المعلومات التي وصلتنا عن ابن إياس قليلة فعلاً ، ولكن شخصية المؤلف وروحه ،

(١) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ٢٩٣ .

(٢) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ٢٩٤ .

ونبضه ، كل هذا موجود في كل صفحات الكتاب حتى لتشعر بإيقاع الزمن ، وطريقة حديث أهل عصره ، وتعليقاتهم المصرية الصميمة ، ولاشك أن هذا يضيف تفرّدًا على ذلك المؤلف الذي كان قريبًا من الفن ، إذ حفظ لنا صفحات حية من عصره تنبض وتفيض وأنقذها من العدم .

* * *

تجيب الإشارة إلى الجهد الرائع الذي قام به الدكتور محمد مصطفى « مدير متحف الفن الإسلامي سابقًا » في نشر بدائع الزهور ، هذا الجهد الذي استغرق عمرًا ، لقد دعاه الدكتور باول كماله عام ١٩٢٨ إلى الاشتراك معه في نشر الكتاب ، ثم بالفعل نشر الأجزاء الثالث والرابع والخامس في سلسلة النشرات الإسلامية التي تصدرها جمعية المستشرقين الألمانية ، وتتناول هذه الأجزاء تاريخ مصر وتسرّد الوقائع الهامة اعتبارًا من سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٨ م) حتى سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) . على اعتبار أن ابن إياس كان المؤرخ الوحيد تقريبًا الذي عاصر هذه الفترة الحاسمة من تاريخ البلاد .

* * *

وكان من الغريب أن يصدر هذا الكتاب الهام بعيدًا عن وطنه ، ولكنه أصبح أخيرًا متاحًا للدارسين والقراء ، بعد أن أصدرته الهيئة العامة للكتاب ، وكان هذا قرارًا اتخذته المرحوم الشاعر صلاح عبد الصبور رحمه الله وجزاه خيرًا ، وأخرجه إلى حيز التنفيذ الدكتور عز الدين إسماعيل رئيس الهيئة العامة للكتاب حاليًا .

تاريخ التراث العربى لسزكين

اكتشفت الكتاب أثناء زيارتى لجامعة مارتين لوثر بمدينة هاله فى ألمانيا ، تعرفت على الدكتور عرفة مصطفى وهو استاذ أصلاً فى جامعة الأزهر يدرّس اللغات القديمة المنشرة . وفى مكتبته الخاصة أطلعنى على الجهد العلمى الذى يقوم به من أجل ترجمة موسوعة « تاريخ التراث العربى » للعلامة التركى فؤاد سزكين بالمشاركة مع أساتذة آخرين . منهم الدكتور محمود فهمى حجازى . والدكتور سعيد عبد الرحيم .

أطلعنى على الأصل الألمانى . ويقع فى ثمانية مجلدات ، ما تم حتى الآن ترجمة مجلدين من الأصل ، صدرا فى عشرة مجلدات باللغة العربية ، أشرفت على المشروع ، ومولته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وما زال العمل مستمراً .

بعد عودتى إلى القاهرة أرسلت خطابا إلى الجامعة ، إلى رئيسها الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركى ، أخبرته اهتمامى بالكتاب ، وتعذر الحصول عليه فى القاهرة ، وأبدت استعدادى للحصول على نسخة وفقاً لأية شروط .

بعد عشرة أيام فقط ، فوجئت بخطاب من المسئول عن إدارة المكتبات بالجامعة يطلب منى التوجه إلى مطار القاهرة لاستلام نسخة أرسلت كهدية مضيّت إلى المطار لأعود بمجلدات الكتاب العشرة ، وكأنى حصلت على كنز نفيس ، فقيمة الكتاب لاتعادلها قيمة أخرى مهما كانت .

ماذا نجد فى هذه الموسوعة ؟

* * *

يقول الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركى فى مقدمة المجلد الأول « إن هذا الكتاب «تاريخ التراث العربى» يكشف بجلاء عظيمة تاريخنا الثقافى الممتد عبر القرون ، ويؤكد اهتمام سلفنا رضى الله عنهم ، بالبحث ونشر العلم .

« وكان قد سبق للهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة إصدار المجلد الأول من الكتاب فى جزأين بترجمة الدكتورين فهمى أبو الفضل ومحمود فهمى حجازى . ثم توقف إصدار

الكتاب ، لذلك صحت عزيمة الجامعة على ترجمة ونشر المجلدات الخاصة بعلوم القرآن والحديث والفقه والعقيدة والتاريخ والشعر العربى واللغة والنحو والبلاغة والنثر الفنى والعروض والأدب والفلسفة والمنطق وعلم النفس والأخلاق والسياسة والاجتماع . وأسندت ترجمة المجلد الأول إلى الدكتور محمود فهمى حجازى ، وترجمة الجزء الثانى إلى الدكتور عرفة مصطفى . كما عهدت إلى اساتذة متخصصين فى الجامعة قراءة الترجمة العربية للكتاب . وقامت إدارة الثقافة بالجامعة على طبعه ونشره . . . » .

* * *

إذن ، خصص الجزء الأول من المجلد الأول ، لعلوم القرآن والحديث ، ويقع فى خمسمائة صفحة من القطع الكبير ، يقول المؤلف فؤاد سزكين فى المقدمة العامة للكتاب إنه كان قد عقد العزم منذ سبعة عشر عامًا على عمل ملحق بمخطوطات مكتبات استامبول يضيفها إلى الكتاب الشهير لبروكلمان « تاريخ الأدب العربى » وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية وصدر عن دار المعارف بالقاهرة فى خمسة أجزاء ، يقول سزكين إنه لم يكن يدرى أنه مقدم على مغامرة كبرى ، فبعد فترة من الزمن قرر المستشرق رشر O.Resher ، وهو حجة فى تاريخ التراث العربى أن يشترك فى هذا العمل ، وأن يقدم للبحث والدراسة كل المادة التى جمعها منذ زمن بعيد ، وخاصة أثناء عمله بالمكتبة السليمانية باستامبول ، عندئذ قرر سزكين عدم الاكتفاء بالخطة السابقة ، إنما جمع كل ما يمكن جمعه من المواد والفهارس . والدراسات التى ظهرت بعد كتاب بروكلمان ، وكذلك من دراساته الخاصة للمكتب المطبوعة . ومجموعات المخطوطات . عندئذ تنازل العلامة رشر لسزكين عن هذه المواد ، وتخلّى عن المشاركة فى العمل ، فالعمل ضخّم ، غير واضح المسار والنهاية ، وكان الأستاذ رشر قد تقدم فى العمر كثيرًا .

* * *

إذن . . انفرد سزكين بالعمل فى هذه الموسوعة ، وعندما انتهى من الجزأين الأول والثانى وأعدهما للطبع . اتضح انهما فى الحقيقة عمل جديد مستقل عن كتاب بروكلمان ، لقد درس سزكين كل المواد المتاحة وحققها ، وراجع ما ذكره بروكلمان وأضاف إليه مجموعة كبيرة من المعلومات المكتملة مثل تاريخ المخطوطات . وعدد أوراقها وصفحاتها .

لقد ذكر أولاً المخطوطات التى قدمها بروكلمان ، واتبعها بمخطوطات جديدة عشر عليها .

يقول فؤاد سزكين :

« وقد كان من الممكن أن يخرج هذا الكتاب فى صورة أحسن وأكمل لو أتيحت لى فرصة الحصول على مساعدات مالية ، فجل رحلاتى العديدة فى أنحاء أوروبا ، وإلى شمال أفريقيا ،

وكذلك إلى الشرقين الأدنى والأوسط حتى إلى الهند ، انفقت عليها من مالى الخاص ، وكذلك ما تكلفته للعديد من ساعدوني ، وما دفعته ثمنًا للمراجع والفهارس ، وتصوير المخطوطات ، واستخراج المقالات من المجلدات العلمية . وقبل سنوات رصدت هيئة اليونسكو مبلغًا لتساعد في إخراج كتاب « بروكلهان » إخراجًا جديدًا . ولكن اللجنة المكونة لهذا الغرض أرجأت البت في هذا الموضوع حتى تبحث ما إذا كان عملي هذا يمكن أن تشمله هذه المساعدة أم لا . ولكن الموضوع كان يؤجل ، ولعل السبب الحقيقي لهذا التأجيل أنهم رأوا وجوب اشتراك مجموعة من العلماء في عمل كهذا يقوم كل واحد منهم ببحث مجال بعينه من مجالات المخطوطات العربية ولا جدال أن إنسانًا واحدًا لا يستطيع أن يمتلك زمام كل مجالات التراث العربى ، ولكنى رأيت بنفسى تعذر إمكانية اشتراك مجموعة من العلماء ، وفوق ذلك فإن اقتناعى يزداد كل يوم بأن دراسة التراث العربى لم تتقدم بعد تقدمًا كافيًا ، يتيح لنا الاتفاق على زمن نشأة فروع العلوم العربية المختلفة ، التى تبحث في هذا الكتاب ، وهذا الاتفاق هو الشرط الأساسى للقيام بعمل جماعى كهذا . وربما يطول انتظارنا حتى يمكن تحقيق مثل هذا العمل الجماعى ، فلا بد - أولاً من تكرار جهود عدد من العلماء يبحث كل واحد منهم - على حدة - المواد الجديدة . ويجمع الدراسات الحديثة هكذا . قام الأستاذ فؤاد سزكين بهذا الجهد العلمى الضخم بمفرده .

* * *

خصص الجزء الأول من المجلد الأول كما أشرت لعلوم القرآن والحديث ، يذكر المؤلف أولاً كتب القراءات فى العصر الأموى ، فيترجم لكل من قرأ القرآن فى العصر الأموى ، فيذكر تعريفًا به وبحياته ، ثم مصادر ترجمته ، ثم آثاره المكتوبة .

ثم ينتقل إلى العصر العباسى . حيث شهد هذا العصر تطورًا فى الدراسات اللغوية خاصة فيما يتعلق بشرح المواضيع المشككة فى القرآن الكريم ، وكانت مراكز هذه الدراسات فى البصرة والكوفة والحجاز .

ثم يقدم كتب التفسير فى العصر الأموى ، والعصر العباسى .

الباب الثانى يخصصه لعلم الحديث ، مناهجه . وتطوره ، فى صدر الإسلام ، ثم فى العصرين الأموى والعباسى ، ونجده يترجم لكل علماء الحديث النبوى الشريف ، يذكر تراجم لحياتهم ، ومؤلفاتهم ، ومصادرهم ، والمخطوطات المتبقية فى عصرنا الحديث . أماكنها ، وأرقامها فى المكتبات .

الجزء الثانى من المجلد الأول ، خصص للتدوين التاريخى عند العرب . تناول ، تاريخ

الجاهلية في العصر الأموي ، ثم العباسي ، ثم درس تدوين التاريخ العام وتاريخ الدولة الإسلامية . وحركة التأليف التاريخي في العصر العباسي ، والتاريخ المحلي ، وتاريخ المدن ، ثم التاريخ المحلي وتاريخ المدن في وسط الجزيرة العربية وجنوبها ، ثم التاريخ المحلي وتاريخ مدن الشام ، والتاريخ المحلي وتاريخ المدن في العراق ، والتاريخ المحلي وتاريخ المدن في إيران والشرق ، ثم التاريخ المحلي وتاريخ المدن في مصر والمغرب ، ثم التاريخ المحلي وتاريخ المدن في الأندلس ، ثم يتناول التاريخ الثقافي ، وأخيراً . حركة التأليف في العصر العباسي .

ونجد استمراراً لنفس منهج الكتاب ، حيث يورد مقدمة عامة للموضوع ، ثم يتناول المؤلفين ، يذكر ترجمة كل منهم ومصادر ترجمته ، وآثاره ، وأين توجد ، إذا كانت مخطوطة . وأين طبعت إذا كانت مطبوعة . وحتى يتضح أكثر منهج المؤلف ، ونقف على الجهد الهائل الذي بذله سأورد نموذجاً من الجزء الثاني من المجلد الأول .

* * *

الجهشياري

هو أبو عبد الله . محمد بن عبدوس بن عبد الله الجهشياري . أصله من الكوفة ، نشأ مع أبيه في بغداد ، وكان أبوه حاجباً للوزير علي بن عيسى ، فخلفه على الحجابة له ، ثم للوزير حامد بن العباس في خلافة المقتدر بالله ، وتوفي في بغداد سنة ٣٣١هـ / ٩٤٣ م .

(أ) مصادر ترجمته :

مروج الذهب للمسعودي ٢٤٩ / ٨ الفهرست لابن النديم ١٢٧ ، ٤٢٧ ، الوافي بالوفيات للصفدي ٣ / ٢٠٥ ، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٣ / ٢٨٩ . أخبار الرضاي بالله - تحقيق كسانار - الجزائر ١٩٤٦ ، ١ / ١٤٣ . الأعلام للزركلي ٧ / ١٣٥ . معجم المؤلفين لكحالة ١٠ / ٢٧٥ وانظر بروكلمان ملحق ١ / ٢١٩ .

- كتب سورديل عنه في دائرة المعارف الإسلامية .

- كتب عنه لاتس رسالة جامعية .

(ثم يورد عنوان الرسالة ، والجامعة ، وتاريخ مناقشتها) .

(ب) آثاره :

« كتاب الوزراء والكتاب » .

لم يصلنا إلا قسم مخطوط منه . يوجد مخطوطاً منه في : المكتبة الوطنية بفيينا ٩١٦ (٢٠٤) ورقة ، ٥٤٦ هـ) .

نشره منشك .

وحققه مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شليى القاهرة ١٩٣٨ وجمع مواد القطع المقتبسة عنه في الكتب المطبوعة وذلك في مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ١٨ / ١٩٤٣ / ٣١٨ - ٣٣٢ .

وجمع سوردييل قطعاً أخرى من مخطوطين اثنين . وكتب بها بحوثاً جديدة عن القسم الثانى من كتاب الوزراء والكتاب .

وكتب سوردييل أيضاً عن القيمة الأدبية والوثائقية لكتاب الوزراء ، والكتاب اعتماد خاص على الفصل الخاص بهارون الرشيد .

* * *

وهكذا . نجد هذه الدقة العلمية مع الشعراء ، والكتاب ، والعلماء ، والحفاظ ، والفلاسفة ، والأطباء ، والحكماء ، والمنجمين ، ورجال البحر ، أى أن الكتاب موسوعة موثقة ، علمية ، لسائر مؤلفات التراث العربى ، وسجل دقيق فريد لكل ما نشر منه ، والدراسات التى وضعت عنه ، والمخطوطات التى لم تنشر منه .

في الجزء الثالث من المجلد الأول نجده مخصصاً للفقهاء ، أما الجزء الرابع فمخصص للعقائد والتصوف .

المجلد الثانى كله يتكون من خمسة أجزاء ، مخصص للشعر ، الأول يتضمن مقدمة ودراسات ، والثانى مخصص للشعر فى العصر الجاهلى ، والثانى للشعر فى صدر الإسلام ، والثالث للعصر العباسى ، والرابع للعصر العباسى أيضاً ، والخامس لشعراء مصر والمغرب والأندلس فى العصر العباسى .

كذلك طبع من الكتاب جزء خاص مستقل يتضمن قوائم بجميع مجموعات المخطوطات فى مكتبات العالم .

حتى الآن صدرت عشرة مجلدات من الترجمة العربية ، ومن المنتظر صدور بقية الأجزاء تباعاً ، فتحية للمؤلف فؤاد سزكين ، وتحية لمن ترجم ، وتحية لمن دعم وأصدر هذا السفر الموسوعى الجليل الذى يبرز عظمة الحضارة العربية .

الفهرس

٥ التراث العربى بين السابق واللاحق
١٧ عناصر الاستمرارية فى الثقافة المصرية
٢٣ تراجم
٢٩ لطائف المنن والأخلاق فى وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق
٤١ ابن سينا يتحدث عن نفسه
٤٧ الاعتبار للأمير أسامة بن منقذ
٦٦ كتاب العصا
٧٢ المنازل والديار
٨١ الذخائر والتحف
٨٩ الأنيق فى المنجنيق
٩٨ ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب
١٠٨ سرور النفس بمدارك الحواس الخمس
١١٦ مقامات يمنية
١٢١ زخرقة ألف ليلة
١٢٥ مدينة ألف ليلة وليلة
١٢٩ الفوائد النفيسة الباهرة فى بيان أحكام شوارع القاهرة
١٣٣ عميد المؤرخين المصريين
١٣٨ النجوم الزاهرة
١٤٨ ابن إياس صاحب بدائع الزهور فى وقائع الدهور
١٥٩ تاريخ التراث العربى لفؤاد سزكين

رقم الايداع: ٩٧/٤٠٩٣
I.S.B.N. 977 - 09 - 0380 - 9

شروط الشراكة

القاهرة : شارع سيديه المصري - ت: ٤٠٢٣٢٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

منتهى الطلب إلى تراث العرب

إزاء ندرة المصادر ، وعدم تعامل دور النشر الكبرى مع التراث العربى ، وتعثر إصدارات مهمة ظلت مستمرة منذ أن عرفت مصر المطبعة ، فكرت فى التعريف بمصادر تراثية ربما يصعب الحصول عليها الآن ، إما لندرتها وإما لارتفاع سعرها بما يعجز عنه الشباب محدود الإمكانية .

لذا فكرت فى إعداد عروض وافية لعدد من هذه المصادر المهمة ، بحيث تعطى فكرة شاملة عنها . فإذا اهتم قارئى بكتاب معين ، فليتجه إليه ولا يعانى ما عانىنا فى البحث عنه . وقد حرصت على ذكر الناشر والسنة التى طبع فيها الكتاب .

وقد آثرت أن أبدأ بعرض عدد من كتب التراث المختلفة فى الأدب ، والتاريخ ، والفن الحربى ، على أن أتبع هذا المجلد . بأخر أخصصه للتعريف بكتب التراجم فى التراث العربى ، وثالث أقدم فيه مصادر القص العربى ، ورابع أقدم فيه أهم ما كتب حول العمارة الإسلامية من القدماء والمحدثين . راجياً بذلك أن أكون قد أسهمت بجهد ضئيل فى التعريف بتراثنا العربى ومصادره التى يصعب الوصول إليها والعثور عليها ، يوماً بعد يوم ، متمنياً من الله العلى القدير أن يهبنا العمر والقدرة على تحقيق ما نطمح إليه من التعريف بتراثنا العريق الذى يحيا فينا ولا نراه .

جمال الفيضانى

To: www.al-mostafa.com